

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

في مواجهة قريش والعصبيّة و الفتنة

عادل عبدالرحمن البدري



الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

في مواجهة قريش والعصبيّة والفتنة



عادل عبدالرحمن البدري

البدري، عادل عبدالرحمن، ۱۹۵۶ ـ م.
الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في مواجهة قريش و العصبيّة و الفتنة. ـ مشهد : مجمع البحوث الإسلاميّة ، ١٤٣٦ق. = ١٣٩٤ش.
۲۸۴ ص. ISBN 978-600-06-0013-6
فیپای مختصر.
الف. بنیاد پژوهشهای اسلامی. ب. عنوان.
کتابخانه ملّی جمهوری اسلامی ایران ۳۸۵۷۵۰۰



الإمام الحسن المجتبى عليه السلام
في مواجهة قريش والعصبيّة والفتنة

عادل عبدالرحمن البدري

مراجعة: جعفر البياتي

الطبعة الأولى: ١٤٣٦ق. / ١٣٩٤ش. / ١٠٠٠ نسخة ـ وزيري
الثمن: ١١٤٠٠٠ريال إيراني
الطباعة: مؤسّسة الطّبع والنشر التّابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة

مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٣٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٣٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٣٧٧٣٣٠٢٩
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

مقدّمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيّ العربي الهاشمي المدني المكّي القرشيّ، خاتم الأنبياء والرسل، محمّد المصطفى المختار، وعلى المعصومين الأبرار من آله، وعلى صحبه المنتجبين الأخيار.

في العام الأربعين من الهجرة النبويّة المباركة، وبعد أن نال وسام الشهادة الأب الكامل والوصيّ الراحل إلى دار الكرامة والخلود، الإمام المؤثّل والمجد المؤصّل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ورث الإمام الحسن عليه السلام الإمامة الدينية والخلافة السياسية في آن واحد، فهو باعتقاد الشيعة الإمامية آلت له سلطتان قويتان مؤيّدتان ليست متوفّرة للخلفاء الآخرين، أوّلاً بصفته الشرعية، كإمام ديني منصوص عليه، لابدّ أن يأخذ الموقع الثاني بعد أبيه عليّ عليه السلام في سلّم الإمامة، وإليه ينبغي أن ترجع الأمّة في أحكام دينها وتفصيلات المسائل الشرعيّة، وبصفته ثانياً خليفة الأمّة السياسي، وقائد الدولة الإسلامية الذي تسلّم هذا المنصب الكبير والخطير، وآل إليه بالمبايعة والانتخاب الذي أجراه الصحابة وعامّة المسلمين، والذي يطلق عليه في لغة أهل السنّة والجماعة اختيار أهل الحلّ والعقد، الذين يناط بهم اتّخاذ قرار يهمّ الأمّة والجماعة. ومهما كانت تسمية خلافة الحسن عليه السلام وموقعه السياسي

والطريقة التي اختير بها لتولّي هذا المقام، فهو حائز على رضى المسلمين، وكان في خلافة شرعية تعاقدية كانت بينه وبين الأمّة الإسلامية، والتي نالها برضى المسلمين من أهل الشورى أو أهل الحلّ والعقد، ووقع باختيارهم، لذا أطلق البعض عليه بتعبير يندرج ضمن هذا الاعتقاد فوصفه بخامس الخلفاء [١] وبتعبير الحافظ جلال الدين السيوطي:آخر الخلفاء. [٢] وبتعبير علماء الشيعة وفرقهم بعامّتهم، وبضمنهم الشيعة الإمامية، هو ثاني الأئمّة المعصومين عليهم السلام. وقد عدّ علماء أهل السنة والجماعة أنّ خلافته كانت مكمّلة للنبوّة، فقد قال كلّ من:

١ـ أبي بكر بن العربي : فنفذ الوعد الصادق في قوله صلى الله عليه وآله : «الخلافة في أمّتي ثلاثون سنة ثمّ تعود ملكاً». فكانت لأبي بكر و عمر و عثمان و عليّ وللحسن منها ثمانية أشهر لا تزيد ولا تنقص يوماً فسبحان المحيط لا ربّ غيره.

٢ـ و قال القاضي عياض: لم يكن في ثلاثين سنة إلّا الخلفاء الراشدون الأربعة والأشهر التي بويع فيها الحسن بن عليّ. . والمراد في حديث: الخلافة ثلاثون سنة. خلافة النبوّة فقد جاء مفسّراً في بعض الروايات: «خلافة النبوّة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكاً».

٣ـ وقال الحافظ ابن كثير: و الدليل على أنّه أحد الخلفاء الراشدين الحديث الذي أوردناه في (دلائل النبوّة) من طريق سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكاً»، و إنّما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن عليّ.

٤ـ قال شارح الطحاوية: وكانت خلافة أبي بكر الصدّيق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، و خلافة عليّ أربع

١ـ وضع الدكتور علي محمد الصلّابي عنوان تأليفه عن الحسن عليه السلام بهذا العنوان: **سيرة أمير المؤمنين** خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم، شخصيته وعصره، وقد نشرت هذا الكتاب دار المعرفة في بيروت عام٢٠٠٤م.

٢ـ **تاريخ الخلفاء**: ١٨٨.

سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستّة أشهر.

٥ـ و قال المناوي، بعد ذكره لقوله ﷺ: «ابني هذا سيّد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، قال: وكان ذلك، فلمّا بويع له بعد أبيه وصار هو الإمام الحقّ مدّة ستّة أشهر تكملة للثلاثين سنة التي أخبر المصطفى ﷺ إنّها مدّة الخلافة وبعدها يكون ملكاً. . . .

٦ـ وقال ابن حجر الهيثمي: هو آخر الخلفاء الراشدين بنصّ جدّه ﷺ، ولي الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة، فأقام بها ستّة أشهر وأيّاماً، خليفة حقّ و إمام عدل وصدق، تحقيقاً لما أخبر به جدّه الصادق المصدوق بقوله: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»، فإنّ تلك الستّة الأشهر هي المكملة لتلك الثلاثين، فكانت خلافته منصوصاً عليها، وقام عليها إجماع من ذكر، فلا مرية في حقّيتها.[1]

إنّ أهل السنّة والجماعة يعتقدون أنّ خلافة الحسن بن عليّ كانت خلافة حقّة، وأنّها جزء مكمّل لخلافة النبوّة التي أخبر النبيّ ﷺ أنّ مدّتها ستكون ثلاثين سنة[2].

ومن المؤكّد هنا أن تكون حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام السياسية والشخصيّة حياة شاقّة وعسيرة، لأنّه ورث مسؤوليّة الدولة وعناءها، إلى جانب مهمّته الكبرى كإمام معصوم ورث وظيفة النبوّة، فهو بين وراثة الإمامة ووراثة الخلافة السياسية عاش محنة هذا الثقل الكبير الذي كلّفه في أن يتنازل عن حقّه وموقعه في إدارة شؤون الدولة الإسلامية، والانصراف والركون إلى موقعه السماوي

١ـ هناك من يعتبر مصطلح الإمامة يرادف مصطلح الخلافة، فاللفظان يعبّران عن معنى واحد، وهو الرئاسة العامّة في أمور الدين والدنيا نيابة عن الرسول ﷺ، و الإمامة جاءت من معنى إمامة الصلاة، والخلافة جاءت من معنى خلافة النبيّ ﷺ في أمّته. ينظر: **معالم الفلسفة الإسلامية** لمحمّد جواد مغنية: ١٤٤.

٢ـ نقلت هذه الأقوال من كتاب **سيرة أمير المؤمنين**، خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن عليّ ابن أبي طالب، شخصيّته وعصره، للدكتور علي محمد الصلّابي: ١٨٢.

الذي وضعه الله له، في توجيه العباد وإمامتهم والسير بهم نحو الهداية والاستقامة. وكان الحسن عليه السلام، وهو يمارس دوره في هذه الوظيفة السماوية العظيمة، يعايش ويدرك ظروفه العسيرة، فاضطرّ إلى أن يخطو خطوات سياسية، تعكس وعي الإمام الحسن عليه السلام واستيعابه للمعطيات الاجتماعية والقبلية والسياسية التي كانت تكتنف الجو السياسي والاجتماعي للمسلمين وتعصف بهم آنذاك، وقد تجلّت دراية الحسن عليه السلام للأمور السياسية وعبقريته الدبلوماسية بصورة معاهدة أو مهادنة أو مصالحة عقدها مع الطرف المعارض للسلطة الشرعية المركزية، والذي كان يقوده معاوية والحزب الأموي الذي انخرط في الجبهة القرشية الواسعة التي كانت تتضايق من البيت الهاشمي، والذي كان يُحسب له حساب الانفراد بالأمور من دون الكيان القرشي الكبير، بعد اختيار السماء لأشرف إنسان منهم، وهو النبيّ المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله الذي عزّز البيت الهاشمي وشرّفه بوصيّه عليّ المرتضى عليه السلام، والذي صار هو وأولاده، بعد الاختيار السماوي لهم لإكمال الرسالة السماوية العظيمة[1]، غرضاً ومرمى للنيران القرشية الحاسدة التي أيّدتها العصبية الجاهلية القديمة التي أتعبت وأنهكت القيادة الدينية الواعدة بالتغيير، فواجهت الإمامة الرسالية وأتباعها المخلصين قوّة وعقبات امتدّت إلى جبهة وسلطة الإسلام الحقيقي انتهت إلى انسحاب القيادة الشرعية وتراجعها عن قيادة الأمّة، لما ألمّ بها من ظروف ومناخات صعبة دفعتها إلى التضحية الميدانية، ربّما يظهر بتقديم السلطة الزمنية إلى الإقليم المتمرّد في الشام الذي انفصل به معاوية عن جسم الأمّة الإسلامية، مع عدّة تحمل بذور ورواسب قبلية، بعد أن اصطفّت معها وجوه

١ـ ورث الأئمّة المعصومون عليهم السلام هذه الوظيفة من جدّهم صلى الله عليه وآله باعتبارهم أئمّة منصوص عليهم وحاجة الأمّة إليهم كحاجتها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله باعتبارات أنّ الإمامة أصل ضروريّ كالنبوة، وفي هذا تكون هي الرئاسة الكبرى والزعامة العظمى. ينظر: **تاريخ العقيدة الشيعية وفرقها**: ١٣٣.

قرشية قديمة وجديدة تحمل رؤى ورواسب جاهلية، على الرغم من أنّه كان في قيادة هذه الحقبة الزمنية الإمام الحسن عليه السلام وهو الخليفة الشرعي الذي نال السلطة بما كان يتعارف عليه جمهور أهل السنّة والجماعة، وقد حصل هذا التنازل والتضحية منه عليه السلام لكي ينصرف لمهمّات كبيرة وهائلة، و ليمارس دوراً عظيماً مكمّلاً لدور أبيه وجدّه، عليهما وعليه أفضل الصلاة والسلام، في دور جهادي وعلمي وسياسي جديد لينهض في مشهد لم يكن يدركه جهّال الأمّة، أو لم يكن مفهوماً إلّا لصحابة خلّص رزقوا وعياً وبصيرة، فاتّخذوا الصبر والطاعة سلاحهم في ظرف وزمان ينسجم مع مسيرة الأمّة السياسية، التي أريد لها ولقادتها أن تنعطف قليلاً وتنحني لتمرّ عاصفة من الضلالة، هذه الظروف والأوضاع قد واجهها الإمام الحسن عليه السلام، بعد تأمّل ودراسة، بصبر وجلادة وحلم عرف به، فانزوى وتريّث لحين انكشاف الأوضاع، أو يقضي الله ما هو قاضٍ، ومع هذا الغياب الظاهري عن موقع السلطة، فهو يلحظ كلّ الأوضاع التي ألمّت بالمسلمين، ويرى انحراف السلطة السياسية، ولكن يبدو للباحث المنصف وكأنّه لم تكن الظروف والأوضاع مواتية له حتّى اللحظات الأخيرة من عمره الشريف، لذا مال إلى الموادعة وانتظار وترقّب الأحداث، ولعلّ ما أثير في زمانه عليه السلام وفي الأزمان اللاحقة من تُهمٍ لشخصيته عليه السلام، وربّما إساءة غير مقصودة لمواقفه السياسيّة، والتي اضطرّ إليها رحمة بمستقبل الأمّة وحفظاً للخاصّة من أصحابه الذين استبقاهم لأدوار لاحقة، دفعتني لدراسة شخصيته عليه السلام والملابسات والإلصاقات التاريخية التي كانت توجّه له عليه السلام، ولعلّ الشيء الذي أزعجني هو ما جاء على لسان شخص هاشمي[١] أمسّ الناس به رحماً،

١ـ استمرّت العلاقات بين البيتين العلوي والعبّاسيّ ودّية في مطلع العصر الأمويّ، وكان البيتان متّفقين في المواقف، ولكن حين حمل الحسين عليه السلام لواء المعارضة المسلّحة آثر زعيم البيت العبّاسي عبد الله بن عبّاس اعتزال الحياة السياسية واستقرّ في المدينة وانصرف إلى العلم. ينظر: **جهاد الشيعة في العصر العباسيّ الأول**: ٦٦ .

وهو المنصور الدوانيقي، الذي قال لحفيده محمّد بن عبد الله بعد محاججة له معه: وأفضى أمر جدّك ـ أي أمر الخلافة ـ إلى أبيك الحسن فسلّمه إلى معاوية بخرق ودراهم. وأسلم في يديه شيعته وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حلّه، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه![1] وكأنّ الإمام الحسن عليه السلام هو شخص كسائر الناس، يتراكض ويلهث على فتات موائد الملوك، فتغويه دراهم معدودات يضعها الخليفة الأموي في صرّة من عطاياه وهباته! والعجب من المنصور أنّه نسي ما كان من بني أبيه العبّاس في تاريخهم السياسي الذي نوّه به معاوية[2] فقد كان لهم دور كبير في إضعاف الدولة والحكومة الإسلامية، والتي كانت تعصف بها المشاكل والأزمات والمواقف القرشية القوية، بمواقف فردية موغلة بالأنانية وحبّ الذات، أدّت إلى إضعاف وتشتيت طاقات أركان الدولة آنذاك، وتشتيت أفكارهم وأفكار صحابتهم المخلصين. وقد وضع بنو العبّاس عليّاً عليه السلام بين محنتين كبيرتين أو بين فتنتين، محنة ومشكلة أعدائه من جهة، وبين فتنة قادته وأصحابه الذين لا يقاومون إغراء المال، وكما حصل هذا الموقف المحرج أيضاً لعبيد الله بن العبّاس الذي كان قائداً كبيراً في جيش الحسن عليه السلام، فترك هذا الجيش وانحاز إلى الجبهة المعادية بدراهم وخرق، كان على المنصور أن يتذكّرها، فانهزام قائد ربّما كان في حسابات الجند كبيراً في أعينهم، وسيلان لعابه لبياض الدراهم المبسوطة في ساحة معركة مصيرية،

---

١ ـ ذكر ذلك المبرّد في **الكامل في اللغة والأدب** ٢: ٣٨٦.

٢ ـ من طريف ما يروى بأنّ معاوية بن أبي سفيان قال لابن عبّاس: استعملك عليّ على البصرة واستعمل أخاك قثم على مكّة فكان من الأمر ما كان، وكان من المال ما كان في أيديكما ولم أكشف عمّا وعته غرائركما، فقلت: آخذ اليوم مالاً وأعطي غداً مثله، وعلمت أنّ بدء اللؤم يضرّ بعاقبة الكرم. ولو شئت لأخذت بحناجركما وقيّأتكما ما أكلتما. **غرر الأخبار ودرر الآثار**، للديلمي: ٢٦٦.

أفشلت خطّة القائد الأكبر وأفقدته عنصر المباغتة والمفاجأة التي قد توقع هزيمة منكرة بجيش عاص متمرّد يناصب الحكومة المركزية العداء والمباغضة، و إذا أمعنا النظر في آثار هذه المواقف المتخاذلة نجد أنّ لها الأثر الكبير في ضعضعة بنية وتنظيم جيش العراق القوي الذي تمرّس في حروب جهادية كبيرة، فتراخى جنود هذا الجيش وفتّ في عضد قادته، وشلّ وأوهى ما تبقّى من خطوط وقوى كانت تنظر إلى رجالات بني هاشم نظرة تقديس و إكبار، فلذا يعدّ هذا القائد، الذي فرّ من ميدان المعركة، من أهم عوامل اضطرار القيادة السياسية والعسكرية إلى الموادعة، وتمزّق جيش العراق الذي عرف بالبأس والشدّة، وبالتالي قبول الحسن عليه السلام للأمر الواقع والظاهر على سطح الأحداث التي رآها وعايشها الحسن عليه السلام، ممّا دفعه إلى أن يضع يده بيد معاوية مسالماً ومصالحاً، وخصوصاً عندما فقد المناصر الذي كان يؤمّل منه أن يكون شوكة يقمع بها عدوّه ويهزمه. وقد رأى الحسن عليه السلام أيضاً في تلك المناخات والأوضاع المائجة بالفتن والفوضى ما كان من تململ عموم الجيش وانحدار وهبوط كبير في معنوياته وعقيدته، والذي ينبغي لهذا الجيش أن يقاتل ويبارز بعقيدة وبمعنويات عالية، و إذا به يعاني من خور وضعف كان يلمسه من مواقف شاهدها القائد بأمّ عينه، و إضافة إلى كلّ هذا فإنّ المؤامرات القرشيّة لم تكن تهدأ لحظة عنه، وهو ببعد نظره وبصيرته النافذة لم يتغفّل عن كلّ هذه الأوضاع، بما كان له من تجربة عسكرية وسياسية اكتسبها بملازمته لأبيه، وما ترشّح له من سلامة تفكير وقدرة على استنباط النتائج والأحداث قبل وقوعها، فجنح إلى ممارسة سياسة هادئة يسلّ بها خيوط الفتنة من جسم الأمّة الإسلامية، ويعمل في الوقت نفسه على المحافظة على الخطّ الرسالي الذي رسمه له جدّه وأبوه في قرارات سياسية اتّخذها وفقاً لمعطيات الزمن الذي عايشه. وسيجد القارئ بين فصول هذا الكتاب من العوامل الأخرى التي كانت

تفرض على الحسن عليه السلام من مواقف لابدّ منها، أدّت به في نهاية المطاف إلى أن يلاقي من المصاعب والمشاكل التي برزت من بين صفوف أتباعه وجنده، فتلقّاها صابراً حتّى رزقه الله الشهادة، ونقله إلى دار رحمته ورضوانه، فظلّت أسرار مصالحته ومواقفه السلمية مثيرة للبحث والجدل الذي نحاول أن نكشفه ونناقشه بإذن الله مع بقيّة فصول الكتاب الأخرى، بما توفّر لدينا من مصادر وأدلّة تاريخية، وما قدر لنا من جهد واستطاعة متواضعة يجدها القارئ في الكتاب لعلّها تكون مقنعة. وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت و إليه أنيب.

عادل عبد الرحمن البدري

التكوين التاريخي للكيان القرشي

ليست هناك تفاصيل عن مكانة قريش ونشأتها في القديم، فالنسّابون العرب يذكرون أنّ أصلهم يرجع إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث تحدّروا من ابنه إسماعيل عليه السلام الذي أسكنه أبوه الخليل إبراهيم عليه السلام مع أمّه هاجر في هذا الوادي غير ذي زرع الذي أشار له القرآن الكريم. ومنه اصطفى الله تعالى النبيّ محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله من أشرف بيت من العرب، وجاء في الأثر:إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم[1] ومحمّد صلى الله عليه وآله وقريش التي ينتسب إليها، والبيت الهاشمي برمّته يُنسب إلى العرب المستعربة، وهم الطبقة الثالثة من طبقات العرب على رأي أهل الأخبار، وهم العرب العدنانيون أو النِّزاريون أو المعديون. وهم من صلب إسماعيل عليه السلام وامرأته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي. وقيل لهم: العرب المستعربة لأنّهم انضمّوا إلى العرب العاربة وأخذوا العربيّة منهم، ومنهم تعلّم إسماعيل عليه السلام الجدّ الأكبر للعرب المستعربة العربيّة فصار نسلهم من ثمّ من العرب واندمجوا فيهم، وموطنهم الأوّل مكّة على ما يستنبط من كلام الأخباريين، فيما تعلّم إسماعيل العربيّة وفيها ولد

١ـ **الوفا بأحوال المصطفى**، لابن الجوزي: ٧٢.

أولاده، فهي إذن المهد الأوّل للإسماعيليين [١] ويروي البلاذري بإسناده إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ العرب كلّها بنو إسماعيل إلّا أربع قبائل: السلف، والأوزاع، وحضرموت، وثقيف. [٢] وأكثر المؤرّخين يقسمون العرب قبل الإسلام إلى ثلاثة أقسام: ١ـ العرب العاربة أو البائدة، وهم الطبقة الأولى من العرب التي بادت وانقرضت. ٢ـ العرب المتعرّبة، وهم أبناء قحطان الذين نطقوا بلسان العرب العاربة وسكنوا ديارهم. ٣ـ العرب المستعربة، وهم أبناء إسماعيل عليه السلام الذين عرفوا بالعدنانيين. ونزار هو الجدّ المشترك لمعظم القبائل العدنانية، حسبما تذكر جداول النسب العربية، والألفاظ الثلاثة: عدنان، معد، نزار تكاد تكون مترادفة في دلالتها على القبائل المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام [٣] والعرب المتعرّبة والمستعربة يقال لهما العرب الباقية. ويريدون بالعرب العاربة العرب البائدة، وهي القبائل القديمة التي بادت قبل الإسلام، والباقية عندهم قسمان: ١ـ العرب القحطانية [٤] من حمير ونحوها من أهل اليمن وفروعها. وينتسب عرب اليمن إلى يعرب بن قحطان، ويعرفون بالعرب المتعرّبة لأنّهم تعرّبوا، أي اقتبسوا اللغة العربيّة من العرب

١ـ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ١: ٣٧٥. وهناك من يقول: تكلّمت العرب العاربة بالعربية حين اختلفت الألسن ببابل، وأهل اليمن يقولون: أوّل من تكلّم بالعربية يعرب ابن قحطان، والأكثر يقول: إنّ أوّل من تكلّم بالعربية هو إسماعيل. جمل من **أنساب الأشراف** ١: ١٠.

٢ـ جمل من **أنساب الأشراف** ١: ٨.

٣ـ إحسان النصّ، **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: ١٣ و٣٩.

٤ـ العرب القحطانية: هم عرب الجنوب الذين ينسبون إلى قحطان. واختلف الناس في قحطان، فقال بعضهم: قحطان هو يقطان المذكور في التوراة بعينه، إلّا أنّ العرب أعربته فقالت: قحطان. وقال آخرون: هو قحطان بن هود عليه السلام بن عبد الله بن الخلود بن عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهو غير يقطان. وقال هشام عن أبيه وآخر: قحطان بن الهميسع ابن تيمن بن نبت بن قيذار، وهو قيذر وكان صاحب إبل إسماعيل عليه السلام، وهو ابن إسماعيل عليه السلام. **جمل من أنساب الأشراف**، للبلاذري ١: ٨ و٩.

العاربة، وهي البائدة. والعرب قبل الإسلام مرّوا بثلاثة أدوار كبرى، كانت السيادة في الدور الأوّل أو القديم لقبائل القسم الشمالي من جزيرة العرب، وأكثرهم من العرب البائدة، وفي الدور الثاني المتوسّط كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبي، وأكثرهم من القحطانية، والدور الثالث أو الأخير عادت السيادة فيه إلى الشمال، وينتهي هذا الدور بظهور الإسلام، وأكثر قبائله من العدنانية [١] وهناك تفاوت جغرافي ومناخي بين شمال بلاد العرب وجنوبها انعكس على أحوالهم ومعيشتهم وحضارتهم. وهناك نظرية ترى تأصّل البداوة في شمال وشمال غرب الجزيرة العربية، والقائل بهذه النظرية يعتبر أنّ انتشار البداوة تمّ انطلاقاً من الشمال وشمال غرب الجزيرة العربية، على الأرجح، عن طريق طرد الحضر باتجاه الجنوب، ولم يصل هذا النمط إلى حدود المناطق الحضرية في جنوب الجزيرة العربية إلّا في القرون المسيحية الأولى، وفي هذه الفترة بالذات تراجع دور الممالك الجنوبية القائمة على الزراعة، وأهمّ حادثة ضمن هذا الأطار هي تهدّم سد مأرب الكبير في القرن السادس الميلادي [٢] وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ**

١ـ جرجي زيدان، **العرب قبل الإسلام** ٤٨ و١٤١. وقيل في أصل تسمية الطبقة الأولى من العرب، وهم العرب العاربة، إمّا بمعنى الراسخة في العروبية، كما يقال:ليل أليل وصوم صائم. أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كان أوّل أجيالها، وقد تُسمّى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة، لأنّه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. وسمّيت العرب المستعربة بهذا الاسم، لأنّ السمات والشعائر العربية لمّا انتقلت إليهم ممّن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة، بمعنى أنّهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم، وهي اللغة العربية التي تكلّموا بها، فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم:استنوق الجمل واستحجر الطين. وأهل الطبقة الأولى لمّا كانوا أقدم الأمم، كانت اللغة العربية لهم بالأصالة. ينظر: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، للآلوسي ١: ٩ و١٠.

٢ـ دوبلانهول، **تاريخ أرض الإسلام، الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام**: ٢٧.

طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1] ومن هنا قد يلاحظ الباحث في تاريخ القسم الجنوبي لبلاد العرب بأنّ المناخ كان أكثر ملاءمة للزراعة من أمد بعيد، حيث ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد حضارة راقية قامت على أساس الزراعة والتجارة. وفي الحقّ أنّ السدود المنشأة لخزن المياه وتصريفها والمدن المحصّنة والقصور والهياكل القائمة في تلك الأصقاع لا تزال إلى اليوم تشهد على ما كان يتمتّع به بناتها من الصناعة الزاهرة.. فإذا انتقلنا إلى أحوال بلاد العرب الشمالية وجدنا الصحراء التي تؤلّف معظم البلاد، هي التي تقرر الأحوال الاجتماعية، ذلك أنّ مراعيها الشتيتة لا تكفي إلّا لإقاتة المواشي الصغيرة والجمل الذي تشبع حاجاته ورغباته في سهولة فائقة، والذي يجد فيه العربي قوام طعامه ولباسه. و إذ كانت العناية بهذا الحيوان لا تمكن إلّا بالرحلة والضرب في المناطق النائية، فقد صار كلّ تنظيم سياسي قائم على الاستقرار في السكنى أمراً متعذّراً على البدوي. والصلة الدموية وحدها هي التي تعيّن الفلك الذي تضطرب فيه حياة البدو، فهي تربط الأسر بالعشائر، والعشائر بالقبائل، وحتّى الشعوب لا تزال تعيّن أنسابها بواسطة قرابة دموية مزعومة تجمع الشعب كلّه في نظام نسبي.. ولكن هذا الشعور الاجتماعي لا ينتظم الشعب كلّه، إنّه يمتدّ من العشيرة التي تشمل الأسر القريبة الضاربة خيامها جنباً إلى جنب إلى القبيلة التي تعدّ بضعة آلاف نفس وتجوب البراري معاً في طلب المرعى، وكلّ من يجترئ على التقدّم إلى منطقة قبيلة غريبة إنّما يعرّض نفسه للقتل أو للسلب على يد أولئك الأغراب الذين لا يعدون أن يكونوا أعداءه، وهو لن ينجو من مثل هذا المصير إلّا إذا وفّق إلى أن يلمس ثياب عدوّه أو خيمته، أو أن يدخل عليه منزله. وقد تمنح هذه الحماية للمسافر الغريب طوعاً وعن طيب نفس، وقد يضمّ أحد أفراد القبيلة رجلاً غريباً إلى عشيرته ضمّاً لا

١ـ سبأ: ١٥و١٦.

انفصام له، وبذلك يكون في مقدور القبيلة أن تتمثّل جماعات كبيرة، تعتبر في أوّل الأمر دخيلة، حتّى إذا انقضت بضعة أجيال منحت جميع حقوق الصلة الدموية. . وكان هذا القانون الصحراوي موضع تنفيذ في مدن الحجاز:الطائف، مكّة، المدينة. ففي هذه المدن كانت العشائر المختلفة، كما كان البدو في خيامهم، تعيش عيش الحرّية والاستقلال فلا تقرّ بالطاعة لأحد. وليس من شكّ في أن شعور الشرف الذي كان بالغ الحسّاسية في الصحراء قد وجد في مكّة ما يخفّف من غلوائه بعض الشيء، بسبب من المصلحة العامّة التي كانت للمكّيين في الكعبة المقدّسة، ومن التجارة التي كانت تعتمد على ازدهارها، و إذ كان كلّ فرد من أبناء مكّة معنيّاً بهذه الشؤون، فقد كانت العلاقات الاقتصادية فيها أكثر تعقّداً، وتفوّق العشائر الغنية على العشائر الفقيرة أعظم ممّا كان في الصحراء. أمّا في المدينة، حيث قامت موارد العيش الرئيسية على الزراعة والعناية بالنخيل، فقد كانت الحياة الاجتماعية أمعن في السذاجة، ممّا كانت عليه في مكّة، حتّى إذا آذن فجر الإسلام بالانبلاج كانت الثارات الدموية قد تعددت إلى درجة بعيدة، حتّى لقد صار الفرد لايجرؤ على مغادرة منطقته المحصّنة من غير أن يعرض نفسه لأشدّ الأخطار[1] ومع هذا التميّز الذي عرف به القرشيون وأهل مكّة في حصولهم على درجة من التمدّن والتحضّر فلم يتمكّنوا من تأسيس دولة كما هي عليه دول اليمن، أو على الأقلّ إبراز أمّة ذات ملامح مشتركة، والسبب يعود إلى الوثنيّة التي ضربت بأطنابها في مكّة، فالوثنيّة التي كان يدين بها أهل مكّة لم تكن كافية ليقيموا دولة قبل الرسول ﷺ، فكانوا في ضمن هذه الوثنية نظماً شتّى ومعبودات متفرّقة كثيرة ومبعثرة[2] ومن الجدير بالذكر هنا أنّه قد دخلت مكّة في طور النظام الاجتماعي، بعد أن مرّت بطور من الاضطراب والرحلات والغزوات والقتال على

١ـ ينظر: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، لبركلمان: ١٥ ـ ٢٠.

٢ ـ ينظر: **الإسلام والدولة المدنية**، لعبد المعطي بيومي: ٦١.

السيادة، لكن تاريخ مكّة الحقيقي يبدأ من أيّام قصيّ بن كلاب بن مرّة القرشي الذي تولّى أمر مكّة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، وبحكم قصي استقرّت قبيلة قريش في مكّة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادي وديني وأدبي ممتاز. فاستطاعت أن تقيم نوعاً من التنظيم الحكومي في مكّة، هو في جوهره تنظيم قبلي تطوّر بحسب مقتضيات ظروف الاستقرار في مكّة، وبحسب اتصالات قريش الواسعة وقيامها على التجارة واحتكاكها بالعالم المتحضّر. وقد تميّزت الوظائف الحكومية في مكّة إلى نوعين رئيسين:الأوّل هي الوظائف المتعلّقة بالكعبة، وهي السدانة والسقاية والرفادة، وكلّها تهدف إلى رعاية البيت الحرام و إعداده للزائرين، وتوفير الراحة للوافدين عليه في موسم الحجّ. والثاني متعلّق بإدارة الشؤون العامّة في البلد الحرام وتنظيم الحكم فيه. وقد تفرّعت هذه الوظائف في مكّة، سواء منها ما هو متّصل بالكعبة أو ما هو متّصل بالحكم في مكّة، إلى مجموعة من الوظائف بلغت ستّ عشرة وظيفة. . ولكي يتجنّب أهل مكّة كلّ ما من شأنه أن يثير التنافس فقد جعلوا لكلّ بطن من البطون القرشيّة وظيفة معيّنة، يختار البطن لها من رجاله من يشغلها على أساس العرف القبليّ الذي يعتبر الكفاية الشخصيّة أساساً للتصدّر، كما ألغوا الرياسة العامّة، وهي وظيفة شيخ القبيلة، واستعا ضوا عن ذلك بمجلس رئاسي هو مجلس الملأ، الذي يجمع زعماء البطون والعشائر، وهم مجموعة من الرجال النظراء الذين تميّزوا بالكفاية، والذين حفلت بهم مكّة قبل الإسلام، وقد وضع هؤلاء الرجال نصب أعينهم دائماً المحافظة على وحدة مكّة وحلّ جميع مشاكلها بالطرق السلمية، وبذلك ارتضت مكّة نوعاً من الحكم نستطيع أن نسمّيه حكومة الملأ.[١] وربّما كانت هناك بعض الملامح قد يشترك فيها عرب الشمال والجنوب عموماً في الجزيرة، ومع هذا فقد

١ـ أحمد إبراهيم الشريف، **دور الحجاز في الحياة السياسية العامّة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة**: ١٦.

وضعوا بعض الفوارق، وهي بالحقيقة تعود إلى ما كانت عليه وضعيتهم الجغرافية والاقتصادية التي طبعت القبائل التي تقسّمت بين جنوب الجزيرة وشمالها، فعرّفت هذه القبائل وفقاً لهذا التقسيم الثنائي، وكذلك أخذت هذه القبائل موقعها بين تقسيم العرب العاربة والمتعرّبة والمستعربة. فعدّوا من عرب الشمال أقوام وقبائل: عاد وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وجرهم الأولى، وحضرموت ومن ينتمي إليهم. ويعدّون العرب البائدة ساميين من نسل أرم، أي الآراميين، إلّا العمالقة فيقولون: إنّهم من نسل لاوذ بن سام أخي أرم، ويقولون :إنّهم ملكوا العراق (بابل) ثمّ نزحوا منها إلى جزيرة العرب. ويريد المؤرّخون بالعمالقة قدماء العرب، وخصوصاً أهل شمالي الحجاز ممّا يلي جزيرة سيناء الذين فتحوا مصر باسم الشاسو(البدو أو الرعاة) ويسمّيهم اليونان هكسوس، وأصل لفظ العمالقة مجهول. والغالب في نظر المؤرّخ جرجي زيدان أنّهم نحتوه من اسم قبيلة عربية، كانت مواطنها بجهات العقبة أو شماليها ـ حيث كان العماليق على قول التوراة ـ ويسمّيها البابليون ماليق أو مالوق، فأضاف إليها اليهود لفظ عم، أي الشعب أو الأمّة فقالوا:عم ماليق، أوعم مالوق، فقال العرب:عماليق أوعمالقة، ثمّ أطلقوه على طائفة كبيرة من العرب القدماء.[1] وكانت العرب العدنانية بادية أقامت في تهامة

---

١ ـ يقال:إنّ عمليق أبوالعمالقة ومنهم البربر، وهم بنوتميلا بن مازرب بن فاران بن عمرو بن عمليق ابن لوذ بن سام بن نوح عليه السلام. وعمليق هوأوّل من تكلّم بالعربية حين ظعنوا من بابل، ويقال لهم ولجرهم العرب العاربة. **الطبقات الكبرى**، لابن سعد ١: ٤٣. وفي رأي المسعودي وآخرين بأنّ سام بن نوح عليه السلام هوأبوالعرب والعجم. **إثبات الوصيّة**: ٢٤. ويروى في خبرعن عروة بن الزبير: بأنّ العماليق انتشروا في البلاد فسكنوا مكّة والمدينة والحجاز كلّه وعتوا عتوّاً كبيراً، فلمّا أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطئ الشام وأهلك من بها، يعني من الكنعانيين. وقيل:بعث إليهم بعثاً فأهلك من كان بها منهم، ثمّ بعث بعثاً آخرإلى الحجاز للعماليق وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً منهم بلغ الحلم. وفي خبرآخرأنّ بني إسرائيل كانت تغيرعليهم العماليق من أرض الحجاز، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكّة، فشكت بنوإسرائيل

والحجاز ونجد، إلّا قريشاً فقد تحضّروا في مكّة. وتقسم العدنانية إلى فرعين عظيمين: علكّ ومعد، أمّا علكّ فنزلت في نواحي زبيد جنوبي تهامة. وبقي من علكّ بقيّة إلى أيّام الإسلام، وليس لهم تاريخ يذكر. أمّا معد فهو البطن العظيم، ومنه تناسل عقب عدنان كلّهم، وإذا قال العرب معد يريدون القبيلة لا الرجل.[١]

والمعروف أنّ معظم شمالي شبه الجزيرة بادية، ومعظم جنوبي شبه الجزيرة حضر. من أجل ذلك نشأ شيء من الخلاف بين أهل الشمال وأهل الجنوب، وكان أهل الجنوب أهل زراعة وصناعة وحكومة مستقرّة، بينما كان أهل الشمال أهل رعاية وتجارة ورئاسة بالعصبيّة. وبما أنّ عرب الجنوب كانوا أقوى من الناحية الاقتصادية المادّية محتاجين إلى أن يكون أهل الشمال مدى حيويّاً لهم، فقد حاولوا التسلّط على عرب الشمال اقتصادياً وسياسياً، ومن هنا نشأ النزاع بينهم واشتدّت بينهم العداوة ونشبت أحياناً الحروب، ولم تكن هذه العداوة بين عرب الجنوب وعرب الشمال فقط، بل بين القبائل الشمالية، والقبائل الشمالية التي كانت تعتقد أنّ أصلها يرجع إلى عرب الجنوب أيضاً. وقد جرى التعبير عن هذه العداوة بألفاظ مختلفة: عرب الشمال وعرب الجنوب، قيس ويمن، بكر وتغلب.. وعلى العموم كان عرب الشمال على الفطرة، ليس لهم دين ذو عقائد وعبادات معيّنة مفروضة، ولكن كان منهم حنفاء، يسلكون في الحياة مسلكاً أخلاقياً لا يعتدون على أحد ولا يشربون الخمر، ثمّ يتّبعون في الحياة مسلكاً روحياً من التواضع وحبّ الخير

ذلك إلى موسى عليه السلام فوجّه إليهم جيشاً. ينظر: **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، للسمهودي: ١٥٩. ومن هذا يمكن تفسير ما جاء من إشارات في التوراة أو غير التوراة بخصوص العماليق.

١ـ **العرب قبل الإسلام**: ٥٣و٥٤و٢٢٦. قال ابن إسحاق: من عدنان تفرّقت القبائل من ولد إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، فولد عدنان رجلين: معد بن عدنان، وعكّ بن عدنان. فولد معد بن عدنان أربعة نفر: نزار بن معد، وقضاعة بن معد، وقنص بن معد، وإياد بن معد، وأمّا قنص بن معد فهلكت بقيّتهم ـ كما يزعم نسّاب معد ـ وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة. **السيرة النبوية** ١: ١٩.

والخشوع، ومن الاعتقاد بأنّ كلّ إنسان سيحاسب على أعماله في الآخرة على أعماله في الدنيا. ولقد اتّفق المؤرّخون على أنّه قد ظهرت قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وآله بوادر التنكّر للوثنيّة بين العرب في شبه الجزيرة. وكان بينهم من عاش في ملل من تلك الأوضاع الفاسدة، ونظر إلى وثنية العرب نظرة مليئة بالسخرية والاستهزاء، ولكن هؤلاء بين من كان يحاول الإصلاح ولايملك الطاقة التي تمكّنه من ذلك، وبين من كان يترقّب ظهور مصلح ينقلهم من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة إله واحد لا شريك له ولا نظير[١] وفي الأعمّ الأغلب قد تشكّلت الأحناف من مجموعة

١ـ هاشم معروف الحسني، **سيرة المصطفى** نظرة جديدة٨٧. كان هناك كثير من أعلام الحنيفية عاشوا وسط هذا الجمع الجاهل الذي لحقه مدّ من الشرك الجارف فأبعدهم عن فطرتهم، وكان أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله من الأحناف على دين إبراهيم عليه السلام ، وقد أشار القرآن الكريم بخطابه لنبيّه صلى الله عليه وآله لذلك الأمر في قوله تعالى ﴿**الَّذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ**﴾ الشعراء ٢١٨و٢١٩ . ففسروه بتقلّبه من آدم إلى أبيه عبد الله في ظهور الموحّدين، لم يكن فيهم من سجد لغير الله. **تفسير التبيان**، للشيخ الطوسي ٨: ٦٨. يقول ابن عبّاس:لمّا نزلت الآية المذكورة قال رسول الله صلى الله عليه وآله:لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات. يعني الرجال الطاهرين للإضافة. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نزل جبرئيل عليّ وقال:إنّ الله حرّم على النار صلباً حملك، وحجراً كفلك، وثدياً أرضعك. صلباً، أي عبد الله، وحجراً، أي أبو طالب وفاطمة بنت أسد أمّ عليّ، وثديا، أي آمنة أمّه وحليمة مرضعته. **تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار** عليهم السلام ، لعماد الدين الطبري: ٢١٦ . ومن هذا فالتوحيد جار في عقائد آبائه وأجداده، ولم تدنّس الوثنية والعقائد الجاهلية هذه الشجرة الكريمة، ومن ضمن هؤلاء عبد المطّلب الذي عُرف بالحنيفية والابتعاد عن وثنية قريش، وكان إلى جانبه عدد من الأحناف عرفوا واشتهروا في جزيرة العرب منهم:ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يوبّخ قريشاً ويقول لهم: والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، حتّى إنّ عمّه الخطّاب أخرجه من مكّة وأسكنه بحراء ووكل به من يمنعه من دخول مكّة كراهة أن يفسد عليهم دينهم، ثمّ خرج يطلب الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الأحبار والرهبان عن ذلك حتّى بلغ الموصل، ثمّ أقبل إلى الشام فجاء إلى راهب به كان انتهى إليه علم النصرانية

من الحكماء سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان، ولم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية و إنّما قالوا بوحدانية الله، كذلك تميّزوا بجانب سلوكي أخلاقي راق فرفضوا الرذائل التي تفشّت في مجتمعهم، مثل الزنا والمخادنة وشرب الخمر والتعامل بالربا ووأد البنات ـ و إن كان ذلك في قبائل محدودة ـ ولم يكتفوا بنبذ عبادة الأوثان فحسب، بل امتنعوا عن الذبح لها وعن أكل ما يذبح لها، وعن أكل

فسأله عن ذلك، فقال له: إنّك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلّك زمان نبيّ يخرج من بلادك التي خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم عليه السلام الحنيفية، فالحق بها، فإنّه مبعوث الآن هذا زمانه، فخرج سريعاً يريد مكّة، حتّى إذا توسّط بلاد لخم عدوا عليه وقتلوه، ودفن بمكان يقال له:ميفعة. وقيل:دفن بأصل جبل حراء. وفي كلام الواقدي عن زيد بن عمرو أنّه قال لعامربن ربيعة: وأنا أنتظر نبيّاً من ولد إسماعيل عليه السلام، ولا أرى أن أدركه، وأنا أدين به وأصدّقه، وأشهد أنّه نبيّ، فإن طالت بك مدّة فرأيته فسلّم منّي عليه. قال عامر:فلمّا أسلمت بلّغته صلى الله عليه وآله عن زيد السلام فردّ صلى الله عليه وآله عليه السلام وترحّم عليه. **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون**، للحلبي ١: ٢٠٣. ولم ينس ديوان الشعر العربي تسجيل هذه المشاعر الحنيفية التي كانت تقابل مدّ الشرك الجاهلي، فهناك نصوص شعرية تنسب لأبي الصّلت الثقفي في شأن الفيل، ويذكر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام:

إنّ آيات ربّنا ثاقبات ... لا يماري فيهن إلّا الكفور
خلق الليل و النهار فكلّ ... مستبين حسابه مقدور
ثمّ يجلو النهار ربّ رحيم ... بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمّس حتّى ... ظلّ يحبو كأنّه معقور
لازماً حلقة الجران كما قـ ... ـطّر من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث في الحروب صقور
خلّفوه ثم ابذعرّوا جميعاً ... كلّهم عظم ساقه مكسور
كلّ دين يوم القيامة عند ... الله إلّا دين الحنيفة بور

السيرة النبوية، لابن إسحاق ١: ٥١.

الميتة والدم، وكانوا على ثقافة عالية نسبياً، ذلك أنّ كثيراً منهم كان يقرأ كتب الديانتين الساميّتين: اليهودية والمسيحية، وبعضهم كان يعرف لغة أخرى غير العربية مثل العبرية والسريانية. . والأحناف لم يكونوا على مشرب واحد، بل كانت لهم توجّهات متباينة، والقاسم المشترك الذي كان يجمعهم هو رفض عبادة الأصنام، والبحث عن دين إبراهيم الحنيف، وفي سبيل البحث عن الدين الحنيف ساحوا في البلاد وقابلوا كثيراً من رجال الدين: الأحبار، والقساوسة، والرهبان وسألوهم عن دينهم . .[1] وكان لهؤلاء الأفراد بعض التأثير النسبي المحدود، يؤازرهم عدّة من اليهود والنصارى الذي دخلوا بيئة العرب، فالتقت رؤى هؤلاء مع ثقافات توحيدية متعدّدة تمازجت في التيّار المتحنّف الذي أسهم في إيقاظ الشعور الفطري الديني عند جماعات من عرب الجزيرة. ولكن مع الأيّام وبانتشار الجهل نشأ بين عرب الشمال شيء من الاعتقاد بالأوثان في المدن خاصّة، ثمّ تسرّب إليهم من الشام والعراق شيء من عبادة الأصنام، ومع الحكم الفارسي انتقل إلى بلاد العرب، في البحرين، شيء من المجوسية. ثمّ إنّ اضطهاد الرومان والروم البيزنطيين لليهود والنصارى في الشام والعراق دفع جماعات من اليهود والنصارى إلى اللجوء إلى بلاد العرب، وكذلك كان في شبه الجزيرة شيء من دين الصابئة، عبادة النجوم والقمر والشمس[2] وعلى العموم نالت الجزيرة العربيّة حظّها من أفكار التوحيد على يد أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، فقد انتشرت الديانتان الساميتان الإبراهيميتان التوحيديتان: الموسوية والعيسوية، أو اليهودية والنصرانية (المسيحية) في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، على تفاوت بينهما في المدى والرقعة أو المساحة، مع ملاحظة أنّ أولاهما ليست تبشيرية. والباحث محمد حسين هيكل يخالف هذا الرأي ويؤكّد أنّ رجال الدين في كليهما يبذلون الجهود

١ـ ينظر: خليل عبد الكريم، **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**: ١١٧.

٢ـ عمر فرّوخ، **تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية**: ٤٠و٤٢.

لنشر الدعوة إلى العقيدة التي يؤمنون بها. ويقول الباحث خليل عبد الكريم: ونحن نؤيّده في ذلك، ولو أنّ التبشير في ديانة اليهود أخفّ حدّة وأقصر باعاً وأقلّ نشاطاً. وينضمّ إليه أحمد أمين إذ نراه يقول: عمل اليهود على نشر ديانتهم جنوبي الجزيرة حتّى تهوّد كثير من قبائل اليمن، ومن أشهرها ذو نؤاس. وأيّا كان الأمر فالذي لا مرية فيه أنّ هاتين الديانتين التوحيديتين كان لهما وجود وحضور في شبه الجزيرة العربية. فليس صحيحاً إذن أنّ الأمّة العربية في ذلك العصر - يعني السابق على الرسالة المحمدية - كانت تعيش في عزلة، لا تعرف من أمر الأمم المجاورة لها شيئاً، فاليهودية و المسيحية لم تنزلا على أهل الجنوب ولا على أهل الشمال من السماء، و إنّما جاءتا أولئك وهؤلاء من الاتّصال بالأمم المتحضّرة المجاورة، فعزلة الأمّة العربية لا ينبغى أن يقبل أو يطمأن إليه. هذا ما رآه العميد د. طه حسين، فهو هنا يشجب الادّعاء القائل بأنّ عرب الجزيرة قبل الإسلام كانوا معزولين عن العالم. و يسم هذا الادّعاء بالسخف الذي لا يطمئنّ إليه العقل، و من ثمّ يتعيّن رفضه.

و يضيف د. محمد حسين هيكل سبباً آخر لانتشار الديانتين الإبراهيميتين آنذاك في شبه الجزيرة العربية: و هو اتصال العرب بما جاورهم من البلاد عند انتقالهم إليهم في القوافل للمتاجرة معهم. وكان طبيعيّاً أن يظلّ العرب الذين يتّصلون بنصارى الشام أو بنصارى اليمن في رحلتي الشتاء والصيف. وقد ورد ذكر رحلتي الشتاء و الصيف في القرآن الكريم في سورة قريش، ويرى العميد د. طه حسين أنّ مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن الكريم، و ينصح من يريد أن يدرس الحياة الجاهلية فعليه أن يدرسها في نصّ لا سبيل إلى الشكّ في صحّته، ادرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي، و نص القرآن لا سبيل إلى الشكّ فيه. . . و إنّ هذه بدهية حين تفكّر فيها قليلاً. إذن رحلتا الشتاء و الصيف حقيقة تاريخية قام دليل ثبوتها بموجب نصّ لا سبيل إلى الريبة فيه، كذلك ثبتت بالشعر الجاهلي، ولو أنّ الأستاذ العميد د. طه حسين يلقى ظلالاً من

الشكّ على صحّة هذا الشعر، ولكن تلك قضيّة تتعلّق بتاريخ الأدب اشتجر الخلاف حولها واحتدم، تخرج عن نطاق بحثنا. يقول شاعر جاهلي يمتدح هاشماً جدّ النبيّ صلى الله عليه وآله:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... سفر الشتاء و رحلة الإيلاف

و من اتصال العرب بتلك البلاد التي كانوا يسافرون إليها مرتين كلّ عام؛ الأولى في الشتاء و الأخرى في الصيف، عرفوا اليهودية و النصرانية، وعرفوا توحيد الإله، كما أنّهم تعرّفوا على كتابيهما المقدّسين. وسبب آخر هو انتقال تجّار من معتنقي هاتين الديانتين إلى بلاد العرب عامّة، و إلى مكّة خاصّة، والتي كانت ملتقى القوافل ومركزاً للتجارة العالمية ومستقرّاً لجواسيس الدولتين العظيمتين الرومانية والفارسية. ولا شكّ أنّ عرب الجزيرة قد احتكّوا بهؤلاء من خلال التعامل معهم وسمعوا منهم عقائدهم التوحيدية وانتقلت إلى كثير منهم، خاصّة وأنّ الوثنية أو التعددية الإلهية لم تعد تقنع شطراً كبيراً منهم، خلا من له مصلحة منهم في بقائها، وهم أرستقراطية قريش و صناديدها من الأغنياء والمتموّلين الذين كان يهمّهم أن تظلّ مكّة عاصمة للوثنيّة، لما يجرّه عليهم من مغانم.[1] والعرب شأنهم شأن الأمم والشعوب في الأرض اقتضت مصالحهم ومعايشهم أن تنشأ لديهم الحاجة للاتّصال بالآخرين فيتعرّفوا على ما لدى الآخرين ويتأثّروا بهم.

ومن هنا كان للحركة الاقتصادية والتجارية وما يتبعها من سفر وتنقّل وروابط وعلاقات اجتماعية واقتصادية، ولاندفاع أتباع الديانات السماوية في أرض الجزيرة العربية بعض الأثر في تعضيد التيّار السماوي و إضعاف الوثنية، فلقد ساعدت الأديان السماوية، التي كان لها منذ زمن طويل أنصار وأتباع في بلاد العرب، على استعجال هذا التفسّخ في الوثنيّة العربيّة واستفحاله. ففي جنوب

١ـ قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية: ٨٣.

الجزيرة بلغت اليهودية، في فترة من الزمان، مبلغاً من القوّة ظهرت آثاره في اعتناق الحكّام لها، واضطهادهم المسيحيين المنهمكين في النضال ضدّها. ومنذ القرن الأوّل بعد الميلاد واليهود يهاجرون إلى الواحات الواقعة في الشمال الغربي، إلى تيماء، وخيبر، ويثرب، وفدك، ليصبحوا فيها من ذوي الثراء. صحيح أنّهم انكمشوا على أنفسهم في أحياء منعزلة، ولكنّهم استطاعوا من غير شكّ أن يحملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم، وأن يذيبوهم في بوتقتهم. وكانوا يتكلّمون اللغة نفسها التي يتخاطب بها السكّان. وعلى الرغم من شدّة الحاجة إلى خدماتهم، كفلّاحين وتجّار وصاغة، فقد كان البدو لا يثقون بهم. ومن هنا لم تستطع اليهودية أن تؤثّر في حياة العرب الدينية تأثيراً أكبر من الذي كان لها في الواقع. أمّا النصرانية فتأتّت للعرب، الذين يمتازون بحساسيتهم البالغة للانطباعات الخارجية، من طريق مغايرة كل المغايرة. فقد كان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالآراميين الذين استوطنوا تلك الديار، والذين لوّنت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تلويناً تامّاً. والواقع أنّ النصرانية تمتّعت في ظلّ الإمبراطورية الرومانية بقوّة اجتذاب عظيمة، لمجرّد كونها دين الدولة الرسمي.[1] ومع ذلك فقد انضوت الأسرة اللخمية، ـ العاملة في الحيرة ـ لخدمة الفرس، آخر الأمر، تحت لواء المسيحية، معتقد أتباعها الحضريين. وليس من شكّ في أنّ بلاد العرب الداخلية، وخاصّة مدن الحجاز التجارية، لم تكن تجهل كلّ الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها،

١ـ لابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ ظهور السيّد المسيح عليه السلام في بلاد الشام فلسطين كان سبباً في تحوّل أهله منذ وقت مبكر إلى اعتناق الديانة المسيحية. وساعد على ذلك أنّ الدولة البيزنطية، التي ورثت الرومان في الشرق، جعلت المسيحية ديانتها الرسمية منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الأوّل، ومع ذلك كان سكّان بلاد الشام، الذين كان أغلبهم من النصارى العرب، يعتنقون المسيحية على مذهب مخالف للمذهب البيزنطي، كما تميّزت المسيحية الشامية أيضاً بالرهبنة التي ربّما انتقلت إليها من مصر، بحيث كثرت في الشام الصوامع والديارات. انظر: **موسوغة التاريخ الإسلامي، عصر الخلفاء الراشدين**: ٥٦.

بسبب من اتصالها الدائم بقبائل الشمال. وليس من شكّ أيضاً في أنّ الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتّى قلب الصحراء، كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية. أضف إلى ذلك أنّ الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية، فكان طبيعياً أن تكون أقدر على النجاح في نشر تعاليمها من كنيسة الدولة الرسمية [1] ولربّ عدد من الباحثين يؤيّد هذا التحليل التاريخي، فيعتقد بأنّ اليهودية والنصرانية قد تركت بصماتها في الذهنية العربية، وساهمت في هدّ عرى الوثنية والتعددية الإلهيّة، كذلك في تفسيخ وتفكيك البناء الجاهلي. ومجمل القول: إنّ الجزيرة العربية شهدت موجات من الأديان السماوية التي كانت تواجه وثنية العرب وتحدّ من قوّتها، سواء كانت هذه الموجات فردية أو جماعية، أوكانت مبرمجة من قبل زعماء هذه الديانات السماوية، أو غير مبرمجة، فقد تحرّك معتنقوها بدافع الغيرة والإيمان، والأنفة من هذه المعبودات الحجرية الصامتة، و التي انصاع لها جمع كثير من قبائل العرب، وامتلأت بها بلادهم حتّى اسودّت أحجارهم من هذا الشرك الظالم الماحق، الذي صمد له رجال موحّدون في لمسات ومحاولات ربّما فككت وأوهنت هذه العقيدة البائسة، ولكنّها ما كانت قادرة على إلغائها واجتثاثها، أو على الأقلّ إضعافها بالشكل المطلوب والمرجوّ هناك، حتّى كان انبثاق فجر الإسلام على يد النبيّ العربي القرشي الهاشمي محمّد ﷺ، و الذي رمى بمعبوداتهم في حياته الكفاحية والجهادية الشاقة خارج جغرافية الجزيرة العربية، وحلّ محلّها التوحيد الإبراهيمي الذي غطّى وشمل جزيرة العرب كلّها، بل تجاوزها، وظلّ ساطعاً بنوره.

١ـ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية:** ٢٧، ٢٨.

القحطانية والعدنانية في الإسلام

يقول المؤرّخ جواد علي:إنّ ما نسمّيه قحطانية أوعدنانية إنّما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام، شاء أصحابه ومثيروه رجعه إلى الماضي البعيد، ووضع تاريخ قديم له، فجعلوا له أصولاً زعموا أنّها ترجع إلى ما قبل الإسلام بكثير، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم وهابيل وقابيل والجنّ. وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القراطيس والكتب. فكان لهذا الصراع، ولوضع القبائل وتكتّلاتها في هذا الوقت، أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها، ليس في هذا العهد فقط، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً، إذ سجّلت هذه الأنساب:جاهلية و إسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيل والتدوين، أي في أوج هذه العصبية العنيفة التي عمّت الناس في صدر الإسلام. ومن هنا كان لابدّ ـ لفهم الفكرة القحطانية العدنانية ـ من الإلمام بنزاع قحطان وعدنان في الإسلام. والذين قاموا بتثبيت الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن، أو من المتأثّرين بالأحوال السياسية لذلك العهد، ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزّباً وتطرّفاً وميلاً إلى تأييد فريق على فريق. ومن هنا كان لابدّ لنا من التنبّه لهذه العصبية، واتّخاذ الحيطة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني

العدناني. وقد استُعملت في هذا العهد مضر[1] في مقابل الأزد، كما استعملت الأزد في مقابل تميم، وورد أهل اليمن أو اليمانية. ولكننا قلّما نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الفتن والحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة عدنان في مقابل قحطان. ويرجع بعض الباحثين انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين إلى نزاع يثرب ومكّة قبل الإسلام، ويرجعه آخرون إلى التنازع الطبيعي الذي هو بين البداوة والحضارة، فقد كان أهل يثرب، أي أهل اليمن، كما يقولون، أصحاب حضارة وملك، أمّا أهل مكّة ومن والاهم فقد كانوا أعرابا أو شبه أعراب، وكان الغالب على أبناء إسماعيل عليه السلام، وهم العدنانيون، البداوة، أي حياة التنقّل والغزو والرما ية، ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عن طبيعة أهل مكّة، ووقع النزاع والتنافس بين الجماعتين وتحوّل إلى نسبين. وقحطان كناية عن اليمن، وعدنان كناية عن قريش والقبائل التي ترجع نسبها إلى نسب قريش. وزعموا أنّ هذا النزاع هو نزاع الحضارة مع البداوة، نزاع أهل المدر مع أهل الوبر.[2] وهناك من يرى بأنّ مصدر

١ـ كان يُطلق اسم مضر مقابل الأزد، لأنّ الأزد من القبائل اليمنيّة، أو أي مقابل آخر من اليمن غير الأزد. ومضر هو من أجداد قريش كما ستأتي الإشارة لذلك في نسب قريش. وقد تحرّكت العصبيّة القبليّة للقبائل اليمنيّة تجاه المنتسبين لأبناء مضر القرشيين في موارد عديدة، منها ما جرى في صفّين لاختيار حكم من طرف جيش العراق حين قال الإمام عليّ عليه السلام: إنّ معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنّه لا يصلح للقرشيّ إلّا مثله، فعليكم بعبد الله بن عبّاس فارموه به، فإنّ عمراً لايعقد عقدة إلّا حلّها عبد الله، ولايحلّ عقدة إلّا عقدها، ولايبرم أمراً إلّا نقضه، ولاينقض أمراً إلّا أبرمه. فقال الأشعث: لا والله، لايحكم فيها مضريّان حتّى تقوم الساعة، ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن، إذ جعلوا رجلاً من مضر. فقال الإمام عليّ عليه السلام: إنّي أخاف أن يخدع يمنيّكم، فإنّ عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى. فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن، أحبّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ في حكمهما وهما مضريان. **وقعة صفّين: ٥٠٠**

٢ـ **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ٤٨٢ و ٤٩٣.**

الانقسام بين العرب، إلى قحطانيين وعدنانيين، يعود إلى ما ورد في التوراة في سِفْر التكوين، ومنه أخذ كتّاب البدء، أي الذين عنوا في أخبارهم ببدء الخلق، أمثال وهب بن منبّه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، وهم من أهل الكتاب.[١] وقد اتّضح شيء من الفوارق للمؤرّخين للعرب وغيرهم، فيتحدّث المؤرّخون من غير العرب عن أوضاع القبائل الشمالية في القرن الرابع الميلادي بالقول: إنّ القبائل العربية الشمالية لم تكن متجانسة، لا في مستوى تطوّرها الاجتماعي، ولا في أسلوب حياتها. فالبعض منهاكان يعيش في حالة بدائية، من حيث التنظيم القبلي، حيث كانت وظيفة كلّ أفراد القبيلة من الذكور هي القتال. ويذكر عنهم أنّهم لم يعرفوا أساليب الحياة الحضرية، بل كانوا في حركة دائبة ينتقلون من موضع إلى موضع[٢] وتساءل الباحث إحسان النصّ :هل كان الجاهليون على معرفة بهذا التقسيم الثنائي، يميّزون بين قبائل قحطانية وأخرى عدنانية، على النحو الذي نجده في كتب الأنساب ؟فأجاب بأنّ المرجّح عندنا أنّ التمييز الواضح الدقيق بين هذين الجذمين لم يعرفه الجاهليون، وليس في الشعر الجاهلي الموثوق بصحّته ما يدلّ عليه. كما أنّ الباحثين لم يجدوا في الكتابات والنقوش الجاهلية ما يدلّ على ذلك، إلّا أنّ مبدأ انقسام العرب إلى قبائل معدية أو عدنانية، وأخرى يمنية أو قحطانية، كان أمراً معروفاً على نحو ما، منذ العصر الجاهلي، فنحن نجد في النزاع الذي قام بين اهل مكّة وأهل يثرب قبيل الإسلام وبعده من المفاخرات التي جرت بين شعرائهما ما ينبئ بمعرفة العرب منذ تلك الحقبة أنّ ثمّة أصلين تنتمي إليهما القبائل العربية، وشعراء الأنصار كانوا كثيراً ما يشيرون إلى أصلهم اليماني المباين لأصول القبائل المعدية. ويذكر النسّابون بأنّ عدنان كان له

١ـ عبد الحكيم الكعبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوّة: ٣٥.

٢ـ العرب على حدود بيزنطة و إيران من القرن الرابع إلى القرن السادس: ٥٩.

ولدان:معد وعكّ وأنّ معد أنجب عدداً من الأبناء منهم نزار، و إلى نزار ينتمي معظم القبائل العدنانية. وقد وضع الشاعر حسّان في أحد أبياته قحطان بإزاء معدّ فقال:

فلو سئلت عنه معدّ بأسرها   وقحطان أو باقي بقيّة جُرهما[١]

وظلّت العصبية قويّة ومستفحلة بين العرب القحطانية والعدنانية لقرون، وربّما خرجت واستعرت بين ذوي العقيدة المتجانسة والهوى الواحد، فالكميت الأسدي ودعبل الخزاعي شاعران علويان في هواهما، و إماميان في معتقدهما، ولكنّهما تقابلا وتجالدا في انتسابهما إلى هذين الأصلين، فالكميت عدناني النسب فانبرى في شعره مفتخراً بنزار ومعرّضاً باليمن:

لنا قمر السماء وكلّ نجم   تشير إليه أيدي المهتدينا

وجدتُ الله إذ سمّى نِزاراً   وأسكنهم بمكّة قاطنينا

لنا جعل المكارم خالصات   وللناس القفا ولنا الجبينا

وما ضربت هجائنُ من نِزار   فوالج من فحول الأعجمينا

وقد نقض دعبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وغيرها، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها في قصيدة قال فيها:

فإن يك آل إسرائيل منكم   وكنتم بالأعاجم فاخرينا

فلا تنس الخنازير اللواتي   مُسخن مع القرود الخاسئينا

وما طلب الكميت طلاب وِترٍ   ولكنّا لنصرتنا هُجينا

لقد علمت نِزار أنّ قومي   إلى نصر النبوّة فاخرينا[٢]

والظاهر من هذه النصوص وغيرها أنّ النزاع لم يقف على التباهي بقحطان وعدنان، وبالأيّام وبالشجعان، بل تجاوز ذلك إلى التباهي بارتباط كلّ فريق

١ـ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي: ٣٥ و٣٦.

٢ـ مروج الذهب ٣: ٢٣١.

بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافة، فافتخرت النزارية بالفرس على اليمانية، وعدّوهم من ولد إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. ولم يقف النزاريون عند هذا الحدّ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فزعموا أنّ هذا النسب قديم، وأنّ قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة، وأنّ الفرس كانت في سالف الدهر تقصد إلى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل عليه السلام بانيه.[1] وهناك من المؤرّخين من يؤيّد ذلك الزعم، يقول المسعودي:وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به، تعظيماً له ولجدّها إبراهيم عليه السلام وتمسّكاً بهديه، وحفظاً لأنسابها، وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك، وهو جدّ أردشير بن بابك، وهو أوّل ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه كرجوع المروانية إلى مروان بن الحكم، وخلفاء العبّاسيين إلى العبّاس بن عبد المطّلب، ولم يل الفرس الثانية أحد إلّا من ولد أردشير بن بابك هذا، فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل عليه السلام، فقيل :إنّما سمّيت زمزم لزمزمته عليها، هو وغيره من فارس، وهذا يدلّ على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذا البئر، وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان:

زمزمت الفرس على زمزم ... وذاك من سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك، فقال:

وما زلنا نحجّ البيت قدماً ... ونلقي بالأباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتّى ... أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر ... لإسماعيل تروي الشاربينا

وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان ابن بابك هذا أهدى غزالين من ذهب وجوهراً وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه في زمزم.

١ـ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ٤٩٦.

وقد ذهب قوم من مصنّفي الكتب في التواريخ وغيرها من السير أنّ ذلك كان لجرهم حين كانت بمكّة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها والله أعلم.[١] وقد استغلّ العدنانيون ظهور الرسول صلى الله عليه وآله بينهم فاتّخذوا فاتّخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين، وقد أجابهم اليمانيون ـ باعتبارهم من نسل قحطان ـ على ذلك بأنّهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول صلى الله عليه وآله و إعلاء كلمة الله، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي، وهم الذين آووا الرسول صلى الله عليه وآله وفتحوا مكّة. وتمسّك العدنانيون بأذيال إبراهيم عليه السلام وعدّوه جدّهم الخاصّ بهم، مع أنّه جدّ العرب عامّة[٢] كما في القرآن الكريم، ونفوا كلّ مشاركة للقحطانيين في هذا النسب الشريف. وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجّتهم، فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله من صلب إسماعيل عليه السلام والرسول صلى الله عليه وآله منهم، فإبراهيم عليه السلام هو أبو المختصّ بهم[٣] وكان هناك من التنافس بين المكّيين وأهل يثرب قبل الإسلام، على الرغم من أنّ هناك بعض العلاقات الفردية الطيّبة بينهما، لأنّهما من سلالتين مختلفتين، لأنّ سكّان الجزيرة العربية ينتمون إلى مجموعتين مختلفتين في النسب هما: القحطانيون سكّان الجنوب، والعدنانيون سكّان الوسط، وينتمي سكّان المدينة من الأوس والخزرج إلى المجموعة الأولى، الذين كانوا على خلاف مع قريش. ويظهر أنّه لم يكن هناك حلف بينهما. ولما كان سكّان يثرب من القبائل العربية فإنّ نظمهم الاجتماعية كانت نفسها النظم السائدة بين القبائل العربية الأخرى. ونحن نعلم أنّ القبيلة تعدّ وحدة اجتماعية يقوم عليها النظام البدوي، وينظر أفراد القبيلة الواحدة إلى أنفسهم على أنّهم منحدرون من

١ـ **مروج الذهب** ١: ٢٦٥.

٢ـ وكما روي عن النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله أنّه قال: كلّ العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. **الطبقات الكبرى**، لابن سعد ١: ٥١.

٣ـ **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ١: ٥٠١.

أصل واحد مشترك هو الجدّ الأعلى للقبيلة، لذا كانوا يعدّون أنفسهم متساوين نظرياً في الأقلّ، في الحقوق والواجبات القبليّة العامة، ويتمتّعون بكلّ ما نظمه قانون العرف القبلي من حقوق. كما كان عليهم كلّ ما فرضه من واجبات على أساس التضامن التام بين الفرد وجماعته في ظلّ الدم المشترك.

أمّا من يسكن من القبائل الأخرى والأفراد بينهم، فهم في عداد الحلفاء. وهم لا ينحدرون من الجدّ الأعلى للقبيلة. وضعوا أنفسهم تحت حمايتها أو حماية أحد أفرادها لفترة قصيرة، أو بصورة دائمية. ومع أنّ القبيلة تدافع عن حلفائها باعتبارهم أفراداً منها، وترثهم إن لم يكن لهم وارث في القبيلة، وتعينهم على دفع دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبونه، كما أنّها تطالب بديتهم إن قتلوا، ولكن يجب أن لا ننسى أنّ ديتهم عادة هي نصف دية الصرحاء، كما أنّ الصريح لا يقتل بالحليف. وعلى الرغم من أنّ الحلف يصبح قويّاً إذا صاحبه قسم، إلّا أنّ البدوي لا يقبل زعامة الحليف أو المولى. ويظهر أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لمس منذ الأيّام الأولى، أو قبل الهجرة ما سيعانيه هو وأتباعه من المهاجرين من جرّاء سكناهم بين إخوانهم الجدد في الدين الأنصار في المدينة، إذ كان يعلم علم اليقين بالظروف الاجتماعية والتقاليد القبلية المترسّخة في نفوس القبائل العربية، والتي يصعب إزالتها في فترة قصيرة.[1] وحتّى النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه لم يسلم من نار العصبية الحارقة التي كانت متغلغلة في نفوس بعض القبائل اليمنية التي سكنت المدينة، وقد عبّرت عصماء بنت مروان عن هذا المنحى الجاهلي الذي يرى للقبائل اليمنية فضيلة على غيرهم من القبائل العدنانية التي ينتسب لها النبيّ صلى الله عليه وآله، فعرّضت بقولها:

فباست بني مالك والنبيت ... وعوف وباست بني الخزرج

أطعتم أتاويّ من غيركم ... فلا من مرادٍ ولا مذحج

١ـ العسلي، دراسات في تاريخ العرب ٢ : ٥٠.

ترجّونــه بعــد قتــل الــرؤوس كمــا يُرتجــى مــرق المنضــج

فقتلها عميربن عديّ بن خرشة بن أميّة الخطمي، فقال النبيّ ﷺ: لا ينتطح فيها عنزان[١] ولكن مع ما كان من قوّة جذب نحو العصبيّة القبلية التي كان عليها سكّان يثرب، وهم في عصبيتهم هذه شأنهم شأن العرب الآخرين، من عدنان كانوا أو من قحطان، والذين كانوا يرون الرابطة الدموية فوق كلّ الروابط، فإنّ النبيّ ﷺ كان يدرك هذا الأمر جيّداً فنحا بهم إلى رباط العقيدة الإسلامية والوطن الإسلامي الجديد، هذا الوطن الذي جعل جنسية الفرد المسلم وانتسابه وعصبيته هو الإيمان بالإسلام ووشائجه القويّة، وهذا الرباط الإسلامي والوشيجة الجديدة أصبحا المعيار المعتبر في درجة المواطنة، ولم يمنع الرباط الإسلامي منتسبي الديانات السماوية الأخرى من أن يمنحوا هوية المواطنة إذا التزموا بحرمة الوطن الإسلامي، واحترموا معتقدات المسلمين، ولم يتظاهروا أو يتجاهروا بما حرّمته الشريعة الإسلامية، ومنعته في كلّ المظاهر الاجتماعية. ولذا أوجب هذا الاعتبار المدني اتّباع وطاعة السيّد الجديد الذي رأس الأبيض والأسود، بصفته الرئيس الأعلى للدولة، والذي قطع خيوط الجاهلية المشدودة في غابر أيّامها بعصائب من الدماء والقيم الكافرة. ولكن لم تدم أيّام المسلمين المتسالمة والصافية بالمودّة والوئام كما أرادها الله ونبيّه، بل تقهقروا بابتعادهم عن عصر الرسالة وأيّامها، وخلوّ يد الشخص الكامل المعصوم من القدرة السياسية، جعلهم يرتدّون إلى عصبيتهم، حتّى كانت العصبية الجاهلية من أسباب ودواعي زوال ملك بني أميّة. يقول المسعودي: وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كلّ فريق بما له من المناقب، وتحزّبت الناس، وثارت العصبية في البدو والحضر، فنتج بذلك أمر مروان بن محمّد الجعدي وتعصّبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف

١ـ مغازي الواقدي ١: ١٧٢.

اليمن عنه إلى الدعوة العبّاسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أميّة إلى بني هاشم، ثمّ ما تلا ذلك من قصّة معن بن زائدة باليمن، وقتله أهلها تعصّباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر نزار ممّن بأرض البحرين وعمان كياداً لمعن، وتعصّباً من عقبة بن سالم لقومه من قحطان، وغير ذلك ممّا كان بين نزار وقحطان[1]

وعدّ الباحثون تنازع العصبيّات، من عوامل سقوط الدولة الأموية، والمقصود بتنازع العصبيات النزاع الذي جرى بين عرب الشام وعرب الجنوب في سوريا نفسها أو في المقاطعات (العراق وخراسان والأندلس على الأخصّ). ولقد كان الدافع الأوّل إلى هذا النزاع حبّ السيطرة، وذلك أنّ الخلفاء الأمويين أنفسهم كانوا يقدّمون اليمنيّة مرّة والقيسية مرّة أخرى. فإذا تقدّم اليمنيّة احتلّوا مراتب الدولة ونكّلوا بالقيسية، و إذا قدّم أحد الخلفاء القيسية عاد إلى الحكم وانتقموا من اليمنية خصومهم. ولعلّ من أبرز الأمثلة على ذلك أنّ عبد الملك بن مروان قدّم الحجّاج بن يوسف لمقدرته وحزمه، ثمّ جاء الوليد بن عبد الملك فأقرّ الحجّاج، ولكن الحجّاج كان من ثقيف، وثقيف من قيس. وبما أنّ الحجّاج كان قد ملأ مراتب الدولة بأهله فلقد امتلأت تلك المراتب بالقيسيين. فلمّا جاء سليمان، وكان يكره الحجّاج، لم يستطع أن ينتقم من الحجّاج، لأنّ الحجّاج كان قد مات، فصبّ غضبه على الذين قرّبهم الحجّاج، فأقصاهم عن الحكم وسجن بعضهم وقتل بعضهم. ثمّ إنّ سليمان ولّى على العراق يزيد بن المهلّب، وكان يمانيّاً، فجعل يزيد يضطهد القيسية.[2] فالفتنة القبليّة التي ركبها ولاة وقادة بني أميّة

١ـ مروج الذهب ٣: ٢٣٢.

٢ـ عمر فرّوخ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية: ١٩٧.

وانحاز لها بعض من خلفائهم هيّأت الأجواء والمناخات لانعطاف نصف الأمّة عنهم واتجاههم نحو بني هاشم، فاستثمر هذا الانعطاف دعاة بني العبّاس وساروا بهم نحو ثورة وحركة تتظاهر بالتخلّص من الانفعال والانحياز القبلي الجائر الذي سبّب الحرمان والتمييز في العطاء. وإذا كان حفظ النسب والبحث فيه في بدو الإسلام اعتبر فيه لاعتبارات دينية وإعلامية اضطرّ لها النبيّ صلى الله عليه وآله مع مجتمع لا يتفاهم إلّا بلغة قبلية، حيث كان ابن القبيلة يعتزّ بنسبه اعتزازاً كبيراً، إذ إنّه هو الذي يحدّد هويته فبدونه يتحوّل إلى دعي، وهو من ينتسب إلى غير قبيلته أو قومه. وكان من الضياع عند القوم أن يجهل امرؤ نسبه. ويحكي الإخباريون أنّ النعمان بن المنذر أثناء مفاخرته لكسرى أنوشروان تباهى بحرص العرب على الحفاظ على أنسابها أنّ العربي يعرف أباه وجدّه وجدّ جدّه.. بينما غيره لايعرف أعلى من أبيه.[١] ومع هذا الاعتبار المتأصّل عندهم في بعث الأنساب، كذلك كان اضطرار الخلفاء الأوائل، وفي وقت لاحق لتنظيم عطاء المسلمين، وتثبيتهم حقوقهم، وتثبيت أعداد المقاتلين وموقفهم من الجهاد والفتوحات الإسلامية، أدّى بهم إلى التوجّه نحو تدوين الدواوين وتنظيمها، لكن الدقّة والضبط الكافيين في مسك خيوط النسب لم تكن وافية، فخرائط أنسابهم ومشجّراتهم تنتهي بحدّها إلى نزار وعدنان.

ويختلف النسّابون اختلافاً كبيراً في شجرة النسب، ويظهر البعض ارتيابهم من القيمة التاريخية للأسماء التي تذكر بين عدنان وإسماعيل. ومهما يكن من أمر فإنّ القبائل الشمالية كلّها تحدّرت من نسل إسماعيل عليه السلام، كما اختلفوا في تعيين أوّل من سُمّي باسم قريش، وفي معنى هذه الكلمة.[٢]

١ـ **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**: ١٦٥..

٢ـ صالح أحمد العلي، **تاريخ العرب القديم والبعثة النبويّة**: ١٣٨.

قريش والتسمية القرشية

قريش كلّها من نسل رجل اسمه فهربن مالك بن النضربن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضربن نزار بن عدنان. فهي من القبائل العدنانيّة، أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب. ومن فهر فما بعده عرف اسم قريش في رأي أهل الأخبار، أمّا ما قبل فهر من آباء فلم يعرفوا بقريش، فقريش إذن هم فهر وأبناؤه، من سكّان مكّة أو من سكّان ظواهرها، أي كلّ من انحدر من صلبه من أبناء، وما كان فوق فهر فليس يقال له قرشي، وإنّما يقال له كناني[1] قال ابن قتيبة:النضربن مالك أبو قريش، وولداه مالك والصلت. فأمّا الصلت فصاروا إلى اليمن، ويقول قوم:إنّه أبو خزاعة، ورجعت قريش إلى مالك بن النضر، فهو أبوها كلّها، فولد مالك بن النضر فهراً والحارث وأمّهما جرهمية. ومن فهربن مالك تفرّقت قبائل قريش، فقيل لهم:بنو فهر. وولده غالب بن فهر ومحارب بن فهر.[2] وينسب إلى ابن الكلبيّ بأنّ قريش جماع نسب، ليس بأب ولا أمّ ولا حاضن ولا حاضنة.[3] والباحثون والمؤرّخون اختلفوا في سبب تسمية قريش، فبعضهم قال:هو من القرش،

١ـ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ٤ : ١٨.

٢ـ **المعارف**: ٦٧.

٣ـ العسلي، **دراسات في تاريخ العرب**٢: ٨.

وهو الكسب والجمع. وقيل: سمّيت قريشاً لاجتماعها بعد تفرّقها في البلاد. وقيل: سبب ذلك أنّ النضر بن كنانة ركب مركباً في بحر الهند فقالوا :كسر قريش مركبنا، فرماها النضر بحراب فقتلها وحزّ رأسها، وكان لها آذان كالشراع، تأكل ولاتؤكل، تعلو ولاتعلى، فقدم به مكّة فنصبه على أبي قبيس، فكان الناس يتعجّبون من عظمه فيقولون :قتل النضر قريشاً[١] وقيل:سمّي بنو النضر بن كنانة قريشاً، لأنّ النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه فقال بعضهم لبعض:انظروا إلى النضر كأنّه جمل قريش.[٢] ويقال في خبر نحو هذا بأنّ قريش منقول من تصغير قرش، وهو دابّة عظيمة في البحر تعبث بالسفن فلاتطاق إلّا بالنار فشبّهوا بها، لأنّها تأكل ولاتؤكل وتعلو ولاتعلى، وصغّر الاسم للتعظيم[٣] وقال النويري:أحسن ما قيل فيه: إنّ التقريش: التفتيش، فكان فهر بن مالك وهو قريش، يقرّش عن خلّة كلّ ذي خلّة فيسدّها بفضله، فمن كان محتاجاً أغناه، ومن كان عارياً كساه، ومن كان طريداً آواه، ومن كان خائفاً حماه، ومن كان ضالّاً هداه. قال الحارث بن حلّزة اليشكري:

أيّها الناطق المقرّش عنّا عند عمرو وهل لذاك بقاء[٤]

وقال آخرون :سمّيت قريش بقريش بن يخلد بن غالب بن فهر، وكان صاحب عيرهم فكانوا يقولون:قدمت عير قريش وخرجت عير قريش. وقال قوم:إنّما سمّيت قريش قريشاً لأنّ قصيّاً قرشها، أي جمعها، فلذلك سمّي قصيّ مجمّعاً. قال الفضل ابن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب :

أبونا قصيّ كان يُدعى مجمّعاً به جمع الله القبائل من فِهْر

١ـ مجمع البحرين ٤: ١٥٠ (قرش).

٢ـ العسلي، دراسات في تاريخ العرب ٢: ٨.

٣ـ تفسير القاضي البيضاوي ٢: ٢٧٠ ط حنفي مصر

٤ـ نهاية الإرب في فنون الأدب ٢: ٣٥٢.

وقال أيضاً:

نحن كنّا سكّانها من قريش — وبنا سُمّيت قريش قريشا[1]

قال الأزرقي:كان يقال لقصي :القرشي، ولم يسمّى قرشي قبله، ويقال أيضاً: إنّ النضربن كنانة كان يسمّى القرشي. وذكر أيضاً الرأي القائل بأنّ تسمية قريش بهذا لأنّها تكتسب وتتجروتحترش، فشُبّهت بحوت في البحر، وذكرما نسب لابن عبّاس قوله:سمّيت بأمر بيّن مشهور بدابّة في البحر تسمّى قريش [2] وإذا كان تفسيرهم لمعنى قريش بالتجمّع أو جمع المال أو التجارة أوغير ذلك، فإنّ هذه الاشتقاقات اللغوية دفعت المؤرّخ جواد علي بأن يستنتج بأنّ التسمية لم تكن قديمة، وإنّما هي لقب في الأصل أطلق على جماعة من بني فهر كانوا يسكنون مكّة فعرفوا به حتّى غلب على اسمهم وصار اللقب اسماً، ومن هنا اشتهر بين النسّابين أنّه اسم إنسان وجدّ قبيلة [3] واعتبر المؤرّخون والمعنيون بنسب قريش، وكذلك أبناء قريش أنفسهم، بأنّ قصي هو المؤسس للكيان القرشي، فقريش كانت تسكن الجبال والشعاب وأطراف مكّة، فلمّا ولي قصي البيت الحرام وأمر مكّة والحكم بها جمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكّة، فقسم منازلهم بينهم وسمّي مجمّعاً وملّكه قومه عليهم[4] وقد كان أهل مكّة عند ظهور الإسلام يرجعون نسبهم إلى قريش. ومعنى هذا أنّ غالبية أهلها كانت على هذا النسب حين تنتسب، جرياً على عرف الناس في ذلك العهد في رجع نسبهم إلى جدّ أعلى يفتخرون ويتباهون به، يتساوى في ذلك أهل الوبروأهل المدر. فأمر مكّة إذن في أيدي قريش في القرن السادس للميلاد

---

١ ـ ترتيب جمهرة اللغة ٣ : ١١٤ (قرش) .

٢ ـ أخبار مكّة ١: ٦٥ .

٣ ـ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١ :٤٠١.

٤ ـ تاريخ الطبري ٢ : ١٦.

أخذته من جماعة كانت هي المسيطرة عليها قبل تُدعى خزاعة، والذي مكّن قريش من خزاعة وسلّمها مكّة هو زعيم من زعمائها، عرف بالسياسة والكياسة والحذر، وهو قصي، وكان قصي زعيماً وتاجراً جمع مالاً كثيراً وولي عنايته البيت الحرام، وثبّت حكم قريش في المدينة حتّى صار لقومه نفوذ على سائر القبائل، فقصي إذن هو أوّل من أقام ملك قريش في مكّة [١] وقد حوّل قصي قريش إلى قبيلة مستقرّة في مدينة عامرة بعد أن كانت في أطراف مكّة متفرّقة في بني كنانة، ولم يكن سكّان مكّة قبل قصي بن كلاب يسكنون حول البيت، إنّما في خارج مكّة في رؤوس الجبال والوديان، ولايقيمون ليلهم في الحرم. ولكن قصي قال لقريش:أرى أن تصبحوا بأجمعكم في الحرم حول البيت، فوالله لا تستحمل العرب قتالكم، ولا يستطيعون إخراجكم منه، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً. وفي هذا النصّ وضوح كامل لسياسة قصي وأهدافه البعيدة، فإنّه يريد أن يبعد سياسة الحرب عن قريش من ناحية، ويثبّت التمسّك بقيادة أمر الكعبة من ناحية أخرى [٢] وعن تاريخ قريش والدور الكبير الذي لعبه قصي في صنع هذا التاريخ، يقول البلاذري: كانت خزاعة مستولية على الأبطح والبيت، وكانت قريش تحلّ الشعاب والجبال وأطراف مكّة وما حولها، فخطب قصي إلى حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة ابنته حبّى بنت حليل فزوّجه إيّاها. وكان حليل يتولّى أمر البيت ويتقلّد رئاسة خزاعة يومئذ، فلمّا كبر وضعف دفع مفاتيح الكعبة إلى ابنته حبّى فكانت تأمر قصيّا بفتحها مرّة، وتأمر أخاها المخترش، وهو أبو غبشان بن حليل، بذلك أخرى. ثمّ مات حليل، وصارت الرئاسة إلى ابنه المخترش، فسأل قصي أن يجعل سدانة البيت إليه، ففعل. قال هشام ويقال:إنّ حليل بن حبشية أوصى لقصيّ

١ـ جواد علي، **تاريخ العرب في الإسلام**: ٣٩.

٢ـ خضيّر عبّاس الجميلي، **قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الإسلام** ٣٠.

بسدانة البيت إكراماً لابنته بذلك[١] وكما تحدّث عبد الله بن عمرو بن زهير عن عبد الله بن خداش بن أميّة الكعبي عن أبيه قال:وحدّثتني فاطمة بنت مسلم الأسلمية عن فاطمة الخزاعية، وكانت قد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ قالا: لمّا تزوّج قصيّ إلى حليل بن حبشية ابنته حبّى وولدت له أولاده، قال حليل:إنّما ولد قصي ولدي، هم بنو ابنتي، فأوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكّة إلى قصي وقال:أنت أحقّ به.[٢]

ويتحدّث المسعودي عن تاريخ قصي ودوره في ولاية البيت والسيطرة على مكّة أيضاً فيقول:كان قصي بن كلاب بن مرّة تزوّج ابنة حليل، وحليل هو آخر من ولي البيت من خزاعة، ولمّا حضرت حليلاً الوفاة جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قصي ابن كلاب، فقيل له:إنّها لا تقوم بفتح الباب وغلقه، فجعل ولاية البيت إليها، وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يعرف بأبي غبشان الخزاعي، فباعه أبو غبشان إلى قصي ببعير وزقّ خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلاً، فقالت: أخسر من صفقة أبي غبشان. وفي بيعه لولاية البيت ببعير وزقّ من الخمر ونقله ولاية البيت من قومه من خزاعة إلى قصي بن كلاب، يقول الشاعر:

أبو غبشان أظلم من قصي — وأظلم من بني فهر خزاعة

فلا تلحو قصيّاً في شراه — ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وقال آخر في ذلك:

إذا افتخرت خزاعة في قديم — وجدنا فخرها شرب الخمور

وباعت كعبة الرحمن جهراً — بزقّ بئس مفتخر الفخور[٣]

وقالوا: ولمّا أخذ قصي مفاتيح الكعبة إليه، أنكرت خزاعة ذلك، وكثر كلامها

١ـ جمل من أنساب الأشراف ١: ٥٥.

٢ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد ١: ٦٨.

٣ـ في بعض النسخ: الفجور، بدل الفخور.

فيه، وأجمعوا على محاربة قصي وقريش وطردهم من مكّة وما والاها، فبادر قصي باستصراخ رزاح بن ربيعة وأخيه حنّ بن ربيعة، وكان رزاح سيّد قضاعة وقائدها، فسار إليه منجداً له في الدهم منه ومعه أخوه حنّ، فقاتل قصي خزاعة وألفافها من كنانة ومن ولد الربيط، وهو الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر. فلمّا ظهر قصي على خزاعة أخرجها من مكّة وأدخلها قريشاً وقسمها رباعاً بينهم، وتولّى أمر البيت. وقد كان أبقى على خزاعة بعض الإبقاء للصهر بينه وبينهم. فلمّا خرجوا عن مكّة وقع فيهم الوباء فمات بشر منهم [1] وكما هو معروف ومشهور لدى المؤرّخين قد آلت ولاية البيت وأمور مكّة في أولاد قصي من بعده، ويتحدّث الأزرقي عن توزيع الأدوار السياسية والاجتماعية والدينية بين ولديه: عبد الدار وعبد مناف، فيقول: كان قصي وحبّى يحبّان عبد الدار ويرقّان عليه لما يريان عليه من شرف عبد مناف، وهو أصغر منه، فقالت حبّى: لا والله لا أرضى حتّى تخصّ عبد الدار بشيء تتحفه بأخيه، فقال قصي: لأتحفنّه به ولأحبونّه بذروة الشرف حتّى لايدخل أحد من قريش ولاغيرها الكعبة إلّا بإذنه، ولايقضون أمرا ولا يعقدون لواءاً إلّا عنده. فأجمع قصي على أن يقسم أمور مكّة الستّة التي فيها الذكر والشرف والعزّ بين ابنيه، فأعطى عبد الدار السدانة، وهي الحجابة، ودار الندوة، واللواء. وأعطى عبد مناف السقاية، والرفادة، والقيادة [2] والحجابة تعني: أنّ القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة، أي أنّه كان يأذن للناس بالدخول في الكعبة. والراجح أنّها لا تتطلّب أن يكون صاحبها عالماً في الدين، كما أنّها لاريب كانت مورد رزق للقائمين بها. ودار الندوة يعني: الملأ الذي يجتمع منذ زمن قصي في دار تقع قرب الكعبة من جهة الشمال، ولعلّ الغرض من إقامتها قرب الكعبة هو إسباغ شيء من الحرمة عليها، ولم تكن

١ـ جمل من أنساب الأشراف ١: ٥٦.

٢ـ أخبار مكّة ١: ٦٦.

دار الندوة من الأبنية العامّة، بل هي ملك خاص لبني عبد الدار، توارثوها حتّى صارت لعكرمة بن عامربن هشام الذي باعها لمعاوية بن أبي سفيان بمائة ألف دينار[١] واللواء:هو الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قادة الجيوش، وليس لهذه الوظيفة صفة دينية، بل تتعلّق بشؤون الحرب فقط، وفي العادة يدافع أفراد القبيلة عن هذه الراية حتّى الموت[٢] وأمّا القيادة فوليها من بني عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف، ثمّ وليها من بعده أميّة بن عبد شمس، ثمّ من بعده حرب بن أميّة، فقاد الناس يوم عكاظ في حرب قريش وقيس عيلان، وفي الفجارين الأولى والفجار الثانية.[٣] وأمّا الرفادة: فكانت خرجاً تخرجه قريش في كلّ موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع منه طعاماً يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممّن يحضر الموسم، وذلك أنّ قصيّاً فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به:يا معشر قريش، إنّكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأنّ الحاج ضيف الله وزوّار بيته، وهم أحقّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيّام هذا الحج حتّى يصدروا عنكم، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كلّ عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيضعه للناس أيّام منى، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتّى قام الإسلام. وأمّا السقاية: فهي حياض من أدم كانت في عهد قصي توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة وتملأ بالماء العذب من الآبارعلى الإبل ويسقاه الحاج، وهي مهمّة في بلد مثل مكّة يقلّ فيها الماء العذب الصالح للشرب. وكانت السقاية عند ظهور الإسلام

١ـ لمّا بنى قصي داره سمّيت بدار الندوة، لأنّهم كانوا ينتدون فيها، فيتحدّثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم، وكانوا يعقدون الألوية فيها، ويزوّجون من أراد التزويج فيها. جمل من أنساب **الأشراف** ١: ٥٩.

٢ـ عبد الحكيم الكعبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوة**: ١٥١.

٣ـ العسلي، **دراسات في تاريخ العرب** ٢: ٢٠.

مودعة للعبّاس الذي كثيراً ما كان يمزج الماء بالزبيب[1] وكانت السقاية تعبّر عن مركز اجتماعي وديني مرموق، فلذلك قد يؤدّي هذا إلى حصول تنازع أو تفاخر بين الأجيال في نيل هذا الشرف، ويروى في ذلك أنّ عبد الله بن عبّاس قال:امتريت أنا ومحمّد بن الحنفية في السقاية، فشهد طلحة بن عبيد الله وعامر بن ربيعة وأزهر بن عبد عوف ومخرمة بن نوفل أنّ النبيّ ﷺ دفعها إلى العبّاس يوم الفتح.[2] وكانت لقريش مصالح ووظائف أخرى وزّعت بين قبائل قريش، ولكنها لا تساوي في العظم الوظائف التي كان يتقلّدها أحفاد قصي في خدمة الحجيج والبيت، وبذلك كانت مصالح الحكم[3] والولاية موزّعة بين رؤساء القبائل المختلفة من

١ـ ينظر: **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**، لصالح أحمد العلي: ١٥٠ و ١٤٥ و١٥٢.

٢ـ **كنز العمّال** ١٤: ١٢٤ ح ٣٨١٢٠.

٣ـ الحكم أو الحكومة :هي الأموال التي يسمّونها لآلهتهم، وكانت عند ظهور الإسلام عند الحارث ابن قيس السهمي. **دراسات في تاريخ العرب** ٢: ٢١. وهناك وظائف أخرى لم تكن من الوظائف الإدارية أو العسكرية أو الاقتصادية مثل وظيفة النسيء، وهي الوظيفة التي يعلن فيها المسؤول عليها الأشهر الحرم. ويظهر أنّ هذه الوظيفة كان يحدث فيها تلاعب من قبل القائمين بها، حيث يقدّمون أو يؤخّرون من الأشهر الحرم، ولهذا السبب حرّمه الإسلام بقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ**﴾ التوبة:٣٧. قال المفسّرون: كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلّوه وحرّموا مكانه شهراً آخر، حتّى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرّد العدد. وقيل: أوّل من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي:إنّ آلهتكم قد أحلّت لكم المحرّم فأحلّوه، ثمّ ينادي في القابل :إنّ آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرّم فحرّموه. **تفسير البيضاوي** ١: ١٩٤. ويقول محمّد بن إسحاق :كان أوّل من نسأ الشهور على العرب فأحلّ منها ما أحلّ وحرّم منها ما حرّم القلمّس، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة. . وكان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف، وعليه قام الإسلام. **السيرة النبوية** ١: ٤٢. وفي رواية أنّ النسيء كان إلى القلمّس وهو حذيفة بن فقيم بن عدي من بني مالك بن كنانة ثمّ إلى بنيه حتّى صار ذلك إلى آخرهم أبي

قريش حتّى لا يكون هناك مجال للنزاع. وهذا ما حفظ قريشاً ممّا أصاب سائر العرب من التنازع والقتال، إلّا أنّهم وإن لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد.[١] وكان أحفاد قصي يتفاخرون ويتبارون في عموم خدمتهم ورعايتهم البيت الحرام وزوّاره، لما لمكّة من موقع سياسي وديني واقتصادي، عززه ظهور النبيّ الكريم من هذه المدينة العريقة، وتقاسم القرآن مكّة في آياته مع المدينة، فمن الطبيعي أن تحظى كلّ شعائر ومظاهر مكّة باهتمام متزايد، فكلّ ما كان فيها من سقاية أو حجابة أو غير ذلك، يكون مدعاة للشرف والفضيلة، فينقل الطبري رواية عن محمّد بن كعب القرظي يقول فيها: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، والعبّاس بن عبد المطّلب، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، لو أشاء بتّ فيه، وقال العبّاس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد، وقال عليّ عليه السلام: ما أدري ما تقولان ! لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله تعالى ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[٢] ونحو هذه الرواية روى أبو بصير عن الباقر أو الصادق عليهما السلام أنّه قال: نزلت هذه الآية في حمزة وعليّ وجعفر والعبّاس وشيبة، أنّهم فخروا بالسقاية والحجابة فأنزل الله عزّوجلّ الآية. وكان عليّ وحمزة وجعفر صلوات الله عليهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله لا يستوون عند الله[٣] ولم يكن في حساب قصي آنذاك

ثمامة، وهو جنادة بن عوف بن أميّة بن قلع بن حذيفة وقام عليه الإسلام، وقد عادت الحرم إلى أصلها فأحكمها الله وأبطل النسيء. **تاريخ الطبري** ٢: ٣٩.

١ـ الشيخ محمّد الخضري، **الدولة الأموية**: ٣٧.

٢ـ **تفسير الطبري** ١٠: ٩٦ والآية في سورة التوبة: ١٩.

٣ـ **روضة الكافي**، للكليني، ط دار الأضواء، بيروت ٨: ١٤١. أو: ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ح/ ٢٤٥ ط دار الكتب

أن يكون هناك تنازع وتجالد بين الأحفاد حول هذه الوظائف الدينية والاجتماعية، والتي انعكس أثرها في قابل الأيام على مواقع الأسر القرشية. والذي يظهر هنا للباحث أنّ الوظائف التي أحدثها قصي وأورثها لابنه الأكبر عبد الدار من دون إخوته، ربّما حفظاً لبقائها بيد شخص واحد، وأنّها لا تحتاج في إدارتها آنذاك إلى أكثر من شخص، ولكن بتزايد أحفاد قصي أدّى إلى أن يجتمع أولاد عبد مناف بن قصي، وهم: عبد شمس، وهاشم، والمطّلب، وبنو أسلم بن عبد العزّى بن قصي على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي من الوظائف، وادّعوا أنّهم أولى بذلك منهم، فتفرّقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم يرون أنّهم أحقّ من بني عبد الدار، وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصي قد جعله لهم. ومن الجدير بالذكر أنّ كافّة أحفاد قصي، عدا أبناء عبد الدار، كانوا يداً واحدة ضدّ أبناء عمّهم بني عبد الدار، واستطاع كلّ فريق أن يكسب إلى جانبه بعض قبائل قريش، فعقد كلّ قوم على أمرهم حلفاً، يؤكّد على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، كما ساعدت قبائل من غير قريش كلا الجانبين. وقد سمّي حلف بني عبد مناف حلف المطيّبين، وحلف بني عبد الدار الأحلاف. وقبل أن تبدأ المعركة تمّ التفاوض والتشاور لتفادي الدماء، وتمّ عقد الصلح، على أن يتنازل بنو عبد الدار لبني عبد مناف عن وظيفتي السقاية والرفادة، وأن تبقى الوظائف الأخرى التي كانت في الأصل لبني عبد الدار في أيديهم. وهذه الوظائف هي: الحجابة، واللواء، والندوة، فرضي كلّ واحد من الفريقين بذلك وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كلّ قوم على من حالفوا [١] ومن ذلك الحين بقيت أمور الكعبة بيد أولاد عبد الدار حتّى إلى زمان فتح مكّة، عندما

الإسلامية ـ طهران.

١ـ خالد العسلي، **دراسات في تاريخ العرب** ١: ٧٧.

كان مفتاح البيت في آل أبي طلحة الذين أولدهم عبد الداربن قصي، وكان منهم شيبة الذي أعطاه النبيّ صلى الله عليه وآله مفتاح الكعبة[١] وفي رواية بشير النبّال عن الصادق عليه السلام أنّه قال: لمّا كان فتح مكّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عند من المفتاح؟ قالوا: عند أمّ شيبة، فدعا شيبة فقال: اذهب إلى أمّك فقل لها: ترسل بالمفتاح، فقالت له: قل له: قتلت مقاتلنا وتريد أن تأخذ منّا مكرمتنا ! فقال صلى الله عليه وآله: لترسلنّ به أو لأقتلنك، فوضعته في يد الغلام، فأخذه ودعا عمر فقال له: هذا رؤياي من قبل، ثمّ قام ففتحه وستره، فمن يومئذ يستر، ثمّ دعا الغلام فبسط رداءه فجعل فيه المفتاح وقال: ردّه إلى أمّك[٢] وجاء في رواية ابن حجر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دعا شيبة بن عثمان فأعطاه مفتاح الكعبة فقال: دونك هذا فأنت أمين الله على بيته. وقال مصعب الزبيري: دفع إليه وإلى عثمان بن طلحة وقال: خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلّا ظالم. وذكر الواقدي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أعطاها يوم الفتح لعثمان وأنّ عثمان ولي الحجابة إلى أن مات فوليها شيبة فاستمرّت في ولده.[٣] وقد كانت ولاية البيت ـ من قبل أن ينتزعها قصي ـ في خزاعة ثلاثمائة سنة، واستقام أمر قصي، وعشّر على من دخل مكّة من غير قريش، وبنى الكعبة، ورتّب قريشاً على منازلها في النسب بمكّة، وبيّن الأبطحي، وهم الأباطح، وجعل الظاهري ظاهرياً.[٤] وكلّ هذا لا يقلّ شأناً عنه إدارة البيت الحرام وتنظيمه. وعلى العموم لم تكن حيازة شرف سدانة الكعبة والوظائف الأخرى التي عرفت بنظامها المتميّز سهلة على قصي، أو أنّه حازها بهدوء وسكينة، فيروى عن بعض المؤرّخين ـ وكما تقدّم ذلك ـ لمّا أخذ قصي مفاتيح الكعبة وحازها إليه أنكرت خزاعة ذلك وكثر كلامها فيه، وأجمعوا على

---

١ ـ ينظر: جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ١ :٤٠٢.

٢ ـ **إعلام الورى بأعلام الهدى**، للطبرسي ١١٧، وج ١: ٢٢٥ ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

٣ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** ٢: ١٦١ الرقم ٣٩٤٢.

٤ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ٢: ٣١.

محاربة قصي وقريش، وطردهم من مكّة وما والاها، فبادر قصي باستصراخ رزاح بن ربيعة وأخيه حنّ بن ربيعة، وكان رزاح سيّد قضاعة وقائدها، فسار إليه منجداً له في الدهم منها، ومعه أخوه حنّ فقاتل قصي خزاعة وألفافها من كنانة ومن ولد الربيط، وهو الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، فلمّا ظهر قصي على خزاعة، أخرجها من مكّة وأدخلها قريشاً وقسمها رباعاً بينهم، فلمّا خرجوا عن مكّة وقع فيهم الوباء فمات بشر منهم. وسُمّي قصي مجمّعاً لجمعه قريشاً وقيامه بأمرهم. ويقال في أخبار أُخر: إنّ قصيّاً لم يحتج إلى محاربة خزاعة، لأنّ رزاحاً لمّا ورد مكّة أذعنت خزاعة لقصي وهابت حربه، وخرجت عن مكّة فدخلها[1] وكذلك نبيّنا الأكرم ﷺ كما كان لهذا البطل الحليم الذي يعدّ شخصاً متمدّناً وصاحب كيان ودولة عرفت بدولة قريش، لم يكن دخوله لمكّة وفتحها أمراً ميسوراً، فقد كان ثمن هذا الدخول باهظاً دفعه النبيّ ﷺ بصحب كرام وعدّة من أهل بيته وقبيلته، وكان مسجّلاً ومدوّناً بتاريخ من المعاناة والتضحيات والمكابدات. ووارث قصي القرشي قد عاش وسط بيئة قاسية كانت تتعارف على الغزو والسلب والغارات بعصبيات جاهلية لاترحم، فتمكّن من أن يجعل من هذه البيئة بيئة أبطال ورجال رسالة ومبادئ عظيمة ودولة تبسط نفوذها على جزيرة العرب، ومكّنها من أن تمتدّ حكومتها وهيمنتها على سلطة إمبراطوريتين عظيمتين، هما الإمبراطورية الفارسية والرومية، وقد جعل ﷺ من قريش القبيلة أمّة و دولة ذات سيادة وهيبة، بعد انضمام المسلمين معها في دولة الدين الإسلامي الحنيف، امتدّ نفوذها وسطوتها إلى الأمم الأخرى، وظهر بعد قصي أولاد من صلبه، وبعضهم آزر النبيّ ﷺ وسار في مسيرته، بما أضافوه من مكارم لهذه القبيلة، وبما صنعوه في مكّة من تنظيم و إدارة أبرزت مكّة، كمدينة متحضّرة ذات ريادة وسيادة، امتدّ أثرها إلى دول كثيرة و إلى

١ـ جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري ١: ٥٦.

ثقافة الديانات الأخرى، فالحياة المكّية ـ بما أضفوه عليها، من معالم التجارة والزيارة والطقوس الدينية التي نظّمها ورعاها أحفاد قصي على مدى أجيال متعاقبة في مكّة ـ دخلت في قاموس الأديان والثقافات الأخرى، وربّما لما ظهروبان من تنظيم و إدارة لم تفت الباحثين من أهل الديانات الأخرى من الإشارة لها، ففي حديث الباحث المسيحي الأب لويس شيخوعن هذه الشعيرة الإبراهيمية فيقول:ومن الفرائض الدينية الحجّ، ويراد به اصطلاحاً قصد مكّة للنسك، لكن اللفظ في الأصل يراد به مطلق النسك، وهي مشتقّة من العبرانية، وتكررت في الأسفار المقدّسة بمعنى العيد والاحتشاد. واستعارها نصارى العرب من السريانية، وهي عندهم كثيرة الاستعمال للدلالة على كلّ الحفلات الدينية، فاتّخذوها بهذا المعنى، وبمعنى زيارة الأمكنة المقدّسة [١] وكان من أثر هذه الشعيرة الإبراهيمية، التي عني بها أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله، و تشبّث بها القرشيون لأعصر لاحقة ومضت، فظلّ أبناء وأحفاد قريش يفتخرون بخدمة آبائهم لزوّار البيت الحرام، وبنسبهم القرشي الممتدّ لقصي الذي خدم هووأولاده مصالح قريش ومنافعهم وزوّار وحجّاج البيت الحرام، و إلى زمن ليس بالقصير، ربّما امتدّ إلى قيام الدولة العثمانية في القرون الحديثة. وكان النسب القرشي هوالمعيار الأوّل في خلافة المسلمين السياسية والدينية، انبثقت عنه رؤى وعقائد وفرق لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المسلمين السياسي. ولم يكن قدسية مكان مكّة الديني وحده هوالباعث على هذا الاهتمام المتزايد من قبل الدول والشعوب الأخرى، فقد كانت مكّة تتّخذ محطّة للقوافل منذ قديم الزمان، ولا أدلّ على قدسية هذا المكان من تسميته في كتب اليونان باسم مكاربوا، التي تعني بلغة الحميرين المقدّس. ويبدو أنّ أهمّيتها التجارية قد جلبت أنظار الدول المجاورة، ولا سيّما البيزنطيين إليها، فاستولى عليها أليوس

١ـ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية: ١٧٩.

كالوس في طريقه إلى اليمن، كما أنّ قصيّاً عندما قام بانتزاع ملك مكّة من خزاعة استعان بقضاعة، التي نشأ فيها والتي كانت ضمن نطاق حكم البيزنطيين. وحاول أبرهة الاستيلاء عليها بتحريض من البيزنطيين[١] فمن هذا كانت مكّة مركز شدّ وجذب للسياسة الدولية وفقاً لمقاييس ذلك الزمان، وزاد مكّة شرفاً ومجد قريش رفعةً وسؤدداً أنّ النبيّ المبعوث هو من أهل مكّة ومن قبيلة قريش سيّدة العرب، وفي أرفع نسب وأعلاه منهم. فكانت قبيلة قريش قد كمل شرفها وعظم قدرها واشتهر ذكرها، واستحقّت التقدّم على بقيّة القبائل وسائر البطون من العرب وغيرها برسول الله ﷺ، فنسب قريش انحدر من نضر بن كنانة إلى رسول الله ﷺ، وشرف قريش إن بقي لها من رسول الله ﷺ. فرسول الله في الشرف بمنزلة مركز الدائرة بالنسبة إلى محيطها، فمنه يرقى الشرف، فإذا فرضت الشرف خطّاً متصاعداً متراقياً متّصلاً إلى المحيط، مركباً من نقطة هي آباؤه وأباً فأباً. فالمركز الذي انبعث منه الشرف متصاعداً هو رسول الله ﷺ.[٢] ولكن طغاة قريش وجبابرتها كانوا يدفعون نسب النبيّ ﷺ إلى حواشيهم وأطرافهم، وفي هذا يروي العبّاس بن عبد المطّلب قائلاً: قلت: يارسول الله، إنّ قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوك مثل نخلة تنبت في كبوة من الأرض، فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله عزّ وجلّ يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثمّ حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثمّ حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثمّ حين جعل البيوت جعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً.[٣]

---

١ ـ صالح أحمد العلي، **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**: ١٣١.

٢ ـ **العدد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة**، لعلي بن يوسف: ٧٩.

٣ ـ **الوفا بأحوال المصطفى**، لابن الجوزي: ٧٣.

نسب النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله في شجرة النبوّة

يقول النويري: آدم عليه السلام هو الجدّ الخمسون لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وعمود النسب الطاهر المحمّدي من آدم عليه السلام في ابنه شيث بن آدم عليهما السلام، وهو هبة الله وأمّه حوّاء أمة الله. ولمّا قتل قابيل بن آدم أخاه هابيل ولد شيث، وقال آدم عليه السلام: هذا هبة من الله وخلف صالح. وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة على موضع الخيمة التي كان الله تعالى وضعها لآدم من الجنّة. والعقب منه في نوح عليه السلام. وعمود النسب من نوح عليه السلام في ابنه سام بن نوح عليه السلام، وسام هو الجدّ الأربعون لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله. وعمود النسب الشريف من سام في ابنه أرفخشذ بن سام، وعمود النسب منه في شالخ بن أرفخشذ، والعقب من شالخ في ابنه عابر بن شالخ، وعابر هو هود النبيّ عليه السلام، وله من الأولاد فالغ، وفيه عمود النسب، وهو أبو قريش وقحطان ويقطن، فولد يقطن بن عابر جرهم بن يقطن، كانوا ولاة البيت الحرام فمكثوا ما شاء الله، ثمّ استحلّوا المحارم، وكثرت فيهم المآثم فأخرجهم الله تعالى من جوار بيته ورماهم بالفناء، فلم يبق منهم أحد. وإبراهيم خليل الله عليه السلام هو الجدّ الحادي والثلاثون لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله. وروي عن عبد الله بن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: لمّا خلق الله تعالى آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض وحملني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثمّ لم يزل ينقلني من الأصلاب

الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتّى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط.[١] وأمّا نسب رسول الله محمّد نبيّنا وخاتم الأنبياء والرسل ﷺ في قبيلة قريش، فهو كما مذكور ومتّفق عليه بين المؤرّخين وأهل السيرة والأنساب: محمّد بن عبد الله ابن عبد المطّلب، واسم عبدالمطّلب :شيبة بن هاشم [٢] وسمّي بعبد المطّلب، لأنّه كان بالمدينة عند أخواله، فقدم به المطلب بن عبد مناف عمّه، فدخل مكّة وهو

١ـ **نهاية الإرب في فنون الأدب** ٢: ٢٨٦ و٢٨٧ و٢٩٠ و٢٩١ و٣٢٢ و٣٦٢.

٢ـ قال السهيلي :عبد المطّلب اسمه عامر في قول ابن قتيبة، وشيبة في قول ابن إسحاق وغيره، وهو الصحيح. وقيل :سمّي شيبة لأنّه ولد وفي رأسه شيبة، وأمّا غيره من العرب ممّن اسمه شيبة فإنّما قصد في تسميتهم بهذا الاسم التفاؤل لهم ببلوغ سنّ الحنكة والرأي. وأمّا هاشم فعمرو كما ذكر، وهو اسم منقول من أحد أربعة أشياء :من العمر الذي هو العمر، بضمّ العين، أو العمر، بفتح العين، الذي هو من عمور الأسنان، قاله القتيبي، أو العمر الذي هو طرف الكم، يقال:سجد على عمريه، أي على كمّيه، أو العمر الذي هو القرط. وزاد أبو حنيفة وجهاً خامساً فقال:في العمر، بضم العين:الذي هو اسم النخل السكر. وقصي اسمه زيد، وهو تصغير قصي، أي بعيد، لأنّه بَعُد عن عشيرته في بلاد قضاعة حين احتملته أمّه فاطمة مع رابّه ربيعة بن حرام. **الروض الأنف** ١: ٢٦ . ويروي الصدوق عن الحسن البصري أنّ عليّاً عليه السلام صعد منبر البصرة فقال:أيّها الناس انسبوني، فمن عرفني فلينسبني وإلّا فأنا أنسب نفسي، أنا زيد بن عبد مناف بن عامر بن عمرو بن المغيرة بن زيد بن كلاب، فقام إليه ابن الكوّاء فقال: يا هذا ما نعرف لك نسباً غير أنّك عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ! فقال له:يالكع، إنّ أبي سمّاني زيداً باسم جدّه قصي، وإنّ اسم أبي عبد مناف فغلبت الكنية على الاسم، واسم عبد المطّلب عامر فغلب اللقب على الاسم. ولعبد المطّلب عشرة أسماء منها:عبد المطّلب، وشيبة. واسم هاشم عمرو فغلب اللقب على الاسم، واسم عبد مناف المغيرة فغلب اللقب على الاسم، واسم قصي زيد فسمّته العرب مجمّعاً لجمعه إيّاها من البلد الأقصى إلى مكّة فغلب اللقب على الاسم. **معاني الأخبار**: ١٢٠ـ ١٢١ ح ١.

خلفه، فقالوا:هذا عبد المطّلب، فلزمه الاسم وغلب عليه.[١] واسم هاشم:عمرو بن عبد مناف. واسم عبد مناف المغيرة بن قصيّ، واسم قصيّ زيد بن كلاب بن مرّة ابن لؤي بن غالب بن فهربن مالك بن النضربن كنانة بن خزيمة بن مدركة. واسم مدركة عامربن إلياس بن مضربن نزار بن معد بن عدنان بن أدّ، ويقال:أدد بن مقوّم ابن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن[٢] ويرجع بعض أهل الأخبار اختلاف الناس في عدد الآباء والأجداد فيما بين عدنان و إسماعيل إلى أيّام النبيّ صلى الله عليه وآله فهم يذكرون أنّ الناس كانوا في خلاف فيما بينهم في عددهم، وأنّ الرسول صلى الله عليه وآله لمّا رأى خلافهم هذا نهاهم عن تجاوز نسب معد بن عدنان، وقال:كذب النسّابون فيما بعد عدنان. فهي أسماء سريانية لايوضحها الاشتقاق[٣] وروى محمّد بن سعد، عن عمرو بن العاص أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أنا محمد بن عبد الله. فانتسب حتّى بلغ النضربن كنانة، فمن قال غير ذلك فقد كذب[٤] ويقول السهيلي :صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه انتسب إلى عدنان لم يتجاوزه، بل روي عن طريق ابن عبّاس أنّه لمّا بلغ عدنان قال:كذب النسّابون مرّتين أو ثلاثاً[٥] ولا يختلف النسّابون إلى عدنان، ثمّ يختلفون فيما بعده، فبعضهم يقول:عدنان بن أدّ بن الهميسع بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم. وبعضهم يقول: عدنان من غير ذكر أد.[٦] وهناك من يتساءل:لماذا لم يسمح رسول الله صلى الله عليه وآله بذكر أجداده بعد عدنان ؟والجواب: أوّلاً ما هي الفائدة من ذلك، وثانياً بأيّ

١ـ **المعارف**، لابن قتيبة: ٧١.

٢ـ **السيرة النبويّة**، لابن هشام ١:١.

٣ـ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ١ :٣٧٧.

٤ـ **الطبقات الكبرى** ١: ٢٣.

٥ـ **الروض الأنف** ١: ٣٤.

٦ ـ **الوفا بأحوال المصطفى**، لابن الجوزي ٧١.

دليل يمكن أن تكون تلك الأسماء صحيحة، ثالثاً أنّ رسول الله ﷺ قال، بعد قراءة قوله تعالى ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾[1] :كذب النسّابون. فقد اعتبر رسول الله ﷺ الكلام المبني على الحدس والظنّ في هذا الصدد غيرصحيح.[2] كما وأنّ النبيّ ﷺ صاحب رسالة عالمية عظيمة كاملة لا تعني لديه شيئاً تفصيلات وتفريعات كثيرة في النسب البعيد القديم له ولبقيّة الناس، وإنّما يكون مهمّاً ما كان قريباً في الآباء لكي يعرف الناس آباءهم ومواقعهم في الجغرافيا البشرية، ولكي يصلوا أرحامهم، ولربّما يكون الإيغال في الأنساب باعثاً لضياع الوقت والاندفاع نحو عصبيات وأدها الإسلام يكون الجري المفرط في تقصّيها إثارة لها، وبهذا يفسّر ما رواه الشيخ الصدوق عن الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام في أنّ النبيّ ﷺ لمّا دخل المسجد رأى جماعة قد أطافوا برجل في المسجد فقال:ما هذا؟ فقالوا: علّامة يا رسول الله، فقال: وما العلّامة؟ قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيّام الجاهلية وبالأشعار، فقال النبي ﷺ:ذاك علم لا يضرّ من جهله ولا ينفع من علمه.[3]

١ـ الفرقان: ٣٨.

٢ـ ينظر: **أجداد النبيّ ﷺ**، للسيّد إبراهيم السيّد العلوي، مجموعة مقالات ورسائل المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الرقم ١٠: ١٥.

٣ـ **معاني الأخبار** ١: ١٤١.

أثر النسب القبلي في التنظيم المدني والعسكري

كان ابن القبيلة يعتزّ بنسبه اعتزازاً كبيراً، إذ إنّه هو الذي يحدّد هويته، فبدونه يتحوّل إلى دعيّ، وهو من ينتسب إلى غير قبيلته أو قومه، وندر أن اعتزّت أمّة بأنسابها مثل العرب، ومن ثمّ يمكن الجزم بأنّ النسب ملمح عربي أصيل ينفرد به العرب دون سائر الناس. والعرب مهتمّون بأنسابهم محتفظون بكيانهم، ومن الضياع عند القوم أن يجهل امرؤ نسبه، أو أن يكون دعيّاً أو ملصقاً أو زنيماً. ويحكي لنا الأخباريون أنّ النعمان بن منذر أثناء مفاخرته لكسرى أنوشروان تباهى بحرص العرب على الحفاظ على أنسابهم أنّ العربي يعرف أباه وجدّه وجدّ جدّه. . بينما غيره لايعرف أعلى من أبيه. والباعث على اهتمام العربي بنسبه يعود إلى أنّ العرب أمّة أمّية، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة فيها إلّا عدد قليل غاية القلّة، أمّا الباقون، وهم الألوف المؤلّفة، فقد جهلوها حتّى ولو كانوا من سراتهم، وكانوا يطلقون على من يعرف القراءة والكتابة، بالإضافة إلى صفتين أُخريين: الكامل. ومن هنا تنبع أهمّية حفظ الأنساب، وأن تعيها الذاكرة الحافظة وتختزنها جيلاً وراء جيل، إذ إنّ المجتمع العربي آنذاك كان صاحب ثقافة شفهيّة، بخلاف عدد من المجتمعات المعاصرة له كانت ذات ثقافة مدوّنة أو كتابية، سواء تمّ ذلك على الورق أو على الحجر أو عليهما معاً. والثابت أنّ العربية الجنوبية أو اليمن عرفت الثقافة المدوّنة

في صورها المتنوّعة، والثقافة الشفوية تعتمد على الذاكرة الفردية ثمّ الذاكرة الجماعية، ونظراً لأهمّية النسب في حياة العربي فقد كان حفظه أحد روافد الثقافة الشفوية، وتخصص بعض الأشخاص في هذا النوع من الفنّ إذا صحّ أن يوصف بذلك، وكانت لهم مكانة ومهابة. . وحول النسب تحلّقت الظواهر الاجتماعية، مثل: الخلع والولاء والحلف. . كذلك تترتّب على النسب آثار اجتماعية لا يمكن التهوين من شأنها، منها الميراث، وتحديد مكانة الفرد في القبيلة، فإن كان لصيقاً أو زنيماً فلا يحقّ له أن يشارك في مجلس القبيلة أو يتولّى رئاستها، وأيضاً الكفاءة في الزواج فالمولى لا يحقّ له الزواج من امرأة ذات نسب صريح. . والنسب الشريف الصريح إذا انضافت إليه الخلال الحميدة تحقّق معنى الحسب، وكلاهما من شروط الرئاسة والسؤدد في مجتمع الجزيرة العربية. وقد فطن القرشيون إلى ذلك من وقت مبكّر، فبجانب نسبهم الصريح الشريف حرصوا أشدّ ما يكون الحرص على اكتساب الخلال الحميدة والسجايا الرفيعة والأخلاق العالية والصفات الممتازة فتحقق لهم الحسب المنيف. وتحفظ لنا كتب السيرة الألقاب التي كانت تطلق على مؤسسي دولة قريش، والتي تقطع بأنّهم كانوا يتمتّعون بنسب شريف وحسب منيف أهّلهم لما وصلوا إليه من مجد، فقد كان هاشم من أحسن الناس وأجملهم، وكانت العرب تسمّيه قدح النضار والبدر. وكان أخوه المطّلب بن مناف ذا شرف في قومه وفضل، وكانت قريش إنّما تسمّيه الفضل لسماحته وفضله. وكانوا يسمّون بني عبد مناف بالمغيرات مدحاً لهم وتعظيماً:

إنّ المغيـــرات وأبناءهـــا   خيـــرأحيـــاء وأمـــوات

وأمّا عبد المطّلب الجدّ المباشر لمحمّد ﷺ فلقد تعدّدت ألقابه فهو: الفيّاض، والفضل، ومطعم الطير، وشيبة الحمد. وهكذا تكامل في قيادات قريش النسب الشريف والحسب الرفيع، ممّا لم يتح لأيّ قبيلة أخرى من قبائل شبه الجزيرة

العربية، وكان ذلك أحد الدعامات البارزة لبُنىً ساهمت في ترسيخ الدولة التي أقامها الحفيد محمّد ﷺ في يثرب.[١] ومن هذا الاعتبار كان الاهتمام بالنسب مهمّاً في العصر الجاهلي، إذ هو المرآة التي تظهر فيها نقاوة دم الفرد وارتباطه بالقبيلة. وقد ظلّ الاهتمام به حتّى بعد مجيء الإسلام، فأصبح أساساً للتنظيم المدني والاجتماعي في الأمصار العربية عند العرب، بل حتّى عند غير العرب، وكثيراً ما اضطرّوا عند سكناهم الأمصار إلى الانتساب إلى القبائل العربية باعتبارهم موالين لها، ثمّ أصبح كثير منهم على مرّ الأيّام يدّعون بأنّهم صرحاء في النسب.[٢] وكان ذلك واضحاً في التركيب الاجتماعي للمدينة الإسلامية. ولذلك ظهر هناك من يعتقد بأنّ المدن الإسلامية كانت مجرّد معسكرات قبلية، وأنّ التنظيمات القبلية ظلّت هي السائدة على البنية الاجتماعية للمدينة[٣] وعلى العموم كانت المدن الإسلامية وما لحقها من ولايات وتقسيمات إدارية هي معسكرات ومواطن للمقاتلين وقبائلهم. وكانت ولاية الأعمال في بادئ الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منه بالتملّك، وكان العمّال أو الولاة عبارة عن قوّات الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبّرون عنه بالرابطة أو الحامية، وكانت الجنود الإسلامية منقسمة إلى قوّات تقيم في محطّات عسكرية بأماكن أقرب إلى طريق الصحراء. فكانت عساكر الشام أربعة أجناد تقيم في دمشق وحمص والأردن وفلسطين، ومنها تسمية هذه الأقاليم بالأجناد، وقوّات العراق كانت تقيم في الكوفة والبصرة، وقوّات مصر في الفسطاط وضواحي الإسكندرية، ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن، ولا

١ـ ينظر: خليل عبد الكريم، **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**: ١٦٥.

٢ـ صالح أحمد العلي، **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**: ١٦٤.

٣ـ ينظر: **دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية**، لعبد الجبّار ناجي: ٤٢.

يختلطون بالأهلين. [1] فاتّخذ المشاركون في الفتوحات الإسلامية الكبرى ضدّ الساسانيين الفرس من جهة الشرق وضدّ البيزنطيين من الجهة الشمالية والغربية، عدّة مراكز عسكرية كانت وظيفتها الأساسية في بداية التأسيس عبارة عن مخيّمات عسكرية غير ثابتة، الغرض منها توفير محلّات لإقامة المقاتلين ولإمداد الجيوش أثناء القتال. وقد أطلق على هذه المجموعة من المراكز تسمية الأمصار، وهو تعبير يقصد به تلك المراكز التي تُتّخذ على الأطراف والحدود. ومن الناحية الواقعية فإنّ التعبير شمل سبعة مراكز حضارية مستقرّة، وهي: المدينة والشام ومصر والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة. [2] وكان تمصير الأمصار يمكن أن يكون خطوة هامّة في امتزاج القبائل العربية وصهرها في كلّ واحد، بعد الخطوة التي جاء بها الإسلام في توحيد العرب في دولة واحدة في شبه الجزيرة العربية، تقوم العلاقة فيها على أساس الأخوّة الدينية، وكان خروج العرب إلى المجال الخارجي وتجمّع قبائلهم في فيالق الجيوش خطوة نحو صهرهم في نسق واحد من النظام، وكان جديراً بمن قاموا على تخطيط هذه المدن الجديدة أن يوزّعوا الناس فيها من حيث

١ـ **تاريخ الكوفة**، للبراقي: ٢٤١.

٢ـ عبد الجبار ناجي، **دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية**: ١١٩. والجدير بالذكر هنا أنّ الأصل في معنى المصر: الطين الأحمر، أو الحاجز، و هو الحدّ في كلّ شيء، أو الحدّ في الأرض خاصّة. وقولهم: مصّرت مصراً: أي بنيته. ومصّروا الموضع: جعلوه مصراً، وقولهم: مصّر الأمصار، مثل قولهم: مدّن المدن. وربّما سمّوا موضعاً معيّناً مصراً، كما في قولهم: المصران وهما الكوفة والبصرة. ينظر: **مفردات الراغب الأصفهاني** ٤٦٩ (مصر)، **أساس البلاغة**، للزمخشري ٢ : ٣٨٩، **لسان العرب** (مصر). وكذلك في إطلاق لفظ الفسطاط معنى صحراوي، وهو ضرب من الأبنية تتخذ في السفر، دون السرادق، وهو بيت من شعر، ثمّ توسّعوا فيه فأطلق على مجتمع الناس في المدينة. ومنه قيل لمدينة البصرة و مصر التي بناها عمرو بن العاص: الفسطاط. ينظر: **لسان العرب** (فسط)، **المصباح المنير**، للفيّومي ٤٧٢ (الفسطاط).

هم أفراد في هذا المجتمع المدني الناشئ الذي يقبلون عليه، لا من حيث هم أعضاء في المجتمع القبلي الذي جاءوا منه. لكن التخطيط في هذه المدن الجديدة جاء على الطبيعة العربية، فقسموا الخطط على أساس الوضع القبلي، فخرجوا بذلك من قبيلة الصحراء إلى قبيلة المدينة.[١] فشكّلت الموجات البشرية التي أعدّتها جيوش المسلمين حركة هجرة قبلية واسعة باتجاه المدن الجديدة التي سُمّيت الأمصار. وقد مصّرت الكوفة في العام السابع عشر للهجرة، وتكاملت كمدينة أكواخ في خمس سنوات، وفي عهد المغيرة بن شعبة نهضت جدر من اللبن غير المشوي تقبعها خيام ومضارب بصورة ثابتة، وعلى عهد زياد شيّدت بالآجرّ، وأوّل ما شيّد بالآجرّ أبواب الدور، وأوّل دور نهضت من هذا النوع كانت في شارع كندة التي هي محلّة المتنبّي. وخططت الكوفة من جانبين: شرقي الجامع وغربيّه، فالجانب الشرقي هو الأفضل والأقرب من الماء لليمانيين، والغربي لنزار، وقد قسمت إدارتها إلى أرباع، على كلّ ربع زعيم يقوم بإدارته. وأمّا تقسيمها من حيث التخطيط فكان ذلك المخيّم الواسع موزّعاً توزيعاً عسكرياً يتألّف من سبعة أفواج، كلّ فوج يضمّ قسماً من محلّاتها المعروفة باسم قبائلها، ولم تكن في الكوفة أوّلاً شوارع، بل كانت خليطاًمن تجمعّات سبع، كلّ مجموعة من عدّة عشائر تنزل في جهة. وكان العرب أوّل هبوطهم إلى العراق ينزلون الشواطئ من الريف والسواد ويبنون بشكل هندسي مكوّن من خيمتين خيمتين، و إذا طغى النهر ارتفعوا عن الشواطئ ملتجئين إلى المخيّمين الكبيرين: البصرة والكوفة.[٢] وقد بني تنظيم الجيوش في عصور الإسلام الأولى، وكذلك في تعبئتها و إعدادها في ميدان المعركة، على أساس قبلي أيضاً، فيروي نصر بن مزاحم المنقري عن الوضع

---

١ ـ أحمد إبراهيم الشريف، **دور الحجاز في الحياة السياسية العامّة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة**: ٢٠٧.

٢ ـ **تاريخ الكوفة**، للبراقي: ١٤١.

التنظيمي والتعبوي للجيش الذي قاده الإمام عليّ عليه السلام في حرب صفّين على هذا النحو:على الخيل عمّار بن ياسر، وعلى الرجّالة عبد الله بن ورقاء الخزاعي، ودفع اللواء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزهري، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة عبد الله بن العبّاس، وجعل على رجّالة الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي، وجعل على رجّالة الميسرة الحارث بن مرّة العبدي، وجعل القلب مضر الكوفة والبصرة، وجعل الميمنة اليمن، وجعل الميسرة ربيعة، وعقد ألوية القبائل فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم جعلهم رؤساءهم وأمراءهم، وجعل على قريش وأسد وكنانة عبد الله بن عبّاس، وعلى كندة حجربن عدي، وعلى بكر البصرة حضين بن المنذر، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعلى خزاعة عمرو بن الحمق الخزاعي، وعلى بكر الكوفة نعيم بن هبيرة، وعلى سعد ورباب البصرة جارية بن قدامة السعدي، وعلى بجيلة رفاعة بن شدّاد، وعلى ذهل الكوفة يزيد بن رويم الشيباني، وعلى عمرو وحنظلة البصرة أعين بن ضبيعة، وعلى قضاعة وطيّئ عديّ ابن حاتم، وعلى لهازم الكوفة عبدالله بن حجل العجليّ، وعلى تميم الكوفة عمير ابن عطارد، وعلى الأزد واليمن جندب بن زهير، وعلى ذهل البصرة خالد بن المعمّر السدوسيّ، وعلى عمرو وحنظلة الكوفة شبث بن ربعي، وعلى همدان سعيد بن قيس، وعلى لهازم البصرة حريث بن جابر الحنفي(خ ل: الجعفي)، وعلى سعد ورباب الكوفة الطفيل أبا صريمة، وعلى مذحج الأشتربن الحارث النخعي، وعلى عبد القيس الكوفة صعصعة بن صوحان، وعلى قيس الكوفة عبد الله بن الطفيل البكّائي، وعلى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة، وعلى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمي، وعلى قيس البصرة قبيصة بن شدّاد الهلالي، وعلى اللفيف من القواصي القاسم بن حنظلة الجهني.[1] ومن هذا يمكن للباحث أن

١ـ وقعة صفّين: ٢٠٥.

يقول: كان التنظيم الإداري والحربي ملزماً بمراعاة الاعتبارات القبلية، لأنّه لم يكن من الممكن في ذلك العصر تصوّر نظام لايقوم على أساس الوحدات القبلية. ومن هذا الاعتبار لم يكن في استطاعة العرب عند بدء نزولهم الأمصار أن يتصوّروا تخطيطاً آخر يحلّ محلّ التخطيط القبلي فيها، بل إنّهم جروا في بعض الأمصار، كالكوفة مثلاً، على شطر المدينة شطرين :أحدهما لقبائل اليمن والآخر للقبائل النزارية. فذكروا أنّ سعد بن أبي وقّاص حين اختطّ الكوفة أسهم لنزار وأهل اليمن، فخرج سهم نزار في الجانب الغربي، وسهم أهل اليمن في الجانب الشرقي.[١] وقد ظهرت المدن والأمصار الإسلامية بتنظيمها القبلي بعد أن أتمّت الجيوش الإسلامية مهمّتها في تحرير الأراضي العربية وغيرها التي كان يسيطر عليها البيزنطيون والساسانيون، فبدأت عملية تنظيم إدارة البلاد المحررة، وكان أوّل عمل قاموا به هو اختيار قواعد تستقرّ فيها المقاتلة وتنظيمها بشكل يؤدّي إلى الحفاظ على قوّة وتماسك الجيش وتأمين احتياجاته وشؤون الأفراد والمقاتلة، ولإرساء أسس مكينة لتنظيمات أخرى لاحقة يمكن تطبيقها وحمايتها. . ولربّما كانت فكرة تشكيل الإقليم هي المرادة من هذه السياسة، فنزع الانتماء القبلي أو تحجيمه والدفع به نحو انتماء أكبر وأقوى، قد راودت أفكار الصحابة والجيل الأوّل، في خطواته الإدارية والعسكرية والسياسية الجديدة، بعد توسّع الدولة الإسلامية وامتدادها. وقد احتلّ أهل اليمن مكانتهم في السياسة الجديدة، إذ لم يكن متوقّعاً أن تهمل السياسة الجديدة أهل اليمن، فتميّزهم بالكثرة، ثمّ تميّزهم الحضاري القديم، ونفوذهم الذي شمل الحجاز كلّه، وربّما الجزيرة أيضاً حتّى وقت متأخّر، كانت من الأمور التي جعلتهم بارزين في الأوضاع الجديدة. وقد ظهر هذا البروز في الحرب، وتجلّى في الاعتماد على الكتل اليمانية وحصول بعض قياداتها على

١ـ إحسان النصّ، **العصبية القبليّة وأثرها في الشعر الأموي**: ٢٥٢ و١٨٩.

امتيازات خاصّة منحتهم إيّاها الخلافة. و إنّ هذه الأمور مجتمعة لابدّ أن تكون تركت آثارها على استقرارهم في الأمصار الجديدة، وعلى دورهم في المجتمع الجديد، خاصّة وأنّهم هم الذين وضعوا أسس استقرار القبائل في الأمصار والمدن العديدة في بلاد الشام، فخطط حمص وبعلبك أشرف عليها يمانيون مثل السمط ابن الأسود الكندي، وخطط الفسطاط وضعها أربعة من أهل اليمن هم: معاوية بن حديج التجيبي، وشريك بن سمي الغطيفي المرادي، وعمرو بن قحزوم الخولاني، وحيويل بن ناشرة المعافري، بالإضافة إلى أنّ التطورات ذات الطابع الحضاري في الأمصار ظهرت أوّل ما ظهرت من أهل اليمن، فأوّل بيت بني باللبن في الكوفة كان في خطّة كندة[١] وبالتأكيد كانت الخلافة الإسلامية تعتمد اعتماداً كبيراً على أهل اليمن في مجمل الأمور. وتعبيرأهل اليمن، هوتعبيرعام شامل لكلّ تكتّلاتها وعشائرها، و إنّ استعماله يعني تجاوز الانتماء القبلي فهوتعبير حضاري، لأنّ الرابطة العامّة التي عنيها اصطلاح أهل اليمن هي الإقليمية القائمة على الأرض أوّلاً، والنسب العام لقحطان ثانياً، وهي اعتبارات أقوى من القبيلة، وتعبّرعن وضعية اجتماعية كانت سائدة في اليمن قبل الإسلام منذ أيّام الدولة الواحدة، بحيث تركت آثارها إلى عصور لاحقة. والراجح أنّه تعبيرقديم، فقد ورد في شعر لامرئ القيس في قوله:

تطاول الليل علينا دمّون　　　دمّون إنّا معشر يمانون

ولم يجد أهل اليمن تناقضاً بين كونهم أعضاء في مجتمع عام وشامل، وبين انضوائهم تحت هذا التعبير، خاصّة أنّ الدولة لم تطرح نظامها بشكل ملح حتّى هذا الوقت، لذلك نرى المعافر، وهي قبيلة يمانية كانت خطّتها بجانب أهل الراية على نهرالنيل ترتحل تاركة مكانها لتنزل مع أهل الظاهر، وهم أهل اليمن مجاورة

١ـ ينظر: **أهل اليمن في صدر الإسلام**، لنزار الحديثي: ١٤٥ ـ ١٤٨.

لحمير[١] ومن المؤكّد كان لأهل اليمن موقع خاصّ في أحاديث النبيّ ﷺ لم يتجاهله القرشيون والمسلمون بعامّتهم، وكذلك أصحاب النبيّ ﷺ والتابعون لهم، وكذا الخلفاء الذين تصدّروا الدولة الإسلامية. فقد رويت عن النبيّ ﷺ بعض الأحاديث في فضلهم، نذكر منها ما روي عن أبي سلمة :الإيمان يمانيّ والحكمة يمانية، وهم قوم فيهم حياء وضعف ودعاء. وما روي عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال:كنّا مع رسول الله ﷺ في مسير فقال:يطلع عليكم أهل اليمن، كأنّهم السحاب، هم خير من في الأرض. وما روي عن عمرو بن مرّة عن خيثمة قال:سئل رسول الله ﷺ:أيّ الناس خير؟ فقال ﷺ:أهل اليمن.[٢]

ومع هذا لم يكن الانتساب لأهل اليمن لوحده كافياً في منح الإنسان درجة وموقعاً اجتماعياً يهبه جلالاً وسؤدداً يرتفع به. فقد توارث أهل اليمن خبرة ودربة وحنكة سياسية واقتصادية واجتماعية تميّزوا بها، لما شهدته أرض اليمن من دول وحكومات كانت تمنح سكّان اليمن معرفة ودراية وبصيرة بالأمور، إضافة إلى التاريخ الحضاري الذي يختزنه أهل اليمن في ذاكرتهم. وقد عرف أهل اليمن بألقاب هي من ألقاب المجتمع الصناعي والتجاري، فقد عرف أهل اليمن صناعات كثيرة كصناعة النسيج والجلود والعطور، ولذلك ظهر رأي يقول عن أهل اليمن بأنّ لهم تنظيمات تخالف النظم القبلية، وكأنّها مستمدّة من العلاقات الانتاجية والاقتصادية التي شهدتها حضارة اليمن [٣]

هاشم بن عبد مناف في التراث القرشي

كان هاشم بن عبد مناف أحد أجداد النبيّ ﷺ البارزين في التاريخ القرشي،

١ـ أهل اليمن في صدر الإسلام: ١٤٩.

٢ـ مصنّف ابن أبي شيبة ٧: ٥٥٢ ـ باب ما جاء في أهل اليمن من كتاب الفضائل.

٣ـ ينظر: أهل اليمن في صدر الإسلام: ٧٥.

فقد تولّى أمر مكّة بعد أبيه، وساد قومه بما كان عليه من محاسن الأخلاق وجليل الشِّيم، وكمال الشجاعة، ووافر الكرم، وغاية الفصاحة، وغير ذلك من الصفات الفاضلة التي لم يطاوله بها أحد. وكان هاشم أكبر ولد عبد مناف، والمطّلب أصغرهم، وكان يقال لهاشم والمطّلب البدران لجمالهما. وكانت السقاية والرفادة بعد هاشم لأخيه المطّلب لصغر عبد المطّلب [1]. وكانت السقاية والرفادة بيد عبد

١ـ وفي هذا الموضوع يروى عن جبير بن مطعم قال: قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطّلب، فمشيت أنا وعثمان بن عفّان حتّى دخلنا عليه فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوتك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله فيه به منهم، أرأيت إخوتنا من بني المطّلب أعطيتهم دوننا و إنّما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب! فقال النبيّ ﷺ: إنّهم لم يفارقونا في الجاهلية ولا الإسلام. وفي لفظ: إنّهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، و إنّما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد. وشبك بين أصابعه. **كنز العمّال** ١٤: ٨٢ ح٣٧٩٩٩. وكان النبيّ ﷺ يشير في هذا إلى ما جرى على بني المطلب وعلى بني هاشم معاً في الصحيفة التي أجمع عليها القرشيون وتعاقدوا على بني هاشم وبني المطّلب دون غيرهم على أن لاينكحوا إليهم ولاينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولايبتاعوا منهم، فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثمّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمّ علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلّ بعض أصابعه. **السيرة النبوية**، لابن هشام ١: ٣٧٥. وقد كان الهاشميون يفزعون إلى بني المطّلب في أمورهم، لما يجدون فيهم من استجابة وانسجام معهم، ويروي ابن سعد عن موقف عرّض به القرّشيون باغتيال النبيّ ﷺ للخلاص منه، فصادف أن فُقد النبيّ ﷺ في مساء تلك الليلة فجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع أبو طالب فتياناً من بني هاشم وبني المطّلب ثمّ قال: ليأخذ كلّ واحد منكم حديدة صارمة ثمّ ليتّبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كلّ فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظليّة، يعني أبا جهل، فإنّه لم يغب عن شرّ، إن كان محمّد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد

مناف، فلمّا توفّي عبد مناف بن قصي ولي ابنه هاشم ما كان إليه من أمر السقاية والرفادة فحسده أميّة بن عبد شمس، على ما قيل.[١] ويعدّ هاشم أوّل من سنّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، قال ابن هشام:كان هاشم، فيما يزعمون، أوّل من سنّ الرحلتين لقريش :رحلتي الشتاء والصيف. وأوّل من أطعم الثريد بمكّة، وإنّما كان اسمه عمراً، فما سمّي هاشماً إلّا بهشمه الخبز بمكّة لقومه[٢] وقد أشار القرآن الكريم إلى الإيلاف في قوله تعالى ﴿**لإيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾[٣] وكانت قريش سيّرت على الأقلّ رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، فأجملها القرآن الكريم بصيغة المفرد، ليظهر فضل الله في تمكين تجّار مكّة من تسيير الرحلتين معاً، ذلك أنّ الرحلتين معاً كانتا تعنيان أنّ مكّة وسّعت تجارتها وانتقلت من مرحلة التجارة المحلّية، التي كانت قائمة على أيّة حال منذ أزمنة غير معروفة، إلى مرحلة التجارة الدولية التي كانت تتطلّب ربط السوقين، سوق المحيط الهندي وسوق البحر المتوسّط بشريان القوافل الصحراوية[٤] ويذكر الشيخ علي بن إبراهيم سبب نزول سورة قريش فيقول:لأنّه كان معاشهم من الرحلتين، رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام، وكانوا يحملون من مكّة الأدم واللباس، وما يقع من ناحية البحر من الفلفل وغيره، فيشترون بالشام الثياب والدرمك والحبوب، وكانوا يتألّفون في طريقهم ويثبتون في الخروج في كلّ

أحسست ابن أخي؟ قال:نعم . . الخبر. **الطبقات الكبرى** ١: ٢٠٢.

١ ـ ينظر: **مناهل الضرب في أنساب العرب**، للسيّد جعفر الأعرجي، بتحقيق السيّد مهدي الرجائي: ٢٤و٢٥و٢٦.

٢ ـ **السيرة النبوية** ١: ١٤٣.

٣ ـ سورة قريش: ١ ـ٥.

٤ ـ فكتور سحّاب، **إيلاف قريش** ٢٤٧.

خرجة رئيسا من رؤساء قريش، وكان معاشهم من ذلك، فلمّا بعث الله نبيّه ﷺ استغنوا عن ذلك، لأنّ الناس وفدوا على رسول الله ﷺ وحجّوا إلى البيت، فقال الله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ فلا يحتاجون أن يذهبوا إلى الشام ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ يعني خوف الطريق [١] ويرى الكثير من المؤرّخين والباحثين بأنّ وضع قريش قبل أن تتحوّل تجارة قريش من تجارة محلّية إلى عالمية، كانت تجارتهم لا تعدو مكّة، و إنّما يقدم الأعاجم فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ويبيعون من حولهم من العرب، فلم يزالوا كذلك حتّى ذهب هاشم إلى الشام وطلب من قيصر أماناً لقومه، ليقدموا بلاده لتجارتهم فأجابه لذلك، وكتب لهم قيصر كتاب أمان لمن أتى، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فكلّما مرّ بحي من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً لقومه، يأمنون به عندهم وفي أرضهم من غير حلف، إنّما هو أمان الطريق، واستوفى أخذ ذلك ممّن بين مكّة والشام فأتى قومه بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة [٢] وقد بلغت تجارة مكّة الخارجية أوجها، على ما ذكر بعض المؤلّفين، بأن أقامت الدولة الرومانية مركزاً تجارياً في مكّة لتسهيل التصدير والاستيراد منها و إليها [٣] وكان يقال لهاشم أبو البطحاء وسيّد البطحاء، وكان يحمل ابن السبيل ويؤمن الخائف، وينهى عن أكل الحرام، ويجالس الملوك، فكثيراً ما دخل إلى النجاشي وقيصر وأكرموه، ممّا جعل من هاشم قائداً فعلياً أو زعيماً فعلياً لمكّة وللبطون.. [٤] وكان هاشم هو الذي يقوم بأمر الناس في السنين المقحطة ويطعمهم أحسن الطعام، ولذلك لهجت ألسنة

١ـ **تفسير القمّي** ٢: ٤٤٥.

٢ـ خليل عبد الكريم، **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**: ٢٩.

٣ـ هاشم معروف الحسني، **سيرة المصطفى**: ١٥.

٤ـ المحامي أحمد حسين يعقوب، **المواجهة مع رسول الله وآله**: ٢٨.

العرب، على اختلافهم في القبائل، بالثناء عليه، فعند ذلك حسده ابن أخيه أميّة ابن عبد شمس بن عبد مناف [١] وذكر المؤرّخون أنّ عبد شمس بن عبد مناف كان تلواً لهاشم، ويقال :كانا توأمين فولد هاشم ورجله في جبهة عبد شمس ملتصقة فلم يقدر على نزعها إلّا بدم. فكانوا يقولون: سيكون بين ولدهما دماء. فكان تلك الدماء ما وقع بين بني هاشم وبين بني أميّة بن عبد شمس [٢] ولذا برز من يعتقد بأنّه كانت المواقف المتناقضة بين الهاشميين والأمويين، في تاريخ المسلمين، تعود إلى ما كان هناك في التاريخ القرشي، أي لما كان بين بني هاشم وبني أميّة من منافسة قديمة ترجع إلى أيّام الجاهلية، فلمّا جهر الرسول الهاشمي صلى الله عليه وآله بدعوته نصره جلّ بني هاشم، لمعرفتهم بصدق النبيّ وسموّ أخلاقه، وامتنع أكثر بني أميّة من الدخول في دينه، وعلى رأسهم شيخهم أبو سفيان. وقد ظلّت العصبية قائمة بين هاتين الأسرتين أمداً طويلاً [٣] ومن هنا لربّما كان كثير منهم يعتقد بصدق النبيّ صلى الله عليه وآله وبصدق ما جاء به، لما لمسوه من خصال حميدة عنه صلى الله عليه وآله، ورث بعضها من شجرة النبوّة ومن النسب الكريم، وهم أعرف بهذا من غيرهم، لكنّهم كابروا وحسدوا، ولجّوا في عدوانهم وتمادوا في ضلالهم ذلك فورّثوه لأبنائهم، وكأنّهم تناسوا جذور هذه الشجرة وأصولها المورقة، والتي كانت عامّة العرب تعيش في ظلالها، وكأن صورة هذه الشجرة الوارفة لم تكن منسية عندهم، فلم تهملها ذاكرة الشعر العربي التي كانت ديوان العرب وعدسة لاقطة أمينة لهم تصوّر حياة العرب وتاريخهم، وما كانت عليه أوضاعهم في سالف أيّامهم، فأظهرت حال وأوضاع أعلامهم ورجالهم. و قد حوى الديوان الشعري لهم ما تداوله الشعراء بالمدح والثناء

١ـ **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، للآلوسي ١: ٣٠٧.

٢ـ **الروض الأنف**، للسهيلي ١: ٢٦٦.

٣ـ إحسان النصّ، **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: ١٨٥.

ما كان عليه أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله من مكارم ومآثر خالدة، ومن هذا الثناء قول الشاعر فيهم:

يا أيّها الرجل المحوّل رحله   هلّا نزلت بآل عبد مناف
الآخذين العهد من آنافنا   والراحلين برحلة الإيلاف[1]

وهذا الثناء والإطراء، الذي كان يشنّف آذان العرب، لم يكن يبعث المسرّة والارتياح لجماعات من قريش التي تريد أن تستبدّ بالشرف والسيادة لها دون بني هاشم، وربّما تلاقت مشاعر وأحاسيس حاقدة من أفراد ضالّين، من بني عبد مناف مع جهّال من قريش، أرّقهم وأزعجهم مجد هاشم الذي جدّده فتى قريش الهاشمي محمّد بن عبد الله ذبيح قريش وابن سيّد بطحاء مكّة. وربّما كان لقاء عتاة قريش وسفهاء من قبيلهم، و من غير قبيلهم، على عداوة هاشم وعبد المطّلب، ممّن بزّ قريش نسباً وفضلاً وشرفاً، أكثر من عداوتهم لمحمّد صلى الله عليه وآله، فتراكم هذا الحقد والعداء والحسد الموروث ليظهر بشكل عداء جديد لمحمّد صلى الله عليه وآله الذي ينطق عن الأجداد ويذكّرهم بهم.

وقد كان أبو جهل بن هشام أقوى ناصر ومعين لأبي سفيان وغيره، في تأليب قريش و إذكاء نار العداوة للنبيّ صلى الله عليه وآله والهاشميين، الذين كانوا مصدر إزعاج وقلق و إثارة له ولمن وقف معه، وقد يكون هناك حدث عابر يجده الباحث في طوايا التاريخ يضيء ويكشف للباحث وغيره صورة الوضع الذي كان عليه رجال من قريش، وربّما يترجم ويصوّر درجة و مدى الحسد والحقد الذي كان يخامرهم، ومن ذلك ما روي عن رؤيا عابرة رأتها عاتكة بنت عبد المطلب في شأن غزوة بدر، فيروي الواقدي محاورة جرت بين أبي جهل والعبّاس بن عبد المطلب، قال أبو جهل له: إنّا استبقنا المجد وأنتم فقلتم: فينا السقاية فقلنا لا نبالي تسقون الحاج،

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٣٣.

ثمّ قلتم: فينا الحجابة فقلنا لا نبالي تحجبون البيت، ثمّ قلتم فينا الندوة فقلنا لا نبالي تلون الطعام وتطعمون الناس، ثمّ قلتم: فينا الرفادة فقلنا لا نبالي تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف، فلمّا أطعمنا الناس وأطعمتم وازدحمت الرّكب واستبقنا المجد فكنّا كفرسي رهان، قلتم منّا نبيّ، ثمّ قلتم منّا نبيّة ! فلا واللات والعزّى، لا كان هذا أبداً. قال العبّاس: فوالله، ما كان منّي إلّا أنّي جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً[١] وكأنّ المعركة القديمة التي كان يثيرها أعداء

١ـ **المغازي** ١: ٣٠ . ويروي ابن هشام أنّ عاتكة رأت قبل قدوم ضمضم مكّة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العبّاس فقالت له:يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّومصيبة، فاكتم عنّي ما أحدّثك به، فقال لها:وما رأيت ؟قالت:رأيت راكباً أقبل على بعيرله، حتّى وقف بالأبطح، ثمّ صرخ بأعلى صوته:ألا انفروا يا آل غُدُر ـ بضمّ الغين والدال ـ لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثمّ دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهرالكعبة ثمّ صرخ بمثلها:ألا انفروا آل غُدُر لمصارعكم في ثلاث، ثمّ مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثمّ أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتّى كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكّة ولا دار إلّا دخلتها منها فلقة، قال العبّاس:والله، إنّ هذه لرؤيا !وأنت فاكتميها، ولا تذكريها لأحد. ثمّ خرج العبّاس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقاً، فذكرها له واستكتمه إيّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث بمكّة حتّى تحدّثت به قريش في أنديتها. قال العبّاس:فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلمّا رآني أبو جهل قال:يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فاقبل إلينا، فلمّا فرغت أقبلت حتّى جلست معهم فقال أبو جهل: يا بني عبد المطّلب متى حدثت فيكم هذه النبيّة ؟قال:فقلت: وما ذاك ؟قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة، قال:قلت: وما رأت ؟قال: يا بني عبد المطّلب، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالكم حتّى تتنبّأ نساؤكم !قد زعمت عاتكة في رؤياها أنّه قال ـ أي الراكب في المنام ـ :انفروا في ثلاث، فسنتربّص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقّاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً أنّكم أكذب أهل بيت في العرب. قال العبّاس:فوالله، ما كان منّي إليه

هاشم كيداً وحسداً له لم تكن كافية لهم لإشباع غيضهم ونقمتهم عليه، لأنّه غطّى الآفاق بصنيعه وبزّهم في كلّ شيء، فكأنّهم كانوا يألمون من دقيق البرّ ودماء النياق التي كان ينحرها هاشم لإطعام الزائرين والساكنين في حمى البيت العتيق، فلم يجدوا لديهم ما يفعلون فعلاً يتفوّقون به عليه أو يمحون مجده وذكراه. ويقول أهل السير: كان هاشم بن عبد مناف يطعم الناس في كلّ موسم، بما يجتمع عنده من ترافد قريش، وكان يشتري بما يجتمع عنده دقيقاً، ويأخذ من كلّ ذبيحة، من بدنة أو بقرة أو شاة، فخذها، فيجمع ذلك كلّه ثمّ يحزر به الدقيق ويطعمه الحاج، فلم يزل على ذلك من أمره حتّى أصاب الناس في سنة جدب شديد، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقاً وكعكاً، فقدم به مكّة في الموسم فهشم ذلك الكعك ونحر الجزر وطبخه وجعله ثريداً وأطعم الناس، وكانوا في مجاعة شديدة حتّى أشبعهم، فسمّي بذلك هاشماً، وكان اسمه عمراً[1] وكان القرشيون في تاريخهم الغابر إذا أصابت واحداً منهم مخمصة جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا[2] حتّى كان عمرو بن عبد مناف ـ هاشم ـ وكان سيّداً في زمانه وله ابن يقال له: أسد، وكان له ترب من بني مخزوم يحبّه ويلعب معه، فقال له: نحن غداً نعتفد، قال الراوي: فدخل أسد على أمّه يبكي وذكر ما قاله تربه، فأرسلت أمّ أسد إلى أولئك بشحم ودقيق فعاشوا به أيّاماً، ثمّ إنّ تربه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نعتفد، فدخل أسد على أبيه يبكي وخبّره خبر

كبير، إلّا أنّي جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئاً. قال العبّاس: ثمّ تفرّقنا. **السيرة النبوية** ٢: ٢٥٨.

١ـ **أخبار مكّة**، للأزرقي ١: ٦٨.

٢ـ قال أبو عمرو بن العلاء: الاعتفاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداً حتّى يموت جوعاً، وقد اعتفد يعتفد اعتفاداً. وقال شمر: ووجدته في كتاب ابن بزرج: اعتقد، بالقاف، وآطم، وذلك أن يغلق عليه باباً إذا احتاج حتّى يموت. **لسان العرب** (عفد).

تربه. فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف فقام خطيباً في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنّكم أحدثتم حدثاً تقلّون فيه وتكثر العرب، وتذلّون وتعزّ العرب، وأنتم أهل حرم الله عزّ وجلّ، وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع !ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم، فقالوا: نحن لك تبع، قال:ابتدئوا بهذا الرجل، يعني أبا ترب أسد، فأغنوه عن الاعتفاد، ففعلوا، ثمّ إنّه نحر البدن وذبح الكباش والمعز، ثمّ هشم الثريد وأطعم الناس فسمّي هاشماً، قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكّة مسنتون عجاف

ثمّ جمع كلّ بني أب على رحلتين في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتّى صار فقيرهم كغنيّهم. فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن من العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعزّ من قريش[1]

١ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٢٠ : ٢٠٤.

عبد المطّلب وحفيرة زمزم

الظاهر من كتب السيرة والتاريخ بأنّ خصال هاشم في كرمه وشهامته انتقلت إلى عبد المطّلب الذي كان وارث أبيه من بين أربعة نفر وخمس نسوة:هم:عبد المطلب وأسد وأبا صيفي ونضلة والشفاء وخالدة وضعيفة ورقية وحيّة. وأمّ عبد المطلب ورقية:سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجّار. وأمّها عميرة بنت صخر بن الحارث بن ثعلبة بن مازن بن النجّار. وبرز عبد المطّلب، في تاريخ قريش، بل وفي تاريخ العرب والتاريخ العالمي، كشخص شريف له سيادة وهيبة في نفوس قريش والعرب وكلّ من رآه من الأمم الأخرى. وكان له عشرة أسماء تعرفه بها العرب وملوك القياصرة وملوك العجم وملوك الحبشة، فمن أسمائه :عامر، وشيبة الحمد، وسيّد البطحاء، وساقي الحجيج، وساقي المغيث، وغيث الورى في العام الجدب، وأبو السادة العشرة، وعبد المطّلب، وحافر زمزم[1] وهذا الاسم الأخير يعود إلى حفيرة زمزم في رواية المؤرّخين التي تقول عن تاريخ هذه الحفيرة بأنّها جاءت من منام صادق، كأنّه وحي أو خطاب ربّاني لعبد صالح كان يتعبّد بالتوحيد فقالوا: بينما عبد المطّلب

---

١ ـ **الخصال**، للصدوق: ٤٥٣ باب العشرة.

ابن هاشم نائم في الحجر إذ أتي فأمر بحفر زمزم، وهي دفن بين صنمي قريش إساف ونائلة، عند منحر قريش، وكانت جرهم دفنتها حين ظعنوا من مكّة، وهي بئر إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام التي سقاه الله حين ظمئ وهو صغير، فالتمست له أمّه ماء فلم تجده، فقامت إلى الصفا تدعو الله وتستغيثه لإسماعيل، ثمّ أتت المروة ففعلت مثل ذلك، وبعث الله تعالى جبرئيل عليه السلام فهمز[١] له بعقبه في الأرض فظهر الماء وسمعت أمّه أصوات السباع فخافتها عليه، فجاءت تشتدّ نحوه فوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خدّه ويشرب فجعلته حسياً[٢] وفي رواية: لم تزل زمزم دفيناً بعد ولاية ابن إسماعيل الأكبر وجرهم حتّى أمر بها عبد المطّلب، فخرج عبد المطّلب إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنّي قد أُمرت أن أحفر زمزم، فقالوا له: أبيّن لك أين هي؟ فقال: لا، قالوا: فارجع إلى مضجعك الذي أُريت فيه ما أُريت، فإن كان حقّاً من الله عزّوجلّ بيّن لك، وإن كان من الشيطان لم يعد إليك، فرجع فنام في مضجعه، فأُتي فقيل له: احفر زمزم، إنّك إن حفرتها لم تندم، هي تراث من أبيك الأقدم، لا تنزف الدهر ولا تذمّ، تسقي الحجيج الأعظم مثل نعام حافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، فهي ميراث وعقد محكم، ليست كبعض ما قد يعلم، وهي بين الفرث والدم. فقال حين قيل له ذلك: أين هي؟ فقيل له: عند قرية النمل، حيث ينقر الغراب غداً، فغدا عبد المطّلب ومعه الحارث ابنه، ليس له ولد غيره، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها، بين الوثنين إساف ونائلة، اللذين

١ـ الهمز، مثل الغمز والضغط، و قال الليث: الهمزة: العصر، والهمزة: النقرة، كالهزمة، وقيل: هو المكان المنخسف. **لسان العرب** (همز).

٢ـ **سيرة ابن هشام** ١: ١١٦. وجعلته حسياً، أي جعلته في سهل من الأرض يستنقع الماء فيه. قال ابن دريد: الحسي: ماء في رمل تحته أرض صلبة تمنعه أن يسوخ ويقيه الرمل من الشمس والسموم، فإذا بحثت الرمل نبغ الماء، والجمع أحساء. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٤٠٣ (حسا).

كانت قريش تنحر عندهما، فجاء عبد المطّلب بالمعول فقام ليحفر، فقالت له قريش حين رأوا جدّه :والله، لا ندعك تحفر بين صنمينا هذين اللذين ننحر عندهما، فقال عبد المطّلب لابنه الحارث:دعني، أو ذد عنّي حتّى أحفر، فوالله لأمضين لما أُمرت به، فلمّا رأوا منه الجدّ خلّوا بينه وبين الحفر، فكفّوا عنه، فلم يمكث إلّا قليلاً حتّى بدا له الطوى فكبّر. فعرفت قريش أنّه قد صدق وأدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: إنّها بئر أبينا إسماعيل، و إنّ لنا فيها حقّاً فأشركنا معك فيها، قال:ما أنا بفاعل، و إنّ هذا لأمر قد خُصصت به دونكم، وأعُطيته من بينكم، من شئتم أخاصمكم إليه ؟فقالوا:كاهنة بني سعد بن هذيم، قال:نعم، وكانت بأشراف الشام. وجاء في رواية عن الإمام عليّ عليه السلام وهو يحدّث بحديث زمزم فقال:بينما عبد المطّلب نائم في الحجر أُتّي فقيل له:احفر برّة، فقال:وما برّة ؟ثمّ ذهب عنه حتّى إذا كان الغد نام في مضجعه ذلك، فأُتّي فقيل له:احفر المضنونة، فقال:وما المضنونة ؟ثمّ ذهب عنه، حتّى إذا كان الغد عاد فنام في مضجعه، فأُتّي فقيل له:احفر طيبة، فقال:وما طيبة ؟ثمّ ذهب عنه، فلمّا كان الغد عاد لمضجعه فنام فيه، فأُتي فقيل له: احفرزمزم، فقال: وما زمزم؟ فقال:لا تنزف ولاتذم. ثمّ نعت له موضعها، فقام فحفرحيث نعت له، فقالت له قريش:ما هذا يا عبد المطّلب؟ قال:أمرت بحفر زمزم، فلمّا كشف عنه وأبصروا الطوى، قالوا:يا عبد المطّلب، إنّ لنا لحقّا فيها، إنّها لبئر أبينا إسماعيل، فقال:ما هي لكم، لقد خُصصت بها دونكم، قالوا:فحاكمنا، فقال:نعم، فقالوا:بيننا وبينك كاهنة بني سعد بن هذيم، وكانت بأشراف الشام. فركب عبد المطّلب في نفر من بني أبيه، وركب من كلّ بطن من أفناء قريش نفر، وكانت الأرض إذ ذاك مفاوز فيما بين الشام والحجاز، حتّى إذا كانوا بمفازة من تلك البلاد فني ماء عبد المطّلب وأصحابه، حتّى أيقنوا الهلكة، فاستسقوا القوم، قالوا:ما نستطيع أن نسقيكم، و إنّا لنخاف مثل الذي أصابكم،

فقال عبد المطلب لأصحابه:ماذا ترون؟قالوا:ما رأينا إلّا تبع لرأيك، قال:فإنّي أرى أن يحفر كلّ رجل منكم حفرته بما بقي من قوّته، فكلّما مات رجل منكم دفعه أصحابه في حفرته، حتّى يكون آخركم يدفعه صاحبه، فضيعة رجل أهون من ضيعة جميعكم، ففعلوا. ثمّ قال:والله، إنّ لقاءنا بأيدينا للموت، لا نضرب في الأرض ونبتغي عجز، فقال لأصحابه:ارتحلوا، فارتحلوا وارتحل، فلمّا جلس على ناقته وانبعثت به انفجرت عين من تحت خفّها بماء عذب، فأناخ وأناخ أصحابه فشربوا واستقوا وسقوا، ثمّ دعوا أصحابهم: هلمّوا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاؤوا فاستقوا وسقوا، ثمّ قالوا:يا عبد المطّلب، قد والله قضى لك، إنّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، انطلق فهي لك، فما نحن بمخاصميك[1]. وكان لعبد المطّلب قصّة في ذبح ولده عبد الله، كما جرى لإبراهيم الخليل عليه السلام الذي أخبرنا القرآن الكريم عن هذه القصّة في قوله تعالى ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2] وذلك حين أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام لرؤيا رآها، فقد كان لعبد المطّلب ولد واحد هو الحارث حين نازعته قريش في حفرزمزم فنذر:لئن ولد له عشرة من الولد ثمّ بلغوا لينحرنّ أحدهم لله عند الكعبة، فلمّا تمّوا عشرة وعرف أنّهم سيمنعونه أخبرهم بنذره، فأطاعوه وكتب كلّ منهم اسمه في قدح وجمعها وأعطاها قيّم هبل وقال :اضرب بقداح هؤلاء، فخرج القدح على عبدالله، فأخذه وأخذ الشفرة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها وقالوا:لا تفعل حتّى تعذر فيه، فانطلق به إلى عرّافة، فقالت:كم الدية فيكم؟قال:عشر من الإبل، قالت: قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشراً من الإبل حتّى يرضى ربّكم، فإذا خرجت على الإبل فقد رضي ونجا صاحبكم. فقرّبوا عبد الله وعشراً، فخرجت على عبد الله فزادوا عشراً، فخرجت عليه، فلم يزالوا

١ـ السيرة النبوية، لابن إسحاق ١: ٧٧ ـ ٧٩.

٢ـ الصافّات : ١٠٧.

كذلك حتّى جعلوها مائة، فخرجت على الإبل، فنُحرت ثمّ تُركت لا يصدّ عنها إنسان ولا سبع[١].

وجاء في رواية الشيخ الصدوق لمّا بلغ أولاده عشرة أدخل أولاده الكعبة وأسهم بينهم، فخرج سهم عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وكان أحبّ ولده إليه، ثمّ أجالها ثانية، فخرج سهم عبد الله، ثمّ أجالها ثالثة فخرج سهم عبد الله، فأخذه وحبسه وعزم على ذبحه، فاجتمعت قريش ومنعته من ذلك، واجتمع نساء عبد المطّلب يبكين ويصحن، فقالت له ابنته عاتكة :يا أبتاه، اعذر فيما بينك وبين الله في قتل ابنك، قال:فكيف أعذر يا بنيّة! فإنّك مباركة، قالت:اعمد إلى تلك السوائم التي لك في الحرم فاضرب بالقداح على ابنك وعلى الإبل، وأعط ربّك حتّى يرضى، فبعث عبد المطّلب إلى إبله فأحضرها وعزل منها عشراً وضرب السهام، فخرج سهم عبد الله، فما زال يزيد عشراً حتّى بلغت مائة، فضرب فخرج السهم على الإبل، فكبّرت قريش تكبيرة ارتجّت لها جبال تهامة، فقال عبد المطّلب:لا حتّى أضرب القداح ثلاث مرّات، فضرب ثلاثاً كلّ ذلك يخرج السهم على الإبل، فلمّا كان في الثالثة اجتذبه الزبير وأبو طالب و إخوانه من تحت رجليه فحملوه، وقد انسلخت جلدة خدّه الذي كان على الأرض، وأقبلوا يرفعونه ويقبّلونه ويمسحون عنه التراب، وأمر عبد المطلب أن تنحر الإبل بالحزورة ولا يمنع أحد منها. وجاء في خبر آخر بهذا الخصوص أيضاً: أنّ الإمام الرضا عليه السلام سئل عن معنى قول النبيّ ﷺ: أنا ابن الذبيحين، فقال عليه السلام: يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وعبد الله بن عبد المطّلب، فإنّ عبد المطّلب كان تعلّق بحلقة باب الكعبة ودعا الله عزّوجلّ أن يرزقه عشرة بنين، ونذر لله عزّوجلّ أن يذبح واحداً منهم متى أجاب الله دعوته، فلمّا بلغوا عشرة أولاد قال:قد وفى الله لي فلأفينّ لله عزّوجلّ، فأدخل ولده الكعبة وأسهم

١ـ **الوفا بأحوال المصطفى**، لابن الجوزي: ٨١.

بينهم فخرج سهم عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وكان أحبّ ولده إليه، ثمّ أجالها ثانية فخرج سهم عبد الله، ثمّ أجالها ثالثة فخرج سهم عبد الله، فأخذه وحبسه وعزم على ذبحه[١] ويتحدّث علماء السير والتاريخ أنّ لعبد المطّلب رؤيا أخرى، لاتقلّ عظمة من رؤيته لحفر زمزم، ذكرها ابن الجوزي عنه أنّه قال: بينا أنا نائم في الحجر رأيت رؤيا هالتني، ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش وعليّ مطرف خزّ، وجمّتي تضرب منكبي. فلمّا نظرت إليّ عرفت في وجهي التغيّر، وأنا يومئذ سيّد قومي، فقالت: ما بال سيّدنا قد أتانا متغيّر اللون؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء؟ فقلت لها: بلى، وكان لايكلّمها أحد من الناس حتّى يقبّل يدها اليمنى ثمّ يضع يدها على أمّ رأسه، ثمّ يبدو بحاجته، ولم أفعل لأنّي كنت كبير قومي، فجلست فقلت: إنّي رأيت الليلة وأنا نائم كأنّ شجرة نبتت قد نال رأسها السماء فضربت بأغصانها المشرق والمغرب، ما رأيت نوراً أزهر منها، أعظم من نور الشمس بتسعين ضعفاً، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها، وهي تزداد كلّ ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ساعة تخفى وساعة تزهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلّقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخّرهم شابّ، لم أر أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم. فرفعت يدي لأتناول منها قسماً، فقال لي: لا نصيب لك منها! فقلت: ومن له نصيب؟ فقال: النصيب لها وللذين تعلّقوا بها وسبقوك إليها. فانتبهت فزعاً مرعوباً. فرأيت وجه الكاهنة قد تغيّر، ثم قالت: لئن صدقت رؤياك ليخرجنّ من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس. ثمّ قالت لأبي طالب: لعلّك أن تكون عمّ هذا المولود[٢] وبلغ من شأن عبد المطلب أن كان يفرش له بفناء الكعبة لا يفرش لأحد غيره.

١ـ **الخصال**، للصدوق: ٥٦ و١٥٧ و**عيون أخبار الرضا** عليه السلام ١: ٢١٠ الباب ١٨.

٢ـ **الوفا بأحوال المصطفى**: ٧٥.

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال :يحشر عبد المطّلب يوم القيامة أمّة وحده عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك [1] وكان لعبد المطّلب في حياته من القوّة والموهبة أن أصبح مصدر تشريع وتقنين للحياة المدنية في مكّة، وقد أقرّ الإسلام سننه وسرت في منظومته التشريعية، ومن هذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام :يا عليّ، إنّ عبد المطّلب سنّ في الجاهلية خمس سنن أجراها الله له في الإسلام:حرّم نساء الآباء على الأبناء فأنزل الله عزوجلّ ﴿**وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ [2] ووجد كنزاً فأخرج منه الخمس وتصدّق به، فأنزل الله ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ**﴾ [3] ولمّا حفر زمزم سمّاها سقاية الحاج فأنزل الله ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ [4] وسنّ في القتل مائة من الإبل فأجرى الله عزوجلّ ذلك في الإسلام، ولم يكن للطواف عدد عند قريش فسنّ لهم عبد المطّلب سبعة أشواط، فأجرى الله ذلك في الإسلام، يا عليّ إنّ عبد المطّلب لا يستقسم بالأزلام ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح على النصب، ويقول :أنا على دين أبي إبراهيم عليه السلام. [5]

ولم يترك الله هذا العبد الصالح الموحّد بدون ذرّية لها شأنها وأثرها من بعده، فولد عبد المطّلب بن هاشم عشرة نفر وستّ نسوة:العبّاس، وحمزة، وعبد الله، وأبا طالب ـ واسمه عبد مناف ـ والزبير، والحارث وحجلاً، والمقوّم، وضراراً، وأبا لهب ـ واسمه عبد العزّى ـ وصفيّة، وأمّ حكيم البيضاء، وعاتكة، وأُميمة ، وأروى، وبرّة. وأمّا أمّ عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء غير صفيّة فهي: فاطمة بنت عمرو بن

١ـ **بحار الأنوار**١٥: ١٥٧ و١٥٩ ح٨٤ عن **الكافي**١: ٤٤٦ ح٢٢ وفيه: أمّة واحدة، وفي ح٢٤: يبعث عبد المطّلب أمّة وحده، عليه بهاء الملوك وسيماء الأنبياء .

٢ـ النساء:٢٢ .

٣ـ الأنفال:٤١.

٤ـ التوبة: ١٩.

٥ـ **الخصال**، للصدوق: ٣١٢ .

عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهربن مالك ابن النضر. وولد عبد الله بن عبد المطّلب رسول الله سيّد ولد آدم. وأمّه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهربن مالك ابن النضر. فرسول الله صلى الله عليه وآله أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أمّه وأبيه.[1]

وأشهر بطون قريش الذين عرّفهم المؤرّخون، هم: بنو هاشم بن عبد مناف، بنو عبد المطّلب بن عبد المناف، بنو الحارث بنت عبد المطّلب، بنو أميّة بن عبد شمس، بنو نوفل بن عبد مناف، بنو الحارث بن فهر، بنو أسد بن عبد العزّى، بنو عبد الدار بن قصي ـ وهم حجبة الكعبة ـ بنو زهرة بن كلاب، بنو تميم بن مرّة، بنو مخزوم، بنو يقظة، بنو مرّة، بنو عدي بن كعب، بنو سهم، بنو جمح ـ وهم قريش البطاح ـ بنو مالك بن حنبل، بنو معيط بن عامر بن لؤي، بنو نزار بن عامر، بنو سامة ابن لؤي، بنو الأدرم، وهو تيم بن غالب، بنو محارب بن فهر، بنو الحارث بن عبد الله ابن كنانة، بنو عائذة، وهو خذيمة بن لؤي، بنو نباتة، وهو سعد بن لؤي.[2] والمراد في تعبير المؤرّخين بقريش البطاح: هي البطون التي كانت تسكن في مكّة نفسها، ويحتكر رجالها الإدارة والوظائف الكبرى، ومنهم التجّار والرأسماليون والمثرون الذين كانوا يقومون بالحركة التجارية. وأمّا ما يراد من تعبير قريش الظواهر: فهي البطون التي كانت تسكن أطراف مكّة، ويلاحظ أنّه ليس لهم صوت في الأحداث التي جرت عند ظهور الإسلام، غير أنّهم ـ على ما يقول الزبير بن بكّار ـ كانوا في الجاهلية يفخرون على أهل الحرم بظهورهم للعدوّ و إصحارهم للناس، أي أنّهم يسهمون بالدفاع عن مكّة [3]

---

١ ـ السيرة النبوية، لابن هشام ١ : ١١٢ ــ ١١٥.

٢ ـ مروج الذهب، للمسعودي ٢: ٢٦٩ .

٣ ـ صالح أحمد العلي، تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية: ١٤٢ و١٤٣.

تاريخ استيطان مكّة وولاية البيت

يروى أنّ هاجر لمّا ولدت إسماعيل عليه السلام دخلت سارة غيرة شديدة فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يطيعها، فقالت: يا إبراهيم، احمل هاجر حتّى تضعها ببلاد ليس فيها زرع ولا ضرع. فأتى بها البيت وليس بمكّة إذ ذاك زرع ولا ضرع ولا ماء ولا أحد، فخلّفها إبراهيم عليه السلام عند البيت وانصرف عنها إبراهيم عليه السلام فبكى[1] وجاء في خبر رواه المسعودي: ابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فوقع عليها فحملت وولدت إسماعيل عليه السلام وهو الذبيح، وهو أكبر أولاده ومن إسحاق بخمس سنين، وكان من قصّة إسماعيل في الذبح ما قصّ الله به، وولد إسحاق من سارة، فلمّا بلغ ثلاث سنين أقبل إسماعيل إلى إسحاق وهو في حجر أبيه إبراهيم فنحّاه وجلس مجلسه، ونظرت به سارة وقالت: يا إبراهيم، تنحّي ابني إسحاق من حجرك ويجلس مكانه ابن هاجر! لاوالله، لاتجاورني هاجر وابنها في بلد أبداً. فشقّ ذلك على إبراهيم عليه السلام، فلمّا كان في الليل أتاه آت برؤيا الذبح، فلمّا حضر الموسم انطلق بإسماعيل وأمّه هاجر إلى مكّة.[2] وروي عن ابن عبّاس رحمه الله قال: لمّا أمر الله إبراهيم عليه السلام بإخراج هاجر حمل على البراق، فكان لا يمرّ بأرض عذبة سهلة إلّا قال: أنزل هاهنا يا جبرئيل؟

---

١ ـ المحاسن، للبرقي: ٣٣٨ ح ١٢٠.

٢ ـ إثبات الوصيّة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ٣١ ـ ٣٢.

فيقول: لا، حتّى أتى مكّة، فقال جبرئيل: انزل يا إبراهيم، قال: حيث لا ضرع ولا زرع! قال: نعم، هاهنا يخرج النبيّ الكريم من ذرّيّة ابنك إسماعيل الذي تتمّ به الكلمة العليا.[١] فنزل مع هاجر وإسماعيل ليتّخذها لهما وطناً، ولذلك يعدّ إسماعيل بن الخليل إبراهيم عليهما السلام مع أمّه أوّل مستوطن لمكّة، وكما أشارت نصوص القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾[٢] وجاء في رواية عن الصادق عليه السلام لمّا ولد إسماعيل عليه السلام حمله إبراهيم عليه السلام وأمّه على حمار وأقبل معه جبرئيل عليه السلام حتّى وضعه في موضع الحجر، ومعه شيء من زاد وسقاء فيه شيء من ماء، والبيت يومئذ ربوة حمراء من مدر، فقال إبراهيم عليه السلام لجبرئيل عليه السلام: ها هنا أُمرت؟ قال: نعم. ومكّة يومئذ سلم وسمر[٣] وحول مكّة يومئذ ناس من العماليق[٤] ومن هذه الرواية يستنتج المؤرّخون بأنّ مكّة كانت مهجورة وغير عامرة بالناس لعدم الماء أو شحّته هناك، ومن هذا الأساس اعتبر بعض اللغويين أنّ اسم مكّة جاء من قلّة مائها. وذكر بعضهم أنّ مكّة من هذا اشتقاقها، لقلّة الماء بها، لأنّهم كانوا يمتكّون الماء، أي يستخرجونه[٥] ويروى أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا خلّف هاجر

١ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، لابن سيّد الناس ١: ٩٥.

٢ـ إبراهيم: ٣٧.

٣ـ السلم: ضرب من العضاه، الواحدة سلمة، بفتح اللام. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٢٢٤ (سلم). والسمر أيضاً: ضرب من العضاه له شوك، الواحدة سمرة، بضمّ الميم. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٢٣٠ (سمر).

٤ـ **الفروع من الكافي** ٤: ٢٠١. وجاء في خبر رواه الشيخ المفيد عن عمر بن أبان عن بعضهم: أنّ الله بعث إسماعيل عليه السلام إلى أرض جرهم، وكانت جرهم حول الكعبة سكنت بعد العماليق. الاختصاص: ٢٦٥.

٥ـ **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٣٦١ (مكك).

وإسماعيل عليه السلام بمكّة عطش إسماعيل فبكى، فخرجت هاجر حتّى علت على الصفا وبالوادي أشجار، فنادت :هل بالوادي من أنيس؟ فلم يجبها أحد، فانحدرت حتّى علت على المروة، فنادت:هل بالوادي من أنيس؟ فلم تزل تفعل ذلك حتّى فعلته سبع مرّات، فلمّا كانت السابعة هبط عليها جبرئيل عليه السلام فقال لها:أيّتها المرأة من أنت؟ قالت:أنا هاجر أمّ ولد إبراهيم، قال لها: و إلى من خلّفك؟ قالت:أمّا إذا قلت ذلك، لقد قلت له:يا إبراهيم، إلى من تخلّفني ها هنا؟ فقال:إلى الله عزّوجلّ أخلّفك، فقال لها جبرئيل:نعم ما خلّفك إليه، لقد وكلك إلى كاف، فارجعي إلى ولدك. فرجعت إلى البيت وقد انبعث زمزم والماء ظاهر يجري فجمعت حوله التراب فحبسته[1] وكانت هاجر على حقّ، باعتبار الضعف البشري الذي عندها، حين تساءلت، كأمّ لها عواطفها ولها تفكيرها العقلي المنطقي، عندما وضعها إبراهيم عليه السلام مع ابنها في أرض جرداء قاحلة ليس فيها ماء ولا أنيس فقالت له: إلى من تدعنا؟ و إبراهيم الخليل عليه السلام كنبيّ مرسل يوحى إليه، كان مطمئنّاً إلى هذا المكان و إلى اختيار الله تعالى له، فأجابها: أدعكما إلى ربّ هذه البنيّة ـ وهو يشير إلى موضع البيت العتيق ـ لكن هاجر استسلمت إلى بشريتها، فظلّت تنادي لعلّ أنيساً يرفدها بماء يروي غليل إسماعيل عليه السلام الذي بلغ به العطش ما بلغ، ولكن في هرولتها وتردادها إلى ولدها وجدت أنّ عقبه يفحص في ماء[2] هذا الماء الذي يحكي تاريخ زمزم الذي يتروّى منه الحجيج ويتبرّكون به وما زالوا. ويروى عن الصادق عليه السلام أنّه قال:إنّ هذا الماء الذي نبع تحت أقدام إسماعيل عليه السلام لو تركته هاجر لكان سيحاً. وصادف ظهور هذا الماء هنا مرور ركب من اليمن لم يكونوا يدخلون مكّة، فنظروا إلى الطير مقبلة على مكّة من كلّ فج

١ـ **المحاسن**، للبرقي: ٣٣٨، ح ١١٩.

٢ ـ ينظر: **بحار الأنوار** ١٢: ١١٦ ح٤٩ عن **الكافي** ٤: ٢٠١.

فقالوا: ما أقبلت الطير على مكّة إلّا وقد رأت الماء، فمالوا إلى مكّة حتّى أتوا موضع البيت فنزلوا واستقوا من الماء وتزوّدوا منه ما يكفيهم فخلّفوا عندهما من الزاد ما يكفيهما، فأجرى الله لهم بذلك رزقاً[١] وفي رواية عن الصادق عليه السلام أيضا جاء فيها: فلمّا كان من قابل أذن الله تعالى لإبراهيم في الحجّ وبناء الكعبة. وكانت العرب تحجّ إليه وكان ردماً، إلّا أنّ قواعده معروفة[٢] عرّفها تعالى لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣] فكانت من هنا عمارة البيت ورفع قواعده بعد أن كانت له آثار بسيطة، وضعها الله لخليفته آدم عليه السلام في الأرض بعد أن أهبطه إلى دار التكليف. وقدم هذا الموضع المقدّس، وربّما أزليّة البيت الحرام يرتبط بتاريخ أوّل إنسان وجد على الأرض، وقد جاء في الأثر: أنّ الله تعالى بعث جبرئيل إلى آدم وحوّاء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً، فخطّ لهما جبرئيل، فجعل آدم يحفر وحوّاء تنقل، حتّى أجابه الماء ونودي من تحته: حسبك يا آدم، فلمّا بناه أوحى الله تعالى إليه: أن يطوف به، وقيل له: أنت أوّل الناس، وهذا أوّل بيت وضع، ثمّ تناسخت القرون حتّى حجّه نوح عليه السلام، ثمّ تناسخت القرون حتّى رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت[٤] وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: أمر الله تعالى الملائكة ببناء البيت في الأرض وأن يطوفوا به، وكان هذا قبل خلق آدم عليه السلام. ثمّ إنّ آدم عليه السلام بنى منه ما بنى وطاف به، ثمّ الأنبياء بعده، ثمّ استتمّ بناءه إبراهيم عليه السلام.[5] وقد أشار القرآن الكريم إلى عراقة هذا البيت واعتباره رمز العبودية والطاعة لله في قوله تعالى

١ـ **المحاسن**، للبرقي: ٣٣٨ ح١١٩.

٢ـ **علل الشرائع**، للصدوق: ٥٨٦ ح٣٢ الباب ٣٨٥ أشار القرآن الكريم في آيات كريمة يشار لها ضمن هذا الكتاب.

٣ـ البقرة: ١٢٧.

٤ـ **عيون الأثر**، لابن سيّد الناس ١: ١٤٧.

٥ـ **تفسير القرطبي** ٤: ١٣٨.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[١]. وأمّا ولاية البيت العتيق فتعود إلى زمن إبراهيم عليه السلام، فكان إبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل عليهما السلام يليان البيت بعد عهد نوح عليه السلام، ومكّة يومئذ بلاقع، ومن حول مكّة يومئذ جرهم والعماليق، فنكح إسماعيل عليه السلام إمرأة من جرهم، فقال في ذلك عمرو بن الحارث بن مضاض:

وصاهرنا من آرم الناس والداً　　　فأبناؤه منّا ونحن الأصاهر

فولي البيت بعد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام وبعد إسماعيل نبت وأمّه الجرهمية ثمّ مات نبت، ولم يكثر ولد إسماعيل، فغلبت جرهم على ولاية البيت، فقال عمرو ابن الحارث بن مضاض:

وكنّا ولاة البيت من بعد نابت　　　نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

فكان أوّل من ولي من جرهم البيت مضاض، ثمّ وليته بعده بنوه كابراً بعد كابر، حتّى بغت جرهم بمكّة واستحلّوا حرمتها، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدى لها، وظلموا من دخل مكّة، ثمّ لم يتناهوا حتّى جعل الرجل منهم إذا لم يجد مكاناً يزني فيه يدخل الكعبة.[٢] استخفافاً بالبيت وجحوداً ونكراناً للنعمة التي أنعم الله بها عليهم. ولمّا لم تتناهى جرهم عن بغيها أتى الله بخزاعة فأزاحتهم عن مكّة، فظلّوا يتولّون وراثة البيت إلى أن أورثه الله قصيّ بن كلاب، الذي كان يرى أحقّية أبناء إسماعيل عليه السلام بولايته، وهو من نسله، فكان له ما أراد، وكان عارفاً بحقّ البيت ومقدّساً له بما كان يجري في عروقه من حنيفية إبراهيم الخليل عليه السلام .

١ـ آل عمران: ٩٦.

٢ـ تاريخ الطبري ٢: ٣٧.

في التسمية بمكّة وغيرها من الأسماء

اختلف المؤرّخون في أصل اسم مكّة، وهذا الاختلاف يعود إلى قدم البيت الحرام، والمنطقة التي وضع فيها هذا البيت، وإلى شرف البيت والمكان معاً. والأرجح لدى البعض أنّه آشوري أوبابلي، لأنّ مكا في البابلية:البيت، وهو اسم الكعبة عند العرب. ويدلّ ذلك على قدم هذه المدينة، كأنّها سمّيت بذلك من عهد العمالقة على أثرهجرتهم من بين النهرين، فسمّوا المكان بها إشارة إلى امتيازها بالبناء الحجري عن سائرما يحيط بها من البادية [1] وتعددت الأسماء لمكّة فيروى عن ابن أبي نجيح قال:بلغني أنّ أسماء مكّة :مكّة، وبكّة، وأم رحم، وأم القرى، والباسّة، والبيت العتيق، والحاطمة، تحطم من يستخفّ بها، والناسّة، تنسّهم، أي تخرجهم إخراجاً إذا غشموا وظلموا. وعن مجاهد من أسمائها:مكّة وبكّة وأم رحم وأم القرى وصلاح وكوثى والباسّة. وعن مجاهد والسدّي:إنّما سمّي البيت العتيق الكعبة، أعتقها الله من الجبابرة، فلا يتجبّرون فيه إذا طافوا. وكان البيت يدعى قادساً، ويدعى بادراً، ويدعى القرية القديمة، ويدعى البيت العتيق [2]

واختلفت الأخبار أيضاً في سبب التسمية الواردة في قوله تعالى ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [3] فروى الصدوق عن الصادق عليه السلام أنّه قال: سمّيت الكعبة:بكّة، لبكاء الناس حولها وفيها. وجاء في خبرآخرعن الصادق عليه السلام أنّه قال:موضع البيت بكّة، والقرية مكّة. [4] وعنه عليه السلام أيضاً قال: إنّما سمّيت مكّة بكّة، لأنّه يبكّ بها الرجال والنساء، والمرأة تصلّي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك(وعن يسارك) ومعك، ولا بأس

١ـ جرجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**: ٣٢٧.

٢ـ **نهاية الإرب في فنون الأدب**، للنويري ١: ٣١٣و٣١٤.

٣ـ آل عمران: ٩٦.

٤ـ قال الشيخ يحيى بن حسين البحراني : مكّة هي البلد كلّها، وبكّة هي البيت نفسه والمسجد. **بهجة الخاطرونزهة الناظر في الفروق اللغوية والاصطلاحية**: ٨٤.

بذلك، إنّما يكره في سائر البلدان [1] ومن اللغويين من يرى بأنّ التسمية ببكّة جاءت لأنّ الناس يتباكّون فيها، أي يزدحمون، وتباكّ القوم، إذا ازدحموا وركب بعضهم بعضاً [2] ويقول ابن هشام: وكانت مكّة في الجاهليّة لا تقرّ فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغي فيها أحد إلّا أخرجته، فكانت تسمّى الناسّة، ولا يريدها ملك يستحلّ حرمتها إلّا هلك مكانه، فيقال:إنّها ما سمّيت ببكّة إلّا أنّها كانت تبكّ أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا [3] وأمّا وجه التسمية بمكّة، وكما مشهور ومروي عن الصدوق عن الرضا عليه السلام أنّه قال: سمّيت مكّة مكّة لأنّ الناس كانوا يمكّون فيها، وكان يقال لمن قصدها:قد مكا، وذلك قول الله عزّوجلّ ﴿**وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [4]

مكّة من آدم إلى قصي

عرف آدم عليه السلام أنّ حجّ البيت الحرام وزيارته عبادة لها من الفضيلة والمنزلة العظيمة، فقد روي عنه أنّه أتى هذا البيت ألف أتية على قدميه، منها سبعمائة حجّة وثلاثمائة عمرة [5] حنيناً وشوقاً إلى الأحجار المقدّسة التي كانت تسبّح الله معه. ويعود هذا إلى حنين آدم عليه السلام إلى الجنّة التي كان فيها، ويروى عن الرضا عليه السلام أنّه قال: إنّ الله عزّوجلّ لمّا أهبط آدم من الجنّة هبط على أبي قُبيس فشكا إلى ربّه

١ـ **علل الشرائع**: ٣٩٧ – ٣٩٨ الباب ١٣٧.

٢ ـ **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ١٦٠(بكك).

٣ ـ **السيرة النبوية** ١: ١١٩.

٤ـ **علل الشرائع**: ٣٩٧ الباب ١٣٦. والآية في سورة الأنفال : ٣٥ . والمكاء :الصفير. وكان البعض من اللغويين يميل إلى الرأي الذي يرى سمّيت مكّة بهذا الاسم، لأنّها كانت تمكّ من ظلم فيها، أي تنقصه وتهلكه. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٣٦٢ (مكا)و(مكك).

٥ـ **قصص الأنبياء**، للراوندي: ٤٩ ح٢٠.

الوحشة، وأنّه لا يسمع ما كان يسمعه في الجنّة فأهبط الله عزّوجلّ عليه ياقوتة حمراء فوضعها في موضع البيت، فكان يطوف بها آدم عليه السلام.[١] وفي خبر عن الصادق عليه السلام: أنّ الله تبارك وتعالى لمّا أراد أن يتوب على آدم عليه السلام أرسل إليه جبرئيل عليه السلام ليعلّمه المناسك التي يريد أن يتوب عليه بها، فانطلق به جبرئيل حتّى أتى البيت [٢] وجاء في خبر عن وهب بن منبّه أنّه قال: قرأت في كتاب من الكتب الأُول ذكر فيه أمر الكعبة، فوجدت فيه: أن ليس من ملك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلّا أمره بزيارة البيت، فينقضّ من عند العرش محرماً ملبّياً، حتّى يستلم الحجر ثمّ يطوف بالبيت سبعاً ويركع في جوفه ركعتين ثمّ يصعد.[٣] ومن هنا فالبيت أزلي في قدسيته، عرّف الله أنبياءه بهذه القدسية والفضيلة، وقد وضع للذكرى والعبادة التي أرادتها السماء، وكأنّه سابق لوجود آدم عليه السلام، بدليل معرفة الملائكة له، لأنّ الملائكة خلقت قبل آدم عليه السلام. وظلّ البيت الحرام قائماً كمعلم من معالم العبادة في الأرض يعرفه الأنبياء عليهم السلام، حتّى كان زمن الطوفان على عهد نوح عليه السلام، فروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: دارت السفينة وضربتها الأمواج حتّى وافت مكّة، وطافت بالبيت وغرق جميع الدنيا إلّا موضع البيت، وإنّما سمّي البيت العتيق، لأنّه أعتق من الغرق [٤] ومن هنا فشرف البيت الحرام، وما وضع له من آثار وبيّنات، كعلامة يعرفها الأنبياء والأوصياء منعت الماء من أن يطمس أحجاره الكريمة، وتضيع مع دفق الماء الجارف. وكأنّ هذه الأحجار المسبّحة كانت تنتظر خليل الله إبراهيم عليه السلام ليجدّد العهد معها في حركة عبادية عرفانية تكون قبلة ومكاناً

١ـ فروع الكافي ٤: ١٩٥.

٢ ـ علل الشرائع: ٤٠٠ الباب ١٤٢.

٣ ـ نهاية الإرب في فنون الأدب، للنويري ١: ٣٠٣.

٤ـ تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي ١: ٣٢٩.

للتوحيد والطاعة، قال تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١] وقال المفسّرون في معنى الآية: أنّا وطّأنا له. أو جعلنا له علامة يرجع إليها[٢] وبعض المفسّرين يقول:أريناه أصله ليبنيه، وكان الموضع قد درس بالطوفان وغيره، فلمّا جاءت مدّة إبراهيم عليه السلام أمره تعالى ببنيانه، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً، فبعث الله ريحاً فكشفت عن أساس آدم عليه السلام فرتّب قواعده عليه[٣] وروي عن السدّي أنّه قال:كانت العلامة ريحاً هبّت فكشفت حول البيت يقال لها: الحجوج. وقال قوم :كانت سحابة تطوّقت حيال الكعبة على ظلّها[٤] ويروى في مجمل الأخبار عن تاريخ إبراهيم الخليل عليه السلام: لمّا بوّأ الله لإبراهيم عليه السلام مكان البيت، وهو حذو البيت المعمور الذي يدعى الصراح، فبناه إبراهيم ومعه ابنه إسماعيل واستعانا بأولاد جرهم فعملوا معهما. ويقصد الأخباريون بجرهم: جرهم الثانية التي جاءت بعد هلاك جرهم الأولى وقد أقامت بمكّة. وكان منها أرباب البيت. ويظهر أنّ أهل الجاهلية كانوا يتصوّرون أنّ قبيلة جرهم كانت ترعى البيت الحرام. وقد ذكر الأخباريون أنّ إسماعيل عليه السلام نشأ بينها وتزوّج منها، وأنّ أباه إبراهيم عليه السلام، بعد أن قام ببناء الكعبة ورفع قواعدها، ترك ابنه بينهم فصارت له صلة بهم، ثمّ تغلّبت على جرهم خزاعة فانتزعت منهم السدانة واحتفظت بها إلى أن انتقلت إلى قريش.[٥] وأوّل من ملك من ملوك جرهم بمكّة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان مائة سنة، ثمّ ملك بعده

١ـ الحج: ٢٦.

٢ـ تفسير التبيان، للطوسي ٧: ٢٤٧.

٣ـ تفسير القرطبي ١٢: ٣٦.

٤ـ تفسير التبيان، للطوسي ٧: ٢٤٧.

٥ـ جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ٣٦٠.

الحارث بن عمرو مائتي سنة، وقيل دون ذلك، ثمّ ملك مضاض بن عمرو مائة وعشرين سنة، ثمّ ملك من بعده عمرو بن الحارث مائتي سنة، وقيل دون ذلك، ثمّ ملك مضاض بن عمرو الأصغر بن الحارث بن عمرو بن مضاض بن عمرو بن سعد ابن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان أربعين سنة[١] وكانت منازل جرهم بمكّة وما حولها. فلمّا قبض الله عزّوجلّ نبيّه إسماعيل عليه السلام قام بأمر البيت بعده قيذر بن إسماعيل عليه السلام وأمّه جرهمية، ثمّ نبت بن قيذر، ثمّ تيمن بن نبت، ثمّ نابت بن الهميسع بن تيمن بن نبت، فلمّا مات نابت غلبت جرهم على البيت، فكانوا ولاته وقوّامه ما شاء الله. وتفرّق ولد إسماعيل من العرب بتهامة وفي البوادي والنواحي، إلّا من أقام حول مكّة من ولد نزار تبرّكاً بالبيت. فلمّا أرسل الله جلّ وعزّ على ولد سبأ بمأرب ما أرسل من سيل العرم ـ وهو سدّ كان لهم بين جبلين ـ تفرّقت الأسد[٢] وانخزعت منها خزاعة[٣] وهم ولد لحيّ بن حارثة، وأفصى بن حارثة ابن عمرو مزيقياء، فنزلوا بظهر مكّة. فلم يزالوا يكثرون، وتقلّ جرهم لاستخفافهم بالبيت وفجورهم فيه، حتّى غلبتهم خزاعة وألفافها على مكّة وطردوهم عنها، فدخل بعضهم في قبائل اليمن. ونزل بعضهم بين مكّة ويثرب، فأصابهم الداء الذي يعرف بالعدسة فهلكوا.[٤] ويتحدّث المسعودي عن تسلّط خزاعة على البيت الحرام فيقول: لمّا خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا تهامة،

١ـ **مروج الذهب ٢: ٢٤.**

٢ـ المراد بالأسد هنا هم الأزد، وأسد بالسين أفصح. والأزد لغة في الأسد، تجمع قبائل وعمائر كثيرة في اليمن. وأزد أبو حي من اليمن، هو أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ. **لسان العرب (أزد) و(أسد).**

٣ـ يقول ابن دريد: سمّيت خزاعة لانخزاعهم عن الأزد إلى الحجاز، أي لانقطاعهم عنهم أيّام خرجوا من مأرب. **ترتيب جمهرة اللغة ١: ٥٧ (خزع).**

٤ـ **جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري ١: ١٢.**

فسمّوا خزاعة لانخزاعهم، ولمّا ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار، وكانت على إياد، قلعت الحجر الأسود ودفنته في بعض المواضع، فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها فاشترطوا على مضر أنّهم إن ردّوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم، فوفوا لهم بذلك ووليت خزاعة أمر البيت، وكان أوّل من وليهم منهم عمرو بن لحي، واسم لحي حارثة بن عامر، فغيّر دين إبراهيم عليه السلام وبدّله، وبعث العرب على عبادة التماثيل. وقويت خزاعة وعمّ الناس ظلم عمرو بن لحي، وفي ذلك يقول رجل من جرهم كان على دين الحنيفية:

يا عمرو لا تظلم بمكّة　　　إنّها بلد حرام

ولمّا أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها وانمحت الحنيفية منهم إلّا لمعاً، قال في ذلك شحنة بن خلف:

يا عمرو إنّك قد أحدثت آلهة　　　شتّى بمكّة حول البيت أنصابا

وكان للبيت ربّ واحد أبداً　　　فقد جعلت له في الناس أربابا

وعمّر عمرو بن لحي ثلاثمائة سنة وخمساً وأربعين سنة [١] وروي عن ابن عبّاس، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: أوّل من غيّر دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، أبو خزاعة. [٢] وكان البيت في سالف أيّامه بيد أولاد إسماعيل عليه السلام إلى زمان عدنان بن أدد فتظالموا فسلبهم الله شرف ولاية البيت الحرام، وفي رواية عن الباقر عليه السلام: لم يزل بنو إسماعيل ولاة البيت يقيمون للناس حجّهم وأمر دينهم، يتوارثونه كابر عن كابر حتّى كان زمان عدنان بن أدد، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وأفسدوا وأحدثوا في دينهم وأخرج بعضهم بعضاً [٣] ويصف ابن هشام وضع

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٢٩.

٢ ـ المعجم الكبير، للطبراني ١٠: ٣٢٨ رقم الحديث ١٠٨٠٨.

٣ ـ فروع الكافي ٤: ٢١٠.

جرهم وأبناء إسماعيل عليه السلام في مكّة فيقول: نشر الله ولد إسماعيل عليه السلام بمكّة، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكّام بمكّة، لا ينازعهم ولد إسماعيل عليه السلام في ذلك لخؤولتهم وقرابتهم. و إعظاماً للحرمة أن يكون بها بغي أو قتال. فلمّا ضاقت مكّة على ولد إسماعيل عليه السلام انتشروا في البلاد، فلا يناوئون قوماً إلّا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم. ثمّ إنّ جرهماً بغوا بمكّة، واستحلّوا حلالاً من الحرمة فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، فرقّ أمرهم. فلمّا رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وغبشان من خزاعة ذلك، أجمعوا لحربهم و إخراجهم من مكّة. فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر وغبشان، فنفوهم من مكّة [١] فلمّا كان من بغي جرهم ما كان، وافق تفرّق سبأ من أجل سيل العرم، ونزول حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر أرض مكّة، وذلك بأمر طريفة الكاهنة، وهي امرأة عمرو بن مزيقياء، وهي من حمير، وبأمر عمران بن عامر أخي عمرو، وكان كاهناً أيضاً، فنزلها هو وقومه، فاستأذنوا جرهماً أن يقيموا بها أيّاماً حتّى يرسلوا الروّاد، ويرتادوا منزلاً حيث رأوا من البلاد، فأبت عليهم جرهم وأغضبوهم حتى أقسم حارثة ألّا يبرح مكة إلّا عن قتال و غلبة، فحاربتهم جرهم فكانت الدولة لبني حارثة عليهم، واعتزل بنو إسماعيل عليه السلام، فلم يكونوا مع أحد من الفريقين، فعند ذلك ملكت خزاعة ـ وهم بنو حارثة ـ مكة، و صارت ولاية البيت لهم، و كان رئيسهم عمرو بن لحيّ [٢] الذي كان من زعماء العرب البارزين في خزاعة، ثمّ جاء بعد ذلك قصيّ بن كلاب الذي استطاع بحنكته ومؤهلاته السياسية والاجتماعية، و لباقته من السيطرة على مكّة، باعتباره وقومه أبناء إسماعيل عليه السلام، فسعى جاهداً لهذا الهدف، فعاد البيت إلى ولد إسماعيل عليه السلام بجهود قصي بن كلاب الذي نظم

---

١ ـ السيرة النبوية ١: ١١٨.

٢ ـ الروض الأنف ٢: ١٢.

أمورها الإدارية والاجتماعية والمدنية والدينية.

عبادة الأصنام

كانت الجزيرة العربية قد عرفت التوحيد منذ دعوة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام. ولكنّها لم تلبث مع مرور الزمن أن داخلتها الوثنية، فانحرفت عن عقيدتها الخالصة. والوثنية هي أحطّ أنواع الشرك، وقد ذكرها القرآن أكثر من غيرها، لأنّها كانت منتشرة في العالم قبل الإسلام، طقوسها تحكم الخضوع المشين والعبودية الضالّة للأصنام على أنّها تنفع وتضرّ، وعلى أنّها يقصد إليها في قضاء الحاجات.. وقد كانت آلهة الوثنية متعددة، ومن هنا هاجم الإسلام تعدد الآلهة، ودعا الإنسان إلى عبادة إله واحد لايعرف شخصه ولاتحدّ حقيقته لأنّه فوق الطبيعة، وجعل الطاعة لغير من يجوز عليه التغيّر والفناء. ولاريب أنّ تشخيص المعبود يؤدّي إلى تقليل قداسته، وارتفع الإسلام بالبشرية عن عبادة الشخص المحدود المتغيّر الفاني، وفي هذا إشعار الإنسان بكرامته. وقد ارتبط تعدد الآلهة بعبادة الأبطال منذ وقت بعيد، وقد تراوحت الوثنية بين التعدد والتثليث. ويرجع ارتباط عبادة الأبطال بالتثليث إلى أنّ الجماهير كانت تعبد البطل الذي يقوم بعمل ما ثمّ يتّخذ البطل له روحه فتحتلّ معه مكان الألوهية، ثمّ تصل البطولة إلى أكثر أبنائه فيتمّ الثالوث. والبابليون هم أوّل من قال بالثالوث في الألف الرابع قبل المسيح، وكان البابليون يدينون بتعدد الآلهة، وقد ظلّت البشرية تتراوح في الوثنية بين التعدد والتثليث حتّى ردّها الإسلام إلى التوحيد. والشرك من انحرافات الوثنية، ومدلول الشرك هو إشراك غير الله مع الله في الإلوهية والربوبية والاتجاه والطقوس، مع الاعتراف بالله كما يمكن أن يفهم من معنى الكلمة، أو الجمع بين الاعتراف بالله كإله أعظم وبين عبادة الملائكة شفعاء مع جعل الأوثان رموزاً مادّية لهؤلاء. وقد ارتبطت الوثنية

بالأصنام وبناء الهياكل التي عرفت في مصر وأثيوبيا والشام وبابل، وعرفها الفراعنة والآشوريون واليونان والرومان، وكان للآشوريين صنم لكلّ كوكب، ولم يترك المصريون شهيداً إلّا ألّهوه.

والمؤرّخون يرون أنّ الوثنية في الحجاز وجزيرة العرب كانت مرضاً أجنبيّاً طارئاً عليها من شرق الأردن وبلاد كنعان حمله منها عمرو بن لحي في بعض الوقت الذي تولّت فيه خزاعة الحكم في الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعمائة سنة، فهي أقصر وثنيات العالم عمراً، ولأنّها قصيرة العمر لم تقم لها في بلاد العرب هياكل ولا تهاويل أو أنظمة وأساطير كالتي كانت للوثنية العريقة في الهند والصين ومعابد أثينا وروما. ولقد كان لحنفيّة إبراهيم بقايا امتدّت إلى زمن البعثة المحمدية، بل كان في العرب بقيّة من شريعة نبي الله شعيب. وقد تركّزت الوثنيّة العربية في الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وعبادة قوى الطبيعة (الشمس والقمر والنجوم) وعبادة الحيوان، وعبدوا تمثال الإنسان، أساف ونائلة، وعبدوا اللات والعزّى... .

وعرف العرب الكهانة والعرافة وزجر الطير وضرب الحصى وخطّ الرمل والاستقسام بالأزلام والميسر والسحر، وهي ممّا نقل إليهم من عقائد الأمم المجاورة، وهو ما أطلق عليه اسم الجاهلية. والجاهلية تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به إبراهيم و إسماعيل. ويقسم الباحثون الجاهلية إلى جاهليتين: جاهلية الفطرة، وجاهلية الفترة، وهي أن يكون للأمّة حضارة فقدتها وتدهورت حياتها. وجاهلية العرب جاهلية فترة موقوتة تحمل آثاراً قوية من حضارة أو حضارات سابقة. والقرآن يشهد للعرب بحضارات سابقة، فهم على دين إبراهيم، وقد أُرسل إلى العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب، ولكلّ رسالة دين، ولكلّ دين حضارة. والجاهلية لاينصرف معناها إلى الجهل الذي هو ضدّ العلم، و إنّما إلى ما كان سائداً بينهم من وثنية من ناحية، و إلى معنى الجهل الذي هو ضدّ الحلم، وليس ضدّ العلم. وأبرز

معالم الوثنية العربية، أوّلاً: الربا، وقد جاء إليهم من اليهود، فقد كانت اليهودية والنصرانية في الجزيرة، وكانت التجارة بين الشمال والجنوب، وكان في الجزيرة العربية نقد الفرس ونقد الروم، وهو يعلو ويهبط تبعاً لانتصارهم أو هزيمتهم، وقد قام في الجزيرة العربية المجتمع الربوي بكلّ فساده وترفه وآثاره. ثانياً: وأد البنات وقتل الأولاد، وكانت بعض القبائل تئد مولودها إذا ظهر أنّه أنثى عقب ولادته مباشرة حيث تقذف به في حفرة وتهيل عليه التراب، وكانوا يعتقدون أنّ البنات رجس من عمل الشيطان، وكانت عادة الإماء متّخذات الأخدان، وهناك الجمع بين الأختين. ثالثاً:عبادة الأصنام، وهناك الأوثان والحجارة والأشجار. . وقد عرّف الصنم بأنّه ما كان مصنوعاً من ذهب وفضّة أو خشب على صورة إنسان، أمّا الوثن فهو ماكان مصنوعاً من حجارة. . وقد عرّف الشرك بأنّه اتّخاذ آلهة أخرى مع الله، أو أولياء من دون الله. . ولعلّ لليهودية والنصرانية أثر في شيوع هذه الفكرة، فكرة وجود وسيط يتقرّب إليه، وهو ما ينكره التوحيد إنكاراً تامّاً. رابعاً: عالم السحر والأرواح والأساطير والعرافة والجنّ والكهانة وعبادة النجوم والكواكب، وهذه جاءتهم من الصابئة، كما جاءتهم عبادة النار من المجوسية المتفشّية في تميم وعمان والبحرين، وكان السحر والكهانة من أعمال رجال الدين، وأكثر السحرة كانوا من اليهود، والسحر طور من أطوار عقل الجاهلية، وكان هناك من أبرز السحرة اليهود لبيد ابن عاصم. خامساً: شرب الخمر واستباحة النساء والقمار، وكانت الخمر يتّجر بها اليهود والنصارى، وكان هناك ارتباط بين شرب الخمر واستباحة النساء والقمار والميسر، وكانوا يضربون خيامهم في بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم فيشربون ويسمعون بعض القيان. سادساً: الثأر، وأكل مال اليتيم، وظلم السادة المتجبّرين وعبودية الفقراء.[١] ويعتقد عدد من الباحثين بأنّ أكثر سكّان الجزيرة،

---

١ ـ ينظر: أنور الجندي، **الموسوعة الإسلامية العربية، الإسلام والعالم المعاصر**: ٩٥ و ٢٢٧.

وبلاد ما بين النهرين، في الأزمنة ما قبل التاريخ والتاريخ القديم والقريب من تاريخ الإسلام [١] من عبدة الأصنام، فبعث الله عليهم البلاء والعذاب فأدّى إلى هلاكهم، ثمّ سكن الجزيرة قوم آخرون مثلهم، وهكذا كان التاريخ يتكرر وتتوالى العبر في ذلك ولم تتعظ أقوام القرون اللاحقة بما لحق بمن سبقهم. ولعلّ أقدم المؤشّرات على تصدّي ومحاربة الأنبياء لهذه السفاهة تعود إلى النبيّ نوح عليه السلام، وكان من أولي العزم، فذكروا أنّه عاش خمسة أو سبعة آلاف سنة في بلاد ما بين النهرين، ومكث هناك يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة للتوحيد وترك الشرك والأصنام. ثمّ جاء من بعده النبيّ هود عليه السلام في الأحقاف وصالح عليه السلام في وادي القرى يدعوان العباد إلى طاعة الله وتوحيده. [٢] والعرب لهم حظّهم من الإيمان الفطري، ولكن كان نصيبهم أكبر من الوثنية والشرك، ويصف المسعودي تقسّم العرب في ديانتهم بالقول: كانت العرب في جاهليتها فرقاً، منهم الموحّد المقرّ بخالقه المصدّق بالبعث والنشور، موقناً بأنّ الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي.. كقس بن ساعدة الإيادي ورئاب الشنّي وبحيرا الراهب، وكانا من عبد القيس. وكان من العرب من أقرّ بالخالق، وأثبت حدوث العالم وأقرّ بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام، وهم الذين حكى الله عزّ وجلّ قولهم ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ [٣]

١ـ ذكر المؤرّخون بأنّ عبادة الأصنام في أرض العراق كانت معروفة، فقد عبد سكّان الحيرة الأصنام، وجاء عن جذيمة الأبرش أنّه تكهّن وكان له صنمان يُدعيان الضيزنين. وقد ظلّ هذان الصنمان حتّى أيّام المنذر بن ماء السماء، المتوفّى عام ٥٥٤ م، حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة، ينحني لهما الداخلون إلى المدينة، كما كانوا يحلفون بسبد، وهو صنم كان في الحيرة، ولاتُعرف تفاصيل عن هذه الآلهة أو طريقة عبادتها. ينظر: **دراسات في تاريخ العرب**، للعسلي ١: ١٣٩

٢ـ ينظر: **الرسول المصطفى واليهود**، لجعفر الكشفي: ١٠٥.

٣ـ الزمر: ٣.

وهذا الصنف هم الذين حجّوا إلى الأصنام وقصدوها، ونحروا لها البدن، ونسكوا لها النسائك، وأحلّوا لها وحرّموا. ومنهم من أقرّ بالخالق وكذّب بالرسل والبعث ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم، وخبّر عن كفرهم بقوله تعالى ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[1] فردّ الله عليهم بقوله: ﴿**وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[2] و منهم من مال إلى اليهودية والنصرانية.[3] و منهم المتمادي في عنجهيّته، الرّاكب لهمجيّته، و قد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة، و يزعمون أنّها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله[4]، و هم الذين أخبر الله عزوجلّ عنهم بقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ**﴾[5] و قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾[6] وعرب الحجاز مثل سائر الشعوب الأخرى عبدوا الآلهة، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان، فحاولوا

١ـ الجاثية:٢٤.

٢ـ الجاثية : ٢٤.

٣ـ لم تجد المجوسية بين العرب موقعاً كبيراً لها، كما هو الحال بالنسبة للديانة اليهودية والنصرانية، وربّما يعود إلى الابتعاد الكبير في أصول وفروع الديانة المجوسية، بفاصلة ليست مقبولة في الفطرة الإنسانية، ولعلّنا نفهم ذلك من محاججة العلاء بن الحضرمي رسول رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين. فلمّا قدم عليه قال له: يا منذر! إنّك عظيم العقل في الدنيا، فلاتصغرن عن الآخرة، إنّ هذه المجوسية شرّ دين، وليس تكرم فيها العرب، ولا أعلم أهل الكتاب ينكحون ما يُستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكرّم عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي. . ينظر الخبر في : **أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفّين**، لابن دحية الكلبي: ١٣٢.

٤ـ في نسخة: لتشفع بهم إلى الله.

٥ـ النحل :٥٧.

٦ـ **مروج الذهب** ٢: ١٠٢. والآيات في سورة النجم، آية ١٩ ــ ٢٢.

كما حاول غيرهم التقرّب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفات وخاطبوها بألسنتهم وقلوبهم، وكان الدين عند عرب الحجاز قبل الإسلام نتيجة تطوّر طويل وعوامل مختلفة، فكانت ديانتهم وثنية، وأهم معبوداتهم الحجارة والأشجار، وهذه الحجارة والأشجار لم تعبد لذواتها، بل عبدت على أساس أنّها بيوت الآلهة[١] أو أنّها تقرّب إلى الآلهة أو لربّما إلى الله الواحد عند البعض. حتّى جاء إبراهيم عليه السلام داعياً إلى الحنيفية ونبذ الأصنام، فاستجاب من استجاب لدعوته التي كانت مكمّلة لشريعة آدم ونوح عليه السلام. وكان عدد من العرب ممّن استجاب وتأثّر بنداء التوحيد، علاوة على أنّ العرب ـ على رواية ستأتي ـ كانوا من نسل إبراهيم عليه السلام فانصاعوا انصياعاً ضرورياً للتوحيد، وقد أيّدت نصوص كثيرة من العلماء والمؤرّخين على أنّ العرب من عهد إبراهيم عليه السلام استمرّت على دينه، أي من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحيّ، فهو ـ على ما يروى ـ أوّل من غيّر دين إبراهيم عليه السلام، وشرّع للعرب الضلالات، فعبد الأصنام وسيّب السائبة وبحّر البحيرة[٢] وقد كانت شريعة إبراهيم عليه السلام مكمّلة لشريعة نوح عليه السلام في التوحيد وهجر الأصنام، وفي ذلك روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله:كانت شريعة نوح عليه السلام أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، وأخذ الله ميثاقه على نوح عليه السلام وعلى النبيّين عليهم السلام أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئاً[٣] وهناك روايات كثيرة وأخبار ربّما تفاوتت في الحديث عن أسباب ودوافع انجرار البيئة المكّية لعبادة الأصنام، وكيفية دخول هذه الأحجار في مقدّساتهم ومتعبّداتهم، لأنّ الأصل في بيئة دينية مقدّسة، كبيئة مكّة، أن تكون على دين

---

١ ـ عبد الحكيم الكعبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوّة: ١٨٧.

٢ ـ السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، إنسان العيون ١: ١٦.

٣ ـ روضة الكافي ٨: ٢٨٢ ـ ٢٨٣، و ط دار الأضواء، بيروت ٨: ١٩٣ ح ٤٢٤.

الأحناف ومسلك التوحيد الإبراهيمي، ومن هنا ظهر رأي يؤيّد بعض هذه الأخبار والروايات فيزعم بأنّ أوّل ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام، أنّه كان لا يظعن من مكّة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلّا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتّى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتّى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم و إسماعيل عليه السلام وغيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسّكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه، فكانت كنانة وقريش إذا أهلّوا قالوا:لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فيوحّدونه بالتلبية، ثمّ يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده، يقول الله تبارك وتعالى لمحمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1] أي ما يوحّدونني لمعرفة حقّي إلّا جعلوا معي شريكاً من خلقي[2] وبعض آخر من أهل العلم يعتقد ويروي بأنّ عمرو بن لحيّ خرج من مكّة إلى الشام في بعض أموره، فلمّا قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق ـ وهم ولد عملاق، ويقال:عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم:ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم:أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه، فأعطوه

---

١ ـ يوسف: ١٠٦.

٢ ـ السيرة النبويّة، لابن إسحاق ١: ٦٠.

صنماً يقال له:هبل، فقدم به مكّة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[١] وقد زيّن لهم إبليس هذه الأصنام حتّى أغواهم بجنوده من الجنّ، فرووا بأنّه كان لعمرو تابع من الجنّ فقال له:اذهب إلى جدّة وائت منها بالآلهة التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس عليه السلام، وهي وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر، فذهب وأتى بها إلى مكّة ودعا إلى عبادتها، فانتشرت عبادة الأصنام في العرب، فكان وَدّ لكلب، وسواع لهمدان، وقيل لهذيل، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، وقيل لهمدان، ونَسر لحمير. وكانوا هؤلاء على صور عباد ماتوا، فحزن أهل عصرهم عليهم فصوّر لهم إبليس اللعين أمثالهم من صفر ونحاس ليستأنسوا بهم، فجعلوها في مؤخّر المسجد، فلمّا هلك أهل ذلك العصر قال اللعين لأولادهم: هذه آلهة آبائكم تعبدونها، ثمّ إنّ الطوفان دفنها في ساحل جدّة فأخرجها اللعين[٢] وقد أشار القرآن الكريم لبعض هذه الأصنام في قوله تعالى ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾[٣] وجاء في خبر رواه حريز عن الصادق عليه السلام عن قصّة هذه الأسماء فقال:كانوا يعبدون الله عزّوجلّ فماتوا، فضجّ قومهم وشقّ ذلك عليهم، فجاءهم إبليس فقال لهم:أتّخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله، فأعدّ لهم أصناماً على مثالهم، فكانوا يعبدون الله عزّوجلّ وينظرون إلى تلك الأصنام، فلمّا جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت، فلم يزالوا يعبدون الله عزّوجلّ

---

١ ـ **السيرة النبويّة**، لابن هشام ١: ٧٩. ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا كانت أرض مصر وبلاد الشام قد عرفت الأصنام وعبدتها من وقت بعيد، وكما يفهم هذا من القرآن الكريم الذي نقل لنا حوار موسى عليه السلام مع قومه الذين فتنوا بعبّاد الأصنام آنذاك في قوله تعالى ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ الأعراف : ١٣٨.

٢ ـ **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، إنسان العيون** ١: ١٨.

٣ ـ نوح : ٢٣.

حتّى هلك ذلك القرن، ونشأ أولادهم فقالوا:إنّ آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم من دون الله عزّوجلّ، فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا﴾ الآية.[١] وقيل:إنّ هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليه السلام فنشأ قوم بعدهم يأخذون أخذهم في العبادة، فقال لهم إبليس:لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا، فنشأ بعدهم قوم فقال لهم إبليس:إنّ هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنّهم بنو آدم دونكم، و إنّما هو جسد، وأنا أصوّر لكم مثله تطيفون به، فنحت خمسة أصنام وحملهم على عبادتها، وهي ودّ وسواع ويعوق ويغوث ونسر، فلمّا كان أيّام الغرق دفن الطوفان تلك الأصنام وطمّها التراب، فلم تزل مدفونة حتّى أخرجها الشيطان لمشركي العرب[٢] ويتحدّث الباحثون عن شيوع أسماء هذه الأوثان لدى القبائل والأقوام وللأمم والثقافات القديمة، فلشهرة أصنام العرب ورد في التلمود اسم صنم عربي دعي نشراً، ويقصد به نصر، ولاشكّ هو من أصنام العرب المعروفة. وقد ذكر ابن الكلبي أنّ حمير تعبّدت لنسر[٣] وقالوا عن نفوذ كلمة عمرو بن لحيّ بين العرب :كان عمرو بن لحيّ، حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكّة، قد جعلته العرب ربّاً لا يبتدع لهم بدعة إلّا اتّخذوها شرعة، لأنّه كان يطعم الناس، ويكسو في الموسم، فربّما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلّة حتّى قيل:إنّه اللّاتّ الذي يلتّ السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمّى صخرة اللّات، ويقال: إنّ الذي يلتّ من ثقيف، فلمّا مات قال لهم عمرو: إنّه لم يمت، ولكن دخل في الصخرة، ثمّ أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتاً يسمّى اللات. ويقال: دام أمره وأمر ولده على هذا بمكّة ثلاثمائة سنة،

١ـ **علل الشرائع**، للصدوق: ٣.

٢ـ **مجمع البيان**، للطبرسي ٥: ٣٦٤.

٣ـ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ١: ٦٥٢.

فلمّا هلك سمّيت تلك الصخرة :اللات، مخففة التاء، واتّخذ صنماً يعبد.[١] فالتوحيد كان مع سكّان مكّة الأوائل يجري في عروقهم متأثّرين بحنيفية إبراهيم وفطرتهم، لكن عمرو بن لحيّ لم يتركهم وشأنهم حتّى رماهم في جهنّم الوثنية والأصنام، ولذا يروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال :رأيت عمرو بن عامر بن لحيّ الخزاعي يجرّ قصبه في النار[٢] وظلّت مشكلة عبادة الأصنام عالقة في أذهان القرشيين، وكأنّها كانت أساس قدسيتهم واحترام العرب لهم، بل نسوا ما كان الله حباهم به من نعمة وأمن ومال وما نالهم من عزّ ومقام وجاه، وهو مجاورتهم للبيت العتيق موطن الموحّدين، ومشاركتهم في شعائر تعظيم البيت الحرام وخدمتهم لزوّار البيت، وآثار بركات إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام. وقد ملك شعور جمع كثير من العرب ومن شرفاء قريش هذه الأصنام الممسوخة فصاروا يتقرّبون لها بالإبداع الفنّي والأدبي. وقد فسّروا دخول القصائد السبع-أي المعلّقات السبع-إلى الكعبة، وهي حرم ديني معروف المكانة في نفوسهم إلّا من قبيل اتّخاذها أدعية أو تعويذات ترتّل أمام الأصنام. وربّما بلغ حرصهم على قدسية الشعر وترتيله أمام الأصنام أن عمدوا إلى تنظيف أجسامهم كأنّهم مقبلون على صلاة[٣] ويقول هشام بن محمّد الكلبي:واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتّخذ بيتاً، ومنهم من اتّخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره، ممّا استحسن، ثمّ طاف به كطوافه بالبيت وسمّوها الأنصاب، فإذا كانت

١-**الروض الأنف**، للسهيلي ١: ٢١١. وكان أعظم الآلهة الوثنية هو هبل، وكان موضعه داخل الكعبة، وهو مصنوع من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أوّل من نصبه خزيمة بن مدركة. وهناك روايات تنسب هبل إلى عمرو بن لحيّ. **موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوّة**: ١٩٥.

٢-**صحيح البخاري** ٤: ٢٢٤-باب قصّة خزاعة.

٣-عادل جاسم البياتي، **مقدّمة أيّام العرب**، لأبي عبيدة (جمع ودراسة وتحقيق): ١٠٤

تماثيل دعوها الأصنام والأوثان، وسمّوا طوافهم الدوار. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتّخذه ربّاً، وجعل ثلاث أثافي لقدره[١] وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلّها ويتقرّبون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجّونها ويعتمرون إليها.[٢] وهذه المعرفة المشوبة بالوثنية قد نبذها عدد من العقلاء والعارفين، فقد تنزّه أجداد نبيّنا محمّد ﷺ عن عبادة هذه الأحجار الممسوخة التي فتن بها جمع كبير من القرشيين، ولعلّ أبا سفيان كان من أكثر الوالهين بها، وقد كان هبل قبلته ومنه يستلهم الزندقة والشرك والإيذاء الذي كان يواجه به النبيّ ﷺ وقومه وأصحابه، ولكن هذه الوثنية الضالّة لم تكن تخطر على غرس هاشم، فقد كان عبد المطّلب فيهم معرّفاً في زمرة الموحّدين بمكّة، يقول المسعودي:فممّن كان مقرّاً بالتوحيد مثبتاً للوعيد، تاركاً للتقليد، عبد المطّلب بن هاشم[٣] وروى الصدوق بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة أنّه قال: سمعت أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يقول:والله، ما عبد أبي ولا جدّي عبد المطّلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط. قيل له عليه السلام:فما كانوا يعبدون ؟ قال عليه السلام:كانوا يصلّون إلى البيت، على دين إبراهيم عليه السلام متمسّكين به[٤] ومن هنا كانت هذه النخبة الهاشمية موطّئة لرسالة النبيّ الخاتم محمّد ﷺ ومهيّئة له في محو هذه الأوثان، وعوناً له في كسر أصنام الجاهلية وإزالتها من أذهانهم وعقولهم، والأخذ بأيديهم صوب الإيمان والصلاح، وحثّهم في التوجّه نحو الواحد الأحد الذي وهب العزّ والشموخ لسكّان بيته الحرام

١ـ الأثافي: ما يوضع من الأحجار تحت القدر. **القاموس المحيط** ٣: ١٥٦.

٢ـ **الأصنام**: ٣٣.

٣ـ **مروج الذهب** ٢: ١٠٣.

٤ـ **كمال الدين وإتمام النعمة**: ١٧٤ ـ ١٧٥ الباب ١٢.

من القرشيين وغيرهم. وكان عليّ عليه السلام يعلن رفضه لهذه الأصنام والأوثان، في مواقف تناسب تلك المرحلة من الجهاد، فروي عنه عليه السلام قوله: كنت أنطلق أنا وأسامة بن زيد إلى أصنام قريش نلطّخها، فيصبحون فيقولون :من فعل هذا بآلهتنا! فينطلقون إليها ويغسلونها باللبن والماء[١] ويزدادون عنتاً وجهلاً فيتمادون في إكرام وتقديس جماداتهم، وقد ملأت قريش هذه الأرض المقدّسة بأكوام من الحجارة الصمّاء فأزاحها النبيّ صلى الله عليه وآله حين دخل مكّة ظافراً. ويروي ابن مسعود أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دخل المسجد وحول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً، فجعل يطعنها بعود كان معه ويقول ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[٢] وجاء في بعض الأخبار أنّ هذه الأصنام كان بعضها مشدودا إلى بعض بالرصاص، فقال لعليّ عليه السلام :أعطني يا عليّ كفّاً من الحصى، فقبض له أمير المؤمنين عليه السلام كفّاً فناوله فرماها به وهو يقول ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**﴾ الآية، فما بقي منها صنم إلّا خرّ لوجهه، ثمّ أمر بها فأخرجت من المسجد وطرحت وكسرت.[٣] وبذلك انتهت أساطير قريش وعروشهم الصنمية التي دنّسوا بها الحرم الإبراهيمي، ولتجدّد مرّة أخرى مشاعل التوحيد بيد هاشمية كريمة تعضدها أيادي صحاب كرام بررة حملت هذه المشاعل معه، فتشمل أرض الحجاز كلّها فيستطيل نورها إلى بقاع الأرض جميعها لتقهر ظلام الأصنام التي حجبت الحقيقة عن أذهان العباد.[٤]

١ـ **كنز العمّال** ١٤: ١١١ ح٣٨٠٨٤.

٢ـ **مسند أبي يعلى الموصلي** ٨: ٣٧٧ الرقم ٤٩٦٧، والآية في سورة الإسراء: ٨١.

٣ـ **المستجاد من كتاب الإرشاد**، للعلاّمة الحلّي ٩ أو: ٢٥٣ من كتاب مجموعة نفيسة.

٤ـ في مراجعة سريعة للوثنية العربية قبل بعثة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله تكشف عن أنّها كانت وثنية ساذجة ليست عميقة الجذور، وأنّها لم تكن كمثيلاتها من وثنيات اليونان والفرس والهند، ذات فلسفة وطقوس عميقة، وأنّها كانت انحرافاً لدعوة التوحيد التي جاء بها إبراهيم وإسماعيل عليه السلام . ينظر: أنور الجندي، **الإسلام والعالم المعاصر**: ٣٢. ولذا انتهت بنهاية الأحجار

خصائص العربي وعقليّته

لكلّ أمّة عقليّة خاصّة بها، تظهر في ثقافتها وآدابها ومعارفها، وفي علاقة وتعامل أفرادها بعضهم مع بعض، وفي علاقات وتعامل تلك الأمّة مع الأمم الأخرى، كما أنّ لكلّ أمّة نفسية خاصّة بأفرادها تميّزها عن نفسيات أفراد الأمم الأخرى. ولها شخصيّة وهوية تمثّل تلك الأمّة، وقد تبدو ملامح لها تكون غالبة على أكثر أفرادها تجعلها سمة لتلك الأمّة تميّزها عن سمات وخصائص الأمم الأخرى. والشيء نفسه يقال عن خصائص العربي ونفسيته وهويته، والمعروف عن تاريخ العرب القديم أنّه تاريخ بداوة وبعد عن الاستقرار والتمدّن طبع الفرد العربي ببعض ملامحه. والبداوة على العموم عالم خاصّ قائم بذاته، تكوّنت طباعها وخصائصها من الظروف التي نشأت فيها، لها مقاييسها وموازينها الخاصّة، وهي مقاييس وموازين تختلف عن مقاييس الحضر وموازينهم، ولذلك اختلفت أفهام الجماعتين وتباعدت عقلياتهما. والبدو والبدوي حين يطلق يراد به ساكن الصحراء والبراري الذي يلبس ثوب هذه البيئة ويتلوّن بلونها. وعلى العموم يتّسم البدوي بصفات عامّة تميّزه عن غيره، وهذه السمات جاءت نتيجة وراثة اجتماعية لا بيولوجية، وأنّها تولّدت في الغالب نتيجة حياتهم الطويلة في الصحراء، هذا إضافة إلى أنّها صفات عامّة وبجانبها فوارق فردية كثيرة. فأمّا صفاتهم الجسمية، فهم في الغالب نحاف الأجسام، متوسطو القامة، ذوو أنف أقنى، وعيون سوداء لوزية مفتوحة، وشعر مسترسل، وجمجمة مستطيلة. غير أنّ عرب الجنوب هم ذوو رؤوس مستديرة وشعر أجعد، ولهم قابلية كبيرة على الصبر وتحمّل المشاق الجسمية من مشي طويل وغذاء يسير، وهم يتميّزون بالشجاعة

الموضوعة هنا وهناك، فلم تكن هذه الوثنية التي تجلّت بالمعبودات الحجرية عالقة بأذهان أتباعها، أو قادرة على الانبعاث والتجدّد في أرض العرب.

والإقدام وإنجاد الضعيف وحماية المرأة.[1] وأمّا الأعراب فهم جزء من البدو والبادية أو من العرب، وليس كلّ العرب. وقد قذفت الطبيعة بالأعراب في كل مكان من أمكنة الجزيرة، حتّى زاد عددهم على الحضر. والصفة الغالبة عليهم أنّهم لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه، ولا يستقرّون في مكان إلّا إذا وجدوا فيه الكلأ والماء، فإذا جفّ الكلأ وقلّ الماء، ارتحلوا إلى مواضع جديدة. وهكذا حياتهم حياة تنقّل وعدم استقرار، لايحترفون الحرف على شاكلة أهل الحضر، ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية، يتمثّل مجتمعهم في القبيلة، فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي. وقد نصّ الأقدمون على اختلاف طباع القبائل، فعرف بعضها باللين والسهولة، وعرف بعضها بالشدّة والخشونة والغلظة، وعرف آخرون بالشجاعة، والصبر على المكاره، والميل إلى الغزو والحروب، وعرف غيرهم بالميل إلى الاستقرار، وبقابليتها على الاستيطان واستغلال الأرض والالتئام مع الجيران. ووصف الأعراب منهم في القرآن الكريم بالغلظة وبعدم الإدراك وبالنفاق وبالتظاهر في اللسان بما يخالف الجنان. ومن ذلك قوله تعالى ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**﴾[3] وقد تأصّلت الفردية في أنفس الأعراب، وفي أنفس أشباه الحضر، وفي أكثر الحضر، حتّى صارت أنانية مفرطة، عاقت المجتمع العربي، في الجاهلية وفي الإسلام، عن التقدّم وعن التوثّق والاتحاد. والحضر الذين نظروا إلى الأعراب نظرة استصغار وازدراء، لما بينهم وبين الأعراب من تفاوت في الثقافة وفي العقلية، هم أنفسهم في الواقع أشباه حضر، و

---

١ ـ تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية: ١٦٠.

٢ ـ الحجرات: ١٤.

٣ ـ التوبة: ١٠١.

من هؤلاء الحضر حضر الحجاز، فخصائص التعرّب غالبة عليهم، غلبة تزيد على خصائص الحياة الحضرية، فقد قامت قراهم مثلاً، وأعظمها مكّة ويثرب، على الفكرة الأعرابية القائمة على أساس النسب. وهم في عامّتهم، وكما يتحدّث تاريخهم عنهم، اتّصفوا بصفات تكاد تكون متشابهة بينهم، ميّزت العربي عن غيره. ومن خصائص العربي أنّه يحبّ المساواة ولكن هذه المساواة تكون في حدود القبيلة. والعرب مثل غيرهم من الناس لهم ملامح امتازوا بها عن غيرهم وعقلية خاصّة بهم. وقد جاء وصفهم في كتب اليونان والرومان والأناجيل، وكما في كتب أخرى مثل التوراة، بأنّهم كانوا يغيرون على حدود إمبراطوريتي اليونان والرومان ويسلبون القوافل ويأخذون الأتاوات من التجّار والمسافرين وأصحاب القوافل للسماح لهم بالمرور. وقد وصف ديودورس الصقلي العرب بأنهم يعشقون الحرّية فيلتحفون السماء، وقد اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء، فلا يستطيع العدوّ المغامر الذي يريد الإيقاع بهم أن يجد له فيها مأوى، فهم لا يزرعون حبّاً، ولا يغرسون شجراً، ولا يشربون خمراً، ولا يبنون بيوتاً، ومن يخالف العرف يقتل، وهم يعتقدون بالإرادة الحرّة وبالحرّية. وهو يشارك في ذلك رأي هيرودوتس الذي أشاد بحبّ العرب للحرّية، وحفاظهم عليها، ومقاومتهم لأيّة قوّة تحاول استرقاقهم واستذلالهم. فالحرّية عند العرب هي من أهم الصفات التي يتّصف بها العرب في نظر الكتبة اللاتين واليونان. وقد وصف العربي بحبّه لحرّيته حبّاً كبيراً حتّى إذا حاولت جهة أن تحدّها أو تنقص من أطرافها هاج وكأنّه وحش في قفص، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حرّيته. ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص، مطيع لتقاليد قبيلته، كريم يؤدّي واجبات الضيافة والمحالفة في الحروب، كما يؤدّي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها بحسب ما رسمه العرف. . وقد وصف العربي بأنّه عصبي المزاج. والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء، و الحق أن العربي

ذكي يظهر ذكاؤه في لغته، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالّة والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديهته.. والعربي سريع الغضب يهيج للشيء التافه، ثمّ لايقف في هياجه عند حدّ، وهو أشدّ هياجاً إذا جرحت كرامته، أو انتهكت حرمة قبيلته. و إذا اهتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه، حتّى أفنتهم الحروب، وحتّى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة [1] ومع هذه الحرية والفردية المطلقة للبدوي في ربوع الجزيرة العربية التي كان يتّصف بها آنذاك، فإنّ الفردية لديه غالباً ما تذوب وتنسجم مع الجماعة، فهو متماسك مع جماعته ينصر إخوانه ظالمين أو مظلومين، ويلبّي دعوتهم إذا طلبوا النجدة أو دهم القبيلة خطر يهددها، بل لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل جماعته. والتماسك من أبرز السمات التي يتّصف بها مجتمع القبيلة. والبدوي يشعر بأنّه ملزم بأن ينصر أخاه في الملمّات وليس له أن يتنازل سواء كان أخوه ظالماً أو مظلوماً. على أنّ إخلاص الرجل لقبيلته بدافع العصبية كثيراً ما يتعرّض لامتحان قاس، نتيجة اصطدام العصبية بعوامل أخرى، وفي الغالب تكون نتيجة هذا الصراع في صالح العصبيّة، ولا يتردّد العربي في تلبية نداء القبيلة مهما كانت الأحوال، ومردّ ذلك يعود إلى وضوح التبعات التي تفرضها عليه العصبيّة من جانب، و إلى طغيان الشعور العصبي على أيّة عاطفة أخرى تعترض سبيله من جانب آخر. وعلى أبناء القبيلة واجبات مشتركة تكلّفهم تبعات لا يسعهم التنصّل منها، وهي بمثابة عهد غير مكتوب تفرض على أبناء القبيلة التشاور بشأنها، والسعي في سبيل منفعة القبيلة عند اجتماعها على رأي ما، ويفرض على الفرد تبنّي مبدأ واحد، ألا وهو أنّ الفرد في

١ـ ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١: ٢١٩ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٥ و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٨٣ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٨.

سبيل القبيلة والقبيلة في سبيل الفرد، ويدعو المرء إلى نصرة أخيه [1] فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في الملمّات، وليس له أن يتساءل أهو ظالم أم مظلوم. وليس من شكّ في أنّ هذا الواجب يقع بادئ الأمر على عاتق العشيرة التي يعنيها الأمر، فلا تنبري القبيلة كلّها لمناصرتها، إلّا إذا كانت العشيرة ضعيفة قليلة الحول [2] والعرب في نظر أكثر الباحثين :على الأغلب بدو في تاريخهم القريب من فجر الإسلام. والبداوة طور طبيعي تمرّبه الأمم في أثناء سيرها إلى الحضارة والتمدّن، ومن هنا فالعرب في تاريخهم الاجتماعي القديم يعدّون من البدو الرحّل الذين يتّبعون مساقط الماء، فلذا كانوا يحملون خصائص البدوي وأخلاقه، فهم في رحلة دائمة من مكان إلى مكان آخر لطلب المعاش، ولهم قوّة وشجاعة لحاجتهم إلى الدفاع عن أنفسهم ضدّ الحيوان المفترس والعدو المغير، ولهم عصبيّة خاصّة بهم جاءت من الدم والنسب تجعلهم يداً واحدة على القبائل الأخرى، فتعارفوا على نوع من الظلم الذي يرى: أن تبدأ خصمك بالهجوم قبل أن يتمكّن هو من الهجوم عليك، وهو ما سمّي في لغة الحرب بالغزو، لأنّه كان وسيلة من وسائل المعاش في البادية القاحلة القاسية التي تبخل على أبنائها في أيّام الجدب والقحط. وللبدوي أيضاً من الخصال الحميدة، من الكرم والنجدة والوفاء والدفاع عن العرض [3] فقبل منها الإسلام ما كان إيجابياً وصالحاً، بل ندب إلى إحيائها وتعزيزها، فروي عن النبيّ ﷺ قوله:الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.[4] ونحو هذا قال النبيّ ﷺ:تجدون الناس معادن،

١ـ خالد العسلي، **دراسات في تاريخ العرب** ١: ٦٩و٧٠.

٢ـ **تاريخ الشعوب الإسلامية**، لبروكلمان: ١٨.

٣ـ ينظر: **تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية**، لعمر فروخ : ٤١.

٤ـ **شهاب الأخبار**، للقضاعي ٢٧ ح١٥٩، **بحار الأنوار** ٦١: ٦٥.

فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام[١] وفي ذلك روي عن حكيم بن حزام قوله لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، أشياء كنت أفعلها في الجاهلية، فقال رسول الله:أسلمت على ما أسلفت لك من الخير. فقلت: فوالله، لا أدع شيئاً صنعته في الجاهلية إلّا فعلت في الإسلام مثله. وعنه روي أيضاً أنّه قال للنبيّ صلى الله عليه وآله:أرأيت أموراً كنت أتحنّث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله له: أسلمت على ما أسلفت من خير[٢] وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يوجّه بعض المقولات والمفاهيم الجاهلية توجيهاً تصحيحيّاً إيجابياً بنّاء، نظراً لتغلغلها في أذهان العرب، وبواطن عقولهم ونفوسهم، واستحسانهم لها، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقيل له: يا رسول الله، ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله:تمنعه من الظلم. وفي رواية أخرى: تحجزه وتمنعه، فإنّ ذلك نصره.[٣] وأمّا العصبية الجاهلية البحتة، في خطوطها العامّة والتفصيلية، فلم تجد لها موضعاً في الإسلام، وأبطلها النبيّ صلى الله عليه وآله في مجمل أحاديثه وأخباره صلى الله عليه وآله. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله:من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم[٤] ويروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أيضاً قوله:من قاتل تحت راية عميّة يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية.[٥] وحتى العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية التي تنزع نزعة جاهلية في ظاهرها، فقد أبطلها النبيّ صلى الله عليه وآله، فيروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جدّه قال:قام رجل فقال: يا رسول الله، إنّ فلاناً ابني عاهرت بأمّه في الجاهلية،

١ـ مصنّف عبد الرزّاق الصنعاني ١١ : ٣٦ ح ٢٠٦٤١، وينظر:سفينة البحار ٣ : ٤٢٧ (عدن).

٢ـ صحيح مسلم ١: ١١٤ كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان ورجحان أهل اليمن وج٤: ١٩٥٨ح٢٥٢٦.

٣ـ مسند أحمد بن حنبل ٣: ٩٩و٢٠١.

٤ـ أصول الكافي ٢: ٣٠٩ ح ٧ باب العصبيّة.

٥ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٠٢ح ٣٩٤٨ و ٣٩٤٩ كتاب الفتن.

فقال رسول الله ﷺ: لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحجر.[١] فهذا أمر له خطورته في رسم الأنساب وتعيينها في مجتمع يجعل للأنساب قيمة كبيرة، لكن النبيّ ﷺ حسم هذا الأمر وألغى هذا القانون الجاهلي، لأنّ الوقوف على هذه القوانين والانتهاء والاحتكام إليها يعني إقرارها، وبالتالي العودة بهم نحو جاهليتهم الأولى. ومن هذا يفسّر قول النبيّ ﷺ: من انتسب إلى تسعة آباء كفّار يريد بهم كرماً وعزّاً فهو عاشرهم في النار.[٢]

أثر العصبية في المدينة

لم تستطع مدن الحجاز وقراه أن تنفصل عن الحياة البدوية القائمة حولها، بل تأثّرت بها إلى حدّ كبير في حياتها ونظمها، فليست حواضر الحجاز إلّا مدن صغيرة تمتزج فيها حياة البادية وحياة الحضر، فهي وإن كانت مواطن استقرار إلّا أنّها لم تستطع أن تنعزل عن الحياة المحيطة بها، ولم تستطع أن تؤثّر فيها، وإنّما تأثّرت بها في نظم حياتها التي سيطر عليها النظام القبلي بأوضاعه السياسية والاجتماعية[٣]

١ـ **مشكاة المصابيح**، للخطيب التبريزي ١: ٦٠١ ح٣٣٢٠. واختلف الفقهاء في معنى قوله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر، فقال أبو حنيفة وأصحابه: هو الوطء. وقال الشافعي: الفراش هو العقد مع التمكّن من الوطء. وهو مذهب الشيعة الإمامية. والعاهر: الزانية التي تأتي بولد من غير عقد. ومعنى لها الحجر: أن ترجم بالحجارة ويقام عليها حدّ الزناء، فكنّى عن إقامة الحدّ بما به يقام الحدّ من الحجر. ينظر: **رسائل الشريف المرتضى**، المجموعة الثالثة: ١٢٤.

٢ـ **مسند أبي يعلى** ٣: ٢٨ رقم ١٤٣٩.

٣ـ أحمد إبراهيم الشريف، **دور الحجاز في الحياة السياسية العامّة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة**: ٩. كان تأثير البادية أو الريف أو القرية أو نحو ذلك على المدن، وحتّى على النظم السياسية والاجتماعية كبيراً، ومن ملاحظة تاريخ الدول الإسلامية اللاحقة أنّ هذا العامل أثّر في جسم الدولة الإسلامية الكبيرة، فينقل القلقشندي عن تاريخ مصر الإداري والسياسي أنّ مراتب الولاة لا تخرج عن مرتبتين في مصرهما: الوجه القبلي والبحري، كما في **صبح الأعشى** ٤: ٢٦.

وقد تكون مكّة أقلّ تأثّراً بالمناخ القبلي بالقياس إلى مدن الحجاز الأخرى، نظراً لنمو ثروات سادات قريش وعظم مالهم، الأمر الذي سارع في تفكيك البنية القبلية، ونمّا فيهم روح الملكية الخاصّة والفردية، بدلاً من الملكية المشاعية أو شبه المشاعية التي تتميّز بها الحياة القبلية، كلّ هذا ساعد على بذر بذور الحياة المدنية التي تحتّم وجود حكومة تضبط أمورها، ولم تعد سلطة شيخ القبيلة ومجلس القبيلة كافية، ولا مناسبة للحياة الجديدة، ممّا ساعد على قبول فكرة حكومة مركزية تهيمن على المدينة المقدّسة، التي غدت مدينة التجارة العالمية والثروات الواسعة، التي لم يكن للعرب عهد بها قبل ذلك، فضلاً عن أنّ ذلك أفرز أيضاً آثاراً جانبية مثل انقسام المجتمع المكّي إلى ملأ يملكون المال الوفير، وإلى فقراء حتّى من قريش ذاتها بعد نماء الثروات لذلك الحدّ [١] وربّما تمازجت الروح القبلية والمدنية، والتي اعتلجت في المجتمع المكّي، لكي تتقابل وتتقاطع مع مبعوث السماء ورجل الحضارة والمدنية محمّد صلى الله عليه وآله كي تقوّض دعوته وتفشل رسالته العظيمة، لكنّه لم يكن يائساً في أن تتقبّل جموع الناس هذه الدعوة الحضارية العظيمة فاتّجه بهذه الرسالة العظيمة صوب يثرب المدينة التي فتحت أبوابها وقلبها للدعوة الحضارية التي بشّر بها النبيّ صلى الله عليه وآله. وعلى الرغم من وجود النبي صلى الله عليه وآله المصلح بينهم، وما كان يؤدّيه من دوره الرسالي العظيم الذي كان يبثّه هناك، وفي أوّل خطوة خطاها حين هاجر بأصحابه إلى يثرب ليبني دولة ذات حضارة عظيمة، ويؤسس مجتمعاً إسلامياً نموذجياً، فإنّ ظلال الجاهلية كانت واضحة في وجدان وأحاسيس المجتمع اليثربي هناك، ويروي جابر في هذا الأمر قائلاً: كسع [٢] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار!

---

١ ـ خليل عبد الكريم، **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**: ٣٠.

٢ ـ الكسع: ضربك دبر الرجل بصدر قدمك. كسعته أكسعه كسعاً. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٢٢٤

وقال المهاجري:يا للمهاجرين! فلمّا سمع النبيّ ﷺ ذاك قال:ما بال دعوى الجاهلية ! قالوا: يا رسول الله، رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبيّ ﷺ:دعوها فإنّها منتنة، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول:أقد فعلوها!لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. فقال عمر:دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ:دعه، لايتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه.[1] ومع هذه المفردات اليومية التي قابلت المسلمين، وظهور الخروقات الجاهلية في ثوب المجتمع اليثربي، فقد كان المنهاج الإسلامي الذي يقف فوق كلّ الاعتبارات هو الغالب هناك، وقد كان نصب عين الرسول ﷺ في حركته ودعوته ودولته الصغيرة هناك، و قد عمل الرسول ﷺ جاهداً على إزالة العصبية والشعور القبلي الجاهلي، وأكّد على ضرورة إحلال الهويّة الدينية، وتوطيد القومية الدينية والمواطنة الإسلامية، لتحلّ محلّ المعايير الجاهلية والانتسابات العرقية والدموية التي كانت عالقة بأهداب المدينة الإسلامية الجديدة. وهناك من يعتقد بأنّ شخص الرسول ﷺ وقوّته الروحية استطاعتا تذويب بعض روح التمرّد والكبرياء والشموخ القبلي، والذي لا يخضع لسلطان أو قوّة مركزية ترجع لها القبيلة أو تدين لها بالطاعة. وكانت بساطة الرسول ﷺ وتواضعه وتفهّمه لظروفهم ومعرفته بأوضاعهم الاجتماعية والجغرافية ربّما سهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وتدين له بالزعامة. فلمّا انتقل الرسول إلى جوار ربّه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها. وبذلك تجلّت النفس العربية والطبيعة القبلية[2] والذي يعني الارتداد والانتكاس الحضاري، وبالتالي

(كسع).

١ـ **مسند أبي يعلى** ٣: ٤٥٨ ح١٩٥٧.

٢ ـ ينظر: ما أشار له حسن إبراهيم حسن في **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ٢: ٨.

الانكفاء على الدم والعرق والخضوع للمفاهيم والأعراف الجاهلية التي أبطلتها دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله. وعلى العموم لعبت عقيدة التوحيد الإسلامية دوراً كبيراً في المساهمة في توحيد القبائل العربية، لأنّ الإيمان بدين واحد أو عقيدة واحدة يخالف تماماً من كافّة الوجوه وشتّى المناحي اعتقاد كلّ قبيلة بإله خاصّ بها، فالتوحيد في العقيدة سوف يؤدّي بطريق الحتم واللزوم إلى صهر القبائل في بوتقة واحدة، أو حتّى على الأقلّ التقريب بينها و إزالة مشاعر التفرّد، وربّما النفور بما لا يستطيعه عامل آخر[١] فالتوحيد الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله والعقائد والمبادئ الإسلامية ألغت النظم القبلية أو كيّفتها مع تعاليم الدين الإسلامي، وحتّى العبادات اليومية التي كانت تمارسها القبائل تجبرهم على الابتعاد عن أجواء القبيلة، وتنزع متعبّديها انتزاعاً اضطرارياً عن رواسبهم وجذورهم التي شدّتهم نحو الضلالة.. فالحج والصلاة والزكاة والجهاد تفتح أذهان المسلمين وترفعهم، و تنزع بهم نحو أفق أوسع وأرحب، قد يتناسى فيه المسلم عالم القبيلة الضيّق الذي تشرنق به، فأصبح تدفع به بعوث الجهاد في مناطق أخرى ليس من السهل عليه أن يطأها في تحرّكه الجغرافي التقليدي، فالجغرافية الإسلامية له تعني الوصول لطرق ومساحات فيها ترتيب علاقات جهادية واجتماعية واسعة، وبالتالي إعادة النظر في مجمل ارتباطاته بالأصحاب الدمويين، لذا كانت تنازعه نفسه بين رواسب قديمة لا يمكنه نزعها بسهولة، وبين علاقات وأوضاع جديدة تخلق لديه شعوراً آخر يتّسع فيه مدار تفكيره ورؤيته للعالم.

وليس فقدان القائد الروحي وحده عاملاً لانبعاث العصبية القبلية وتجددها، فقد كان التنظيم الإداري الجديد للمسلمين من العرب وغير العرب الذين دخلوا مع المسلمين بالولاء، يتطلّب إعداد سجلّات لهم لضبط الناس الذين دخلوا

١ـ قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة: ١٠٨.

الإسلام والذن شاركوا بهذه الأعداد الغفيرة في الفتوحات، لذا أوجد الديوان على عهد عمربن الخطّاب لتدوين هذه الأعداد والسيطرة عليها، لذا عدّوا الدواوين عاملاً مساعداً في تقوية النظام القبلي و إثارته، فالمبدأ الذي سارت عليه الدولة في فرض العطاء هوالتقسيم القبلي الذي بدأ ببني هاشم، ثمّ الأقرب فالأقرب برسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا تساوى القوم في القرابة قدّم أهل السابقة ثمّ فرض للمسلمين على قبائلهم وسابقتهم في الإسلام والجهاد والبلاء، ففرض للمهاجرين أوّلاً ثمّ للأنصار، ثمّ لسائرالقبا ئل. وقد كان توزيع العطاء يتمّ وفقاً للأسس التالية:فضل بعض الناس على بعض. فضل السابقين في الإسلام على غيرهم. فضل المهاجرين من قريش على المهاجرين من غيرقريش. فضل عموم المهاجرين من المسلمين على الأنصار كافّة. فضل العرب على غيرهم من الأمم. فضل الصريح على المولى. فضل مضرعلى ربيعة. فضل الأوس على الخزرج[١] ولذا يعتقد بأنّه قد أدّى فرض نظام العطاء إلى تصنيف الناس بحسب قبائلهم وأصولهم، فنشط النسّابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها وأجذامها[٢] فتحددت معالم الرابطتين العدنانية واليمانية، كما تحددت معالم الأصول القبلية ضمن إطار هاتين الرابطتين، وكان لهذا التدوين أثره في عناية القبائل بأنسابها وحرصها على تدوينها، وأدّى ذلك إلى تعصّبها لنسبها واعتزازها به وميلها إلى القبائل التي تربطها بها رابطة النسب والقربى. وهكذا نرى أنّ وضع ديوان العطاء قد أدّى من طريق غيرمباشرإلى ظهورالعصبية في صورها المختلفة. وقد ظهرت بواكير العصبية الواسعة بين العدنانية والقحطانية منذ وقعة الجمل، وفي وقعة صفّين خاصّة، إذ كانت هذه الوقعة مظاهرة قبلية ضخمة، وأوّل احتكاك قبلي واسع النطاق يشهده العصرالإسلامي. وهذه العصبية للقحطانية أو العدنانية كانت

١ـ عبد الزهراء عثمان محمّد، **المعارضة السياسية في تجربة أمير المؤمنين عليه السلام**: ٤٧.

٢ـ جذم الشيء: أصله. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٢٦٣ (جذم).

تتجلّى في صفوف كلّ من الجيشين، فذكروا مثلاً أنّ بعض قبيلة عكّ كان يدعو قومه إلى الاستبسال في القتال كي لا تشمت بهم مضر، ولمّا دعا معاوية طائفة من رجال قريش أن يقتلوا فرسان عليّ عليه السلام ورؤساء جيشه البارزين فلم يصنعوا شيئاً، شمتت بهم اليمانية من أصحاب معاوية. وعقد معاوية في بعض أيّام الموقعة لرجال من مضر على اليمن فغمّ ذلك أهل اليمن، وكرهوا أن يتأمّر عليهم واحد من غير قومهم، وتحدّث بذلك شعراؤهم حتّى اضطرّ معاوية إلى إرضائهم. وظلّ الأمر هكذا على هذا المنوال، فلم يستطع الخلفاء أن يدفعوه عن أحداث الساحة أو ينجحوا في التقليل من حدّته، حتّى آل الأمر إلى الدولة الأموية فقالوا بأنّ سياسة بني أميّة كانت تعتمد إلى حدّ بعيد على إثارة العصبية والنعرات القبلية، لتشغل القبائل العربية بها فتلهى عن معارضة الحكم الأموي[1] وفي هذا القول شيء من الحقّ دون ريب. ومع هذا فقد كانت هناك جهود بذلت في عصر بني أميّة لمحاربة النعرة القبليّة وما يتّصل بها من الدعوة إلى العشائر والحميّة الجاهلية وأعمال الثأر الفردي والجماعي وغير ذلك. ولكن تيّار العصبيّة كان أقوى من أن توقف مسراه العاتي المندفع هذه المحاولات الفردية المحدودة النطاق، فلم يكن لها من الأثر إلّا الحدّ من سرعة اندفاعه.[2] وربّما تناهت العصبية القبلية إلى أحداث جزئية وفردية لايؤبه لها، ولكنّها قد تؤدّي إلى اضطرام فتن عظيمة لا يمكن التحكّم بها، أو وضع خاتمة ونهاية لها، كما جرى لأهل الكوفة في آخر خلافة عليّ عليه السلام فقد فسدوا، وكانوا قبائل متعددة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى فيقع به أدنى مكروه فيستعدي قبيلته، وينادي باسمها مثلاً: يا للنخع، أو يا لكندة، نداءاً عالياً يقصد به الفتنة و إثارة الشرّ، فيتألّب عليه فتيان القبيلة التي قد مرّ بها،

١ـ عدّ صالح الورداني الإسلام الأمويّ والسياسة الأمويّة امتداداً للحسّ والنظام القبلي الذي كان سائداً قبل الإسلام. **السيف والسياسة في الإسلام**: ١٦٣.

٢ـ ينظر: إحسان النصّ، **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: ١٩٠و١٩٨و٢٣٩.

وينادون:يا لتميم، يا لربيعة افيضربونه فيمرّ إلى قبيلة ويستصرخ بها، وتسلّ بينهم السيوف وتثور الفتنة، ولايكون لها أصل في الحقيقة ولا سبب يعرف إلّا تعرّض الفتيان بعضهم ببعض، وكثر ذلك منهم فخرج عليّ عليه السلام إليهم على ناقة فخطبهم الخطبة القاصعة[1] وممّا جاء فيها قوله عليه السلام :فاحذروا عباد الله عدوّ الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزّكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله. فلعمري، لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظنّ غير مصيب، صدّقه به أبناء الحميّة، و إخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية. [3]

النظام القبلي نظام العرب السياسي والاجتماعي

وكما كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية، فقد كانت كذلك الوحدة السياسية، إذ إنّها بمثابة دولة صغيرة، لها مقوّمات الدولة خلا عنصر الأرض الثابتة، وذلك بسبب تنقّلها وراء مصادر المياه والكلأ، والمقصود بالأرض الثابتة الحدود المرسومة التي لا تتعدّاها، فالواقع أنّه كان لكلّ قبيلة مستقرّ تتحرّك في أرجائه تتبع فيه موسم المطر ومنابت العشب، حتّى إذا انتهى الموسم عادت أدراجها إلى موطنها الأوّل. [4] و لمعرفة إدارة شؤون القبيلة قبل الإسلام والطريقة الديمقراطية التي سادت النظام القبلي المتمثلة بمجلس القبيلة، وما كان يدور فيه، وطريقة النقاش والشورى في أمور القبيلة كافة، لابدّ من التطرق إلى النظام القبلي، من مكوّنات القبيلة، علاقاتها السياسية الداخلية والخارجية، وطريقة انتخاب سيّد

١ـ **شرح نهج البلاغة**، لابن ميثم البحراني ٤: ٢٣٣.

٢ـ الحجر: ٣٩.

٣ـ **نهج البلاغة:** ٢٨٧ ضمن الخطبة القاصعة، رقم ١٩٢.

٤ـ **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية:** ١٦٢.

القبيلة، ومؤهّلاته، وواجباته، وحقوقه، لإعطاء صورة واضحة لمجلس القبيلة الذي تتجلّى فيه الشورى والديمقراطية والحرّية الفردية التي سادت النظام القبلي، ذلك النظام الذي كان ملائماً لطبيعة القبائل في جزيرة العرب قبل الإسلام، واستمرّ حتّى بعد أنّ وحّد الإسلام قبائل العرب وضمّ شتاتهم في دولة عربية واحدة.

فالقبيلة في النظام القبلي جماعة من الناس ينتسب جميع أفرادها، أو يعتقدون أنّهم ينتسبون إلى جدّ واحد مشترك، ويعتقدون أنّ رابطة الدم الواحد تجمعهم، ويسكنون عادة في منطقة واحدة، و إذا ارتحلوا ارتحلوا معاً وهم يحملون واجبات مشتركة في الدفاع عن القبيلة وفي دفع الدية. فالقبْيلة تتكوّن من مجموعة من الأسر تمثّل في اتجاه واحد مصلحة القبيلة المشتركة، والفرد في القبيلة لا يخضع للأسرة، و إنّما لهذه القبيلة، والرجل الذي يخرج على نظم القبيلة و إجماعها فإنّ أسرته لا تناصره، و إنّما عليه أن يلقى عقابه، وقد تنبذه القبيلة من بين ظهرانيها. وتبدو وحدة القبيلة وسيادة الروح الديمقراطية والشورى فيها بوجود سيّد يتولّى أمورها والنظر في شؤونها، ويشرف على مجلس القبيلة. ويتمّ اختيار السيّد بانتخاب حرّ بين الأفراد الذكور، لا بالوراثة، كما يستطيع سيّد القبيلة أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو إخوته أو أحفاده. وانتخاب الخلف لا يعني التعيين المطلق، إذ إنّ مجيء الابن بعد أبيه لا يعني الوراثة بالمفهوم الحديث، إذ يجب أن يتّصف الرئيس الجديد بمميزات تؤهّله للمنصب، لا بنوّته للرئيس السابق [١] وعرف العرب النظام القبلي منذ أقدم عصورهم، وجداول الأنساب مبنيّة كلّها على أساس أن النظام القبلي كان يسود قديماً بلاد العرب كلّها، باديتها وحاضرتها، إذ كان المجتمع العربي القديم مجتمعاً قبلياً صرفاً. ومن المحقق أنّ النظام القبلي كان نظاماً ملائماً لطبيعة بلاد العرب التي يغلب عليها طابع

١ـ خالد العسلي، دراسات في تاريخ العرب ١: ٦٠.

الجفاف، وتنتشر فيها الصحارى والبوادي. وقد احتفظ العرب طويلًا بهذا النظام، وحتّى بعد أن وحّد الإسلام قبائل العرب وضمّ شتاتهم في دولة عربية واحدة ظلّ العرب محتفظين بكثير من خصائص النظام القبلي، وظل الطابع القبلي هو الغالب على المجتمع العربي طوال العصر الإسلامي والأموي [١] وقد شهدت العصور الإسلامية الأولى تجاذبات واستقطابات للمواقف والرؤى طبقاً لهذا العامل القبلي، فحين طعن الخليفة عمر بن الخطّاب وأيقن الموت عهد اختيار خلافة الدولة الإسلامية إلى عدد من الصحابة، وأُسمّي هذا القرار السياسي والديني بالشورى، وكان أبرز الأعضاء فيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بين عفّان، وكان طلحة بن عبيد الله كارهاً لخلافة عليّ عليه السلام لما يعرف من حزم عليّ عليه السلام وعدله، وبالتالي ذهاب الفرصة التي يحلم بها في هذا العهد لو قدّر لعليّ عليه السلام الخلافة آنذاك، فوهب حقّه لعثمان بن عفّان، بعد أن أيقن أنّه سيكون صفر اليدين في هذا المؤتمر، وأنّ الناس لا يبدّلونه بأحد الرجلين، فأراد أن يدعم جانب عثمان في الصراع الحالي كرهاً منه بعليّ بن أبي طالب على حدّ تعبير المؤرّخين، وأدرك الزبير في الحال أنّ طلحة لم يقدم على هذا التصرّف إلّا بوحي من عصبيته وأحقاده فثارت في نفسه نزعة القرابة القريبة التي تشدّه إلى عليّ عليه السلام، في الوقت الذي يعلم فيه أنّ الأمر سوف ينتهي إلى غيره، فوقف وقال: وأنا أشهدكم على نفسي أنّي قد وهبت حقّي في الخلافة لعليّ بن أبي طالب، وبقي الصراع فيها بين أربعة من أهل الشورى، فوقف سعد بن أبي وقّاص وقال: لقد وهبت حقّي لعبد الرحمن بن عوف، وكلاهما من بني زهرة، وبقي في الساحة ثلاثة كلّ واحد منهم يمثل اثنين، فقال عبدالرحمن لعثمان وعليّ: أيّكما يخرج منها للآخر؟ فلم يجيبا على حدّ تعبير الراوي، فأخرج نفسه منها على أن يجعلها في أفضلهما، والتفت إلى عليّ و عثمان قبل أن يبتّ

١ـ إحسان النصّ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي: ٥٣.

بالأمر لأحدهما، وعرض على كلّ منهما أن يتولّاها شريطة أن يؤثر الحقّ و لا يتبع الهوى، ولا يخصّ ذا رحم ولا يألو الأمّة نصحاً، وردّد مقالته هذه عليهما، فوافق كلّ منهما على هذه الشروط. و يبدو أنّ عليّاًعليه السلام قد أحرجه بموافقته على شروطه، ومن غير المعقول أن يتنازل عن صهره عثمان و يسلّمها لعليّ بن أبي طالب، كما وأنّ سعداً لا يتنازل عن أخواله الأمويين مهما كانت الظروف، فاختلى عبد الرحمن بسعد بن أبي وقّاص مرّة و بالمسور بن مخرمة الزهري أخرى، و أدرك عليّعليه السلام أنّ خلوة سعد بعبد الرحمن للبحث عن مخرج يسهل لعبد الرحمن إعطاءها لعثمان، فقال له: يا سعد اتقوا الله الذي تسألون به و الأرحام، أسألك برحم النبيّ هذا من رسول الله و رحم عمّي حمزة منك أن لا تكون ظهيراً لعبد الرحمن [1] ولكن الأمور لم تجر وفق الشورى كما أرادها عمر، فأدخل عبد الرحمن شرطاً آخر يريد به إحراج عليّعليه السلام ونزع الخلافة من يديه حين قال له :تسير بسيرة الشيخين، فقال عليّعليه السلام:أعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، وبرأيي فيما لا نصّ فيه. و حين قال لعثمان هذا القول رضي به فقال :نعم، فبايعه عبد الرحمن وبايعه المهاجرون [2] وجاء في رواية أنّ عبد الرحمن بن عوف خرج وعليه عمامته التي عمّمه بها رسول الله صلى الله عليه وآله متقلّدا سيفه حتّى ركب المنبر فوقف وقوفاً طويلاً، ثمّ دعا بما لم يسمعه الناس، ثمّ تكلّم فقال:أيّها الناس، إنّي قد سألتكم سرّاً وجهراً عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إمّا عليّ و إمّا عثمان، فقم إليّ يا عليّ، فقام إليه عليّ فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال:هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟قال: اللهمّ لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي. فأرسل يده، ثمّ نادى قم إليّ يا عثمان، فأخذ بيده وهو في موقف عليّ الذي كان فيه

١ـ هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمّة الاثني عشر١: ٣٩٢.

٢ـ ينظر: تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ١٥٤.

فقال:هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟قال:اللهم نعم. فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، ثمّ قال:اللهم اسمع واشهد، اللهم إنّي قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان[١] والظاهر من هذه الرواية أنّ اختيار هذين الشخصين، أو الوقوف على هذين الشخصين لابدّ منه لاعتبارات كثيرة، منها كونهما كانا قريبي عهد بالنبيّ صلى الله عليه وآله، ولهما شرف المصاهرة للنبيّ صلى الله عليه وآله، وكونهما ينتسبان إلى أشرف بيتين في قريش، وهما يمتدّان إلى عبد مناف بن قصي باني مجد قريش. . ولكن الذي يلوح من هذه الرواية وغيرها أنّ الهوى الذي كان يسوق عبد الرحمن بن عوف هو العصبية نحو عثمان، ولكن هناك ما يمكن أن يقال هل السلطة التي جاءت بعد النبيّ صلى الله عليه وآله هي سلطة دينية سماوية كي يشترط عبد الرحمن بن عوف على عليّ عليه السلام أن يترسّم خطاها ولايحيد عنها، و إجابة هذا السؤال جاءت على لسان المؤرّخ الأزهري الشيخ محمّد الخضري الذي وصف السلطة التي جاءت بعد النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّها سلطة دنيوية اتّخذت تسمية لها وفقاً لظروف فقال: أوّل ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الإسلامية، وكان الرئيس يسمّى خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين، ثمّ ما زال مستعملاً ذلك لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء. وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم. . . فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية، وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنّة المعروفة، فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال، وقاسوا ما لا نصّ فيه على ما فيه نصّ، لما بينهما من التشابه. وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم، فإن اتّفقوا في الفتوى كان من المحتّم

١ـ تاريخ الطبري ٣: ٣٠١.

عليه أن يتبع رأيهم، وهذا ما يسمّى في عرف المسلمين بالإجماع، وإن اختلفوا في الفتية عمل الخليفة بما يرى من آرائهم، فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنّه منفّذ لأحكام الدين، فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون، وإنّما هي سلطان أساسه الدين[١] وبناء على هذا فإحراج عليّ عليه السلام بالسير وفق اجتهاد الآخرين، وكما في الشرط الذي أعلنه عبد الرحمن بن عوف أمام جمع المسلمين، جاء لإبعاده عليه السلام عن مسار الخلافة، وبالتالي كانت هناك خسارة كبرى لهم حدثت في التاريخ السياسي والديني، وقد دفعوا ثمن هذا الإبعاد في حياتهم السياسية والدينيّة .

فتضييع هذه الفرصة على المسلمين، بتأخير الحكومة العلويّة، هو الذي فتح باب الفتن والاضطرابات التي أدّت إلى قتل الخليفة عثمان بن عفّان الذي جاءت به العصبيّة القبلية. وربّما كان أعضاء الشورى أوفياء لعصبيّتهم التي لم تحفظ آصرة المودّة التي كانت تؤلّفها العصبيّات. ويكاد يتّفق العرب في نظامهم القبلي بأنّ الفرد في القبيلة لايخضع للأسرة، وإنّما يخضع للقبيلة، والرجل الذي يخرج على نظم القبيلة وإجماعها، فإنّ أسرته لا تناصره، وإنّما عليه أن يلقى عقابه، وقد تنبذه القبيلة من بين ظهرانيها. على أن القبيلة كلّها تشدّ أزر هذا الرجل لو أنّه اعتدى على رجل من قبيلة أخرى أو اعتدي عليه، إذاً لا بدّ من وجود رابطة قويّة تصل بين أبناء القبيلة الواحدة برباط وثيق، ألا وهي رابطة الدم الذي يجري في عروق جميع أفراد القبيلة. ولذا تعدّ القبيلة الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها النظام البدوي، على أنّ وحدة القبيلة لا يمكن إرجاعها إلى صلات القربى وحدها، فالقبيلة فيها الصرحاء، وهم الذين يعتقدون بأنّهم منحدرون من أصل واحد مشترك، وهو الجدّ الأعلى للقبيلة. والحلفاء:وهم الذين ليسوا منحدرين من الجدّ

١ـ الدولة الأموية، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: ٢٨٧.

الأعلى للقبيلة، ولا تربطهم بأفرادها رابطة الدم. وهناك في القبيلة أيضاً طبقة العبيد المسترقّين، من العرب ومن غيرهم[١] وبما أنّ النظام البدوي كان قائماً على أساس القبيلة، وهي جماعة من الناس ينتمون أو يزعمون أنّهم ينتمون إلى جدّ واحد مشترك انحدروا منه، ولذا كانوا يسكنون عادة في منطقة واحدة، و إذا انتقلوا ساروا سوية، وهم يحملون واجبات مشتركة في الدفاع ودفع الدية. ومع أنّ خير ما يميّز القبيلة عن غيرها هو اشتراك أفرادها في دفع الدية، إلّا أنّه من الصعب جدّاً تحديد عددها، والأرجح أنّ عددها يتوقّف على قدرتها على الدفاع عن نفسها، وعلى قابلية المراعي لإعاشة مواشيها. فالقبيلة التي تقطن في أرض ممرعة، يمكن أن يتزايد عدد أفرادها مع الاحتفاظ بوحدتها. أمّا إذا زاد عددها وعدد مواشيها عمّا يمكن أن تحتمله الأرض، فإنّه ينخزع منها بعضها، ويكوّنون لأنفسهم وحدة مستقلّة تتّخذ لها أرضاً خاصّة، وتكون بذلك قبيلة مستقلّة، إلّا أنّها تبقى متّصلة بالقبيلة الأمّ برابطة النسب التي تعتزّ بها، أمّا إذا كانت هذه المنخزعة صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بكيانها، فإنّها تندمج بالقبائل الأخرى، والغالب أنّها تفضّل الاندماج بأقرب القبائل نسباً منها. وهكذا فإنّ عدد القبائل غير ثابت، بل قد يزيد أو ينقص، وقد تظهر قبائل أصغر منها، إذا كانت كبيرة أو بانضمامها إلى قبائل أخرى إذا كانت صغيرة لا تستطيع الدفاع عن كيانها. ولا يمكن تحديد عدد أفراد كلّ قبيلة بالضبط، فبعض القبائل صغيرة جدّاً، كما أنّ هنالك قبائل كبيرة العدد، والغالب أنّ القبائل الكبيرة تقسّم أجزاء تدعى العشيرة والبطن والفخذ والفصيلة والرهط والحي، ولكن حتّى هذه الأقسام لا يمكن تحديدها بالضبط[١] ومن هذا فالقبيلة تشكّل مجتمعاً ودولة صغيرة لها نظمها

١ـ خالد العسلي، دراسات في تاريخ العرب ١: ٦٠.

١ـ تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية: ١٦١.

وقوانينها التي تنتظم بها روابطها وعلاقاتها الداخلية والخارجية. ولذلك يعدّ الانتماء إلى عشيرة أو قبيلة أو حلف هو حماية للمرء، وجنسيّة في عرف هذا اليوم، ولهذا صار إخلاص الأعرابي لقبيلته أمراً لازماً له محتّماً عليه. وعليه أن يدافع عن قبيلته دفاع الحضري عن وطنه، فالقبيلة :هي قومية الأعرابي، وحياته منوطة بحياة تلك القبيلة، ولهذا كانت قومية أهل الوبر قومية ضيّقة لا تتعدّى حدودها حدود القبيلة وحدود مصالحها وما يتّفق أهل الحلّ والعقد فيها عليه. ومن هنا صارت القبائل كتلاً سياسية، كلّ كتلة وحدة مستقلّة لا تربط بينها إلّا روابط المصلحة والفائدة والقوّة والضعف والنسب. والعادة انتساب كلّ قبيلة إلى جَدّ تنتمي إليه، وتدّعي أنّها من صلبه، وأنّ دماءه تجري في عروق القبيلة، وتتباهى به وتتفاخر، فهو بطلها ورمزها وعلامتها الفارقة التي تميّزها عن القبائل الأخرى. وليس ذلك بدعاً في العرب، بل نجد الأمم والشعوب الأخرى تنتمي إلى أجداد وآباء. فهيلين هو جدّ أهل دورس، ومنه أخذ الهيليون اسمهم هذا. وكان للرومان والفرس والهنود والرومان وللأوربيين أجداد انتموا إليهم، واحتموا بهم، وتعصّبوا لهم ونسبوا أنفسهم إليهم، على نحو ما نجده عند العرب والإسرائيليين وبقيّة الساميين. وفي التوراة، ولا سيّما أسفار التكوين منه، أبرز أمثلة على النسب، نجد فيها أنساب الأنبياء والشعوب، وأنساب بني إسرائيل [١] والعرب بقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم رتّبهم علماء الأنساب إلى مراتب عرف منها:الشعب، ثمّ قبيلة، ثمّ عمارة، ثمّ بطن، ثمّ فخذ، ثمّ فصيلة. فالشعب:النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة:مثل ربيعة ومضر، والعمارة: مثل قريش وكنانة. والبطن: مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ومثل بني هاشم وبني أميّة، والفصيلة: مثل بني أبي طالب وبني العبّاس. وجعل ابن الكلبي مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة. وأكثر علماء الأنساب يقدّمون الشعب

١ـ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ١ :٤٦٧.

على القبيلة. والظاهر أنّ هذه الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام، حيث ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع [١] والفكرة القومية هنا يراد بها التوسّع بالقرابة الدموية، أي عدم الوقوف والانتهاء على الرابطة الأضيق، وبعبارة أخرى يمكن لنا أن نقول هنا: بأنّ القومية تعني التدرّج بالعلاقات والمشاعر من المرتبة الدموية الأدنى إلى المرتبة والرابطة الأكثر تشعّباً. ومن هذه المراتب تكوّنت جماعات بشرية، صغرت أو كبرت، وربما اتّحدت في الدم أو تباعدت قليلاً، سكنت الحواضر أو البراري، فلا يمكن لها أن تحصر كيانها في دماء أو أصول تنتهي إليها، فقد حتّمت ظروف الحرب والغزو والهجرة والاختلاط الاجتماعي والاقتصادي، كحالة بشرية مألوفة، وبأيّ صورة كانت، ولأي سبب كان، من أن تختلط الأنساب والمياه والدماء لمعظم القبائل بدماء ومياه وأنساب قبائل أخرى، كأن يكون في الأسر أو السبي أو الغنائم التي تدخلها النساء بالضرورة، في غزو القبائل بعضها لبعض، أو من خلال جماعات العبيد المسترقّين الذين كانوا من العرب أو من الأمم الأخرى، أو ما يرد القبيلة من أفراد يدخلون في نسيجها من العرب وغيرهم، فسواء كانوا بعنوان موالي أو حلفاء، أو بعنوان مستجيرين، فالقبيلة تقبل هؤلاء وتدافع عنهم وتضمّهم إليها وتزوّجهم وتدخلهم في أنسابها. فالتجمّع القبلي بأيّ صورة أو مرتبة كان يتّسع ويتمدّد أو يتقلّص أحياناً، أو ربّما يتداخل وينصهر مع كيانات قبلية أخرى فيحصل هنا تمازج دماء شتّى في هذا الخليط الجديد الذي ينتظم كيان القبيلة في النسب الذي يرجع له الأفراد، فهم في كلّ الأحوال يتحرّكون وينتسبون لدولة مصغّرة لها عنوان قبيلة أو عشيرة أو فخذ أو بطن أو نحو ذلك، ولها بالضرورة رئيس ومجلس ينظّم شؤون أفرادها، وينظّم علاقاتها بالقبائل سلماً وحرباً، ويدفع عن

---

١ ـ نفس المصدر ١: ٥٠٩.

حدود هذه الجماعة غائلة الآخرين إن امتدّت إليهم الأيدي بالعدوان.

العصبية القرشيّة وابتداع الحمس

والقرشيون بقضّهم وقضيضهم وعبيدهم وأموالهم وبقايا حنيفيتهم، وحتّى أصنامهم التي عكفوا عليها، شكّلوامجتمعاً أو تكويناً اجتماعياً خاصّاً بهم وبأعرافهم ومثلهم الدينية وغير الدينية، وكذلك كان لهم لونهم الخاصّ في تجاراتهم وحركتهم الاقتصادية داخل وخارج الجزيرة العربية، فشكّلوا نقابة أو اتحاداً تجارياً أو دولة تجارية، إن جاز لنا التعبير، غاير ما تعارف عليه العرب من التكوين الاجتماعي القبلي الضيّق الذي كان عليه عموم العرب، فما حصل للقرشيين، من اتّحاد وتجمهر وتكتّل امتازوا به عن غيرهم، كان يشكّل قوّة وجبهة داخل الجزيرة العربية، ربّما كانت لهم ولغيرهم معاً مشكلة مع رياح التغيير والإرادة السماوية التي ترى رأياً لاينسجم مع التفكير القرشي الذي يرى ويفهم الدين بأنّه من مختصّات قريش، كما وقع الأمر لبني إسرائيل الذين عدّوا السماء والأرض وربّهما ملكاً لهم وحدهم ليس لعباد الله في ربّهم نصيب، فالخارج عن هذا العرف القرشي يعني لهم محنة ونهاية لسيادتهم وتسلّطهم على الجزيرة وأطرافها، وكأنّ القرشي كان يرى الكعبة ميراثاً له، وكأنّها صارت تابعاً له، على عكس تبعيته الحقيقية له. فالتفوّق القرشي أو الامتياز القرشي يعود إلى فضل مكّة وتميّزها عن سائر مناطق الجزيرة، فمكّة التي كانت مشرّفة من سالف الأزمان والأيّام يكون لها موقع ومقام يليق بها، فقد كانت مكّة لا تدين لدين الملوك[1] ولم يؤدّ أهلها إتاوة، وكانت تحجّ إليها ملوك

١ـ كانت قبائل البدو ترغب في الدخول تحت حماية إحدى الدول لتأمن على نفسها بسبب ما كان عليه أهل البادية من التنازع والتغازي والتخاصم، فكانت كلّ قبيلة تسعى في الانضمام إلى دولة تستنجدها أو تلجأ إلى جندها عند الحاجة، وقد يتسابق بعضهم إلى التقرّب منها للتفاخر بخدمتها، كما كان بنو يربوع يتفاخرون بردافة ملوك الحيرة. وكان لكلّ دولة من تلك

حمير وكندة وغسّان ولخم فيدينون للحمس من قريش ويزيدون في تعظيمهم، ويرون الاقتداء بآثارهم من الشرف والفرائض. وكان أهلها آمنين يغزون الناس ولايغزون، ويحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد، وقد ذكر الشعراء كلّ ذلك في شعرهم حين مدحوهم، قال الزبرقان بن بدر لرجل من بني عوف هجا أبا جهل وتناول قريشاً:

أتدري من هجوت أبا حبيب   سليل خضارم سكنوا البطاحا
وزاد الركب تذكر أم هشاما   وبيت الله والبلد اللقاحا

وممّا زاد من فضل مكّة وأهلها أنّهم كانوا متمسّكين بكثير من شريعة إبراهيم عليه السلام، ولم يكونوا كالأعراب الذين لا يوقّرهم دين، ولا يزينهم أدب. وكانوا يحبّون أولادهم، ويحجّون البيت ويقيمون المناسك، ويكفّنون موتاهم، ويغتسلون من الجنابة، ويتباعدون في المناكح من نكاح البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة وبعداً من المجوسيّة. وكانو يزوّجون بالصداق والشهود، ويطلّقون ثلاثاً، ولذلك قال عبد الله بن عبّاس، وقد سأله رجل عن طلاق العرب:كان الرجل يطلّق امرأته تطليقة ثمّ هو أحقّ بها، فإن طلّقها ثنتين فهو أحقّ بها أيضاً، فإن طلّقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها، قال الأعشى:

أيا جارتي بيني فإنّك طالقه   كذاك أمور الناس غاد وطارقه

وممّا زاد في شرفهم أنّهم كانوا يتزوّجون من أيّ قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك، ولا يزوّجون أحداً حتّى يشترطوا عليه أن يكون متحمّساً على دينهم، يرون أنّ

الدول صنائع ووضائع. والصنائع :من كانوا يصطنعونه من القبائل للغزو به. والوضائع: كالمشايخ. ومرّت برهة من الدهر كان فيها الانتماء إلى إحدى تلك الدول كالفرض الواجب، فمن لاينتمي إلى إحداها سمّوه الأحمس، والحمس الجمع. وأشهر الحمس في الجاهلية حمس قريش، فكانوا لقاحاً لايدينون للملوك. **العرب قبل الإسلام**، لجرجي زيدان ٢٨٣.

ذلك لايحلّ لهم ولا يجوز لشرفهم حتّى يدان إليهم وينقاد. والتحمّس: التشدد في الدين، ورجل أحمس، أي :شجاع. فحمّسوا خزاعة ودانت لهم إذ كانت في الحرم.[١] وهناك من يقول بأنّ خزاعة سمّيت خزاعة لأنّهم كانوا من سكّان الحرم فخزعوا عنه، أي أخرجوا عنه. ويقال: إنّهم من قريش انتقلوا بنسبهم إلى اليمن، وهم من الحمس. وقالوا: أحماس العرب :أمهاتهم من قريش، وكانوا يتشدّدون في دينهم، وكانوا شجعان العرب لايطاقون[٢] يقول ابن الأثير:الحمس جمع الأحمس، هم قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيس، سمّوا حمساً لأنّهم تحمّسوا في دينهم، أي تشدّدوا. والحماسة:الشجاعة، كانوا يقفون بمزدلفة ولايقفون بعرفة ويقولون:نحن أهل الله، فلا نخرج من الحرم. وكانوا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون[٣] وروي عن عائشة أنّها قالت :كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمّون الحمس. وكان سائر العرب يقفون بعرفة، فلمّا جاء الإسلام أمر الله عزّوجلّ نبيّه ﷺ أن يأتي عرفات فيقف بها ثمّ يفيض منها، فذلك قوله عزّوجلّ ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾[٤] وروى أبو أسامة عن هشام عن أبيه قال:كانت العرب تطوف

١ـ ينظر: **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، للآلوسي ١: ٢٤٢.

٢ـ **لسان العرب** (حمس).

٣ـ **النهاية** ١: ٤٤٠(حمس). يقول ابن دريد: الحمس التشدّد في الأمر. وبه سمّيت الحمس، قريش وخزاعة وبنوعامربن صعصعة وقوم من بني كنانة، لأنّهم تحمّسوا في دينهم، أي تشدّدوا فسمّوا الحمس. **ترتيب جمهرة اللغة** ١ : ٤٤٨(حمس)

٤ـ البقرة :١٩٩. وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنّه قال:كانت قريش تقول:إنّما نحن الحمس لا نخلف الحرم ومزدلفة، فأمروا أن يبلغوا عرفات. ينظر: **تفسير مجاهد** ١: ١٠٣، وروي عن جابر قال:كانت العرب يفيض بهم رجل يقال له:أبوسيّارة على حمار له، فلمّا حجّ رسول الله ﷺ وقفت قريش مواقفها فكانت تقول:نحن الحمس. فخرج حتّى وقف بعرفات فهوقوله تعالى ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾. **مسند أبي يعلى** ٣: ٤٣٦ ح ١٥٩.

بالبيت عراة، إلّا أن تعطيهم الحمس ثياباً، فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء. وكانت الحمس لايخرجون من المزدلفة، وكان الناس كلّهم يبلغون عرفات. وكان الناس يفيضون من عرفات، وكان الحمس يفيضون من المزدلفة يقولون: لانفيض إلّا من الحرم، فلمّا نزلت الآية رجعوا إلى عرفات [١] وفي حكاية عن قريش رواها القرطبي أنّهم كانوا يقولون:نحن قطين الله، فينبغي أن نعظّم الحرم، ولا نعظّم شيئاً من الحلّ [٢] وقول قريش هنا:نحن قطين الله. أي نحن سكّان حرمه، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره:نحن قطين بيت الله وحرمه. [٣] ومن هذا الدليل اللفظي ظهر هناك من يرى بأنّ مصطلح الحمس يرتبط في دلالته من إطلاق هذه اللفظة بمعنى القطن والإقامة، ومعناها ـ أي الحمس ـ هنا: ابن البلد وابن الحرم والوطني المقيم، والذي ينتمي إلى الكعبة والحرم، فهو امتياز لأبناء الوطن ولأهل الحرمة وولاة البيت وسكّان مكة وقاطنيها. [٤] ويبدو أنّ معناه الذي فسّر لهم هنا أظهر عصبية لهم لم تكن جديدة، عزّزوا بها موقعهم الاجتماعي والديني، قال ابن إسحاق:كانت قريش ـ لا أدري قبل بناء الكعبة أو بعده ـ ابتدعت رأي الحمس، رأياً رأوه وأداروه بينهم، فقالوا:نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت، وقاطنو مكة وسكّانها، فليس لأحد من العرب مثل حقّنا، ولا مثل منزلتنا، ولا يعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلاتعظّموا شيئاً من الحلّ كما تعظمون الحرم، فإنّكم إن فعلتم ذلك استخفّت العرب حرمتكم، وقالوا:قد عظّموا من الحلّ مثل ما عظّموا من

١ـ **صحيح مسلم** ٢: ٨٩٣ ح١٢١٩ من كتاب الحج.

٢ـ **الجامع لأحكام القرآن** ٢: ٤٢٧.

٣ـ ينظر: **لسان العرب** (قطن). قال ابن دريد:قطن الرجل بالمكان يقطن ـ بضمّ الطاء وكسرها ـ قطوناً، إذا أقام به، فهو قاطن وقطين. وقطين الرجل:خدمه وحشمه. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ١٤٩(قطن).

٤ـ أحمد ابراهيم الشريف، **دور الحجاز في الحياة السياسية العامة**: ٣١.

الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يقرّون ويعرفون أنّها من المشاعر والحج ودين ابراهيم عليه السلام، فيرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها، إلّا أنّهم قالوا: نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظّم غيرها[١] وعلى المشهور الحمس هم:أهل الحرم، ثمّ جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحلّ و الحرم مثل الذي لهم بولادتهم إيّاهم، يحلّ لهم ما يحلّ لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك، ثمّ ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن فقالوا :لا ينبغي للحمس أن يأقطوا الأقط، ولا يسلأوا السمن[٢] وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولايستظلّوا إلّا في بيوت الأدم ما داموا حرماً، ثمّ رفعوا في ذلك فقالوا:لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحلّ في الحرم إذا جاءوا حجّاجا أو عمّاراً، ولايطوفوا بالبيت إذا قدموا أوّل طوافهم إلّا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا شيئاً منها طافوا بالبيت عراة، فإن تكرّم منهم متكرّم من رجل أو امرأة، ولم يجد ثوباً من ثياب الحمس، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحلّ، ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثمّ لم ينتفع بها ولا يمسّها ولا أحد غيره أبداً. وكانت العرب تسمّي تلك الثياب اللقى، فحملوا العرب على ذلك فدانت به، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها، فأطافوا بالبيت عراة، وأخذوا بما شرّعوا لهم من ذلك، فكان أهل الحلّ يأتون حجّاجاً وعمّاراً، فإذا دخلوا الحرم وضعوا أزوادهم التي جاءوا بها وابتاعوا من طعام الحرم والتمسوا ثياباً من ثياب الحرم، إمّا عارية و إمّا بإجارة، فطافوا فيها، فإن لم يجدوا طافوا عراة، أمّا الرجال فيطوفون عراة، وأمّا النساء فتضع إحداهنّ ثيابها كلّها إلّا درعاً تطرحه عليها ثمّ تطوف فيه، فقالت امرأة من العرب،

١ـ في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق :نعظّمها نحن الحمس.

٢ـ يقال: سلأ السمن:طبخه وعالجه فأذاب زبده، وسلأ السمسم:عصره فاستخرج دهنه. لسان العرب (سلأ).

وهي كذلك تطوف بالبيت:

اليـوم يبـدو بعضـه أو كلّـه   ومـا بـدا منـه فـلا أُحلّـه

ومن طاف منهم في ثيابه التي جاء فيها ألقاها فلم ينتفع بها هو ولا غيره، فقال قائل من العرب يذكر شيئاً تركه لا يقربه وهو يحبّه:

كفى حزناً كرّي عليها كأنّه   لُقًى بين أيدي الطائفين حريم

يقول: لا تمسّ. فكانوا كذلك حتّى بعث الله تعالى محمّداً نبيّه صلى الله عليه وآله.[١] وقد أشار ربّ البيت والبلد الذي قام فيه بيته، في القرآن الكريم، إلى تقديس القرشيين واحترامهم لمكّة ولبيته الحرام، وهم لا يرون حرمة لنبيّه الذي بعثه رحمة لهم وللخلق فقال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[٢] فيروي الشيخ الطبرسي في هذا الخصوص بأنه قيل في معناه: لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ فيه منتهك الحرمة، مستباح العرض لا تحترم، فلم يبق للبلد حرمة حيث هتكت حرمتك، عن أبي مسلم، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام فقال: كانت قريش تعظّم البلد وتستحلّ محمّداً صلى الله عليه وآله فيه، فقال: لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد. يريد أنّهم استحلّوك فيه فكذّبوك وشتموك، وكانوا لا يأخذ الرجل منهم قاتل أبيه، ويتقلّدون لحاء الشجر فيأمنون بتقليدهم إيّاه، فاستحلّوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يستحلّوا من غيره، فعاب الله ذلك عليهم.[٣] وجاء في رواية نقلها السيّد هاشم البحراني عن الصادق عليه السلام قال: . . فبلغ من جهلهم أنّهم استحلّوا قتل النبيّ صلى الله عليه وآله وعظّموا أيّام الشهر حيث يقسمون به فيفون[١] ويقول الشيخ عليّ بن إبراهيم في

١ـ السيرة النبوية، لابن إسحاق ١: ١٤٨ وسيرة ابن هشام ١: ٢١١.

٢ـ البلد: ١ـ٣.

٣ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠: ٤٩٣.

١ـ البرهان في تفسير القرآن ٤: ٤٦٢ ح١.

تفسير هذه الآيات: كانت قريش لا يستحلّون أن يظلموا أحداً في هذا البلد ويستحلّون ظلمك فيه[١] فالقيم والأعراف التي تعارفوا عليها وضعت لهم موانع وحواجز، أو بعض المبادئ الأخلاقية والدينية التي يأمن بها الإنسان القرشي وغير القرشي، إلّا أنّ النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله عاش بينهم مقهوراً غير آمن على نفسه، ولم تتناهى عداوتهم معه حين خرج من بين أظهرهم، بل ظلّوا يلاحقونه ويعدّون الجيوش لاستئصاله، وانتقلت عداوتهم إلى عشيرته وأهل بيته من بعده، فهذه كانت من معايب قريش الكبرى، بل هي مشكلة وأزمة كبرى ظلّت الدولة والأمّة الإسلامية تعاني منها، و تلقي بظلالها على مجمل الأحداث في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، وبعد انتقاله إلى الدار الآخرة، وانعكس أثر هذا الأمر في مجمل تاريخ المسلمين السياسي الذي امتلأ بالعنف والحروب والفتن. فقريش الأوائل الذين اصطفّوا مع قصي كانوا غير قريش الأبناء، فقريش الأصل كانت تعني الشهامة والنخوة ومساعدة الضعيف ونبذ الظلم، وفيها بقيّة من الحنيفية الإبراهيمية التي تجلّت بهاشم وعبد المطّلب، ولذلك كانت هناك صورة مشرقة لقريش في حفظ الحرمة ومراعاة حقوق الآخرين واحترامها، واحترام قدسية البيت، أمّا الأجيال اللاحقة فكانت تعني قريش عبدة الأصنام، وأهل المصالح والتجارة والأرباح، والتسلّط على الضعفاء وقهرهم، ومظاهر الأبّهة، فبهتت صورة قريش الأولى من قسوة وجفاء هؤلاء الأبناء الذين غفوا على ماض ولّى ولم يعد، فظلّوا يجترّون الأحلام وما كان عليه الأجداد من المجد، وكأنّ صلاح الآباء يورث لهؤلاء صكّ شرف وأمان من عاديات الزمن لهم. وما جرى للقرشيين هو نفسه ما جرى لليهود الذين كانوا يعتبرون صلاح يعقوب وموسى وهارون وسليمان وداود عليهم السلام كافياً لهم فأصابهم الغرور، وظنّوا أنّ الله معهم حتّى في كفرهم وظلالهم فحللوا حرام الله وحرّموا حلاله،

١ـ تفسير القمّي ٢: ٤٢٠.

بل صاروا مصدر فتنة وقلق و إزعاج للآخرين، فسلّط الله عليهم بختنصّر الذي حاربهم وغزاهم في أرضهم المقدّسة وأخرجهم منها أسارى وأذلّهم، فكانوا يتوسّلون إلى أنبيائهم وعلمائهم ليخرجهم من ذلّتهم فكشف الله بعض ما بهم، ولكنّهم طغوا وعادوا إلى ضلالهم القديم، يقول الطبري:عمّرت بنوإسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس يحدثون الأحداث، ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذّبون، وفريقاً يقتلون حتّى كان آخر من بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهم السلام. . فلمّا رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا، (وبعض الناس يقول:وقتلوا زكريا) ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خردوس فسار إليهم بأهل بابل حتّى دخل عليهم الشام. . وكانت الوقعة الأولى عليهم هي بختنصّروجنوده ثمّ ردّ الله لهم الكرّة عليهم، ثمّ كانت الوقعة الأخيرة وقعة خردوس وجنوده، وهي كانت أعظم الوقعتين، فيها كان خراب بلادهم، وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم. .[1] وهكذا يكررون خطيئاتهم ويبعث الله عليهم من يؤدّبهم ويردّهم إلى الصواب والصلاح فلا يتّعظون ولا يرتدعون. ويمضي بهم الزمان وهم غافلون لاهون إلى أن بعث الله نبيّنا المصطفى المختار الذي بشّرهم به أنبياؤهم وأحبارهم، فما زادهم هذا إلّا طغياناً وعتوّاً، بل ظلّوا يحوكون الدسائس والمؤامرات على الذين رفعوا راية التوحيد باسم التوحيد، وأعلنوا الحرب على الذين انضمّوا إلى الدين الجديد الذي جاء به النبيّ المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله باسم هارون وموسى عليهما السلام.

ويصف الباحث جعفر الكشفي الصورة العامّة لليهود بالقول:لقد أفشى القرآن ببيانه المعجز نوايا اليهود الفاسدة، وكشف استبطانهم الكفروالشرك، وقام بفضح حيلهم في مواجهة النبيّ المبعوث وأتباعه المسلمين. كما كشف عن ميولهم إلى

١ـ تاريخ الأمم والملوك ١: ٤٢٢ و٤٢٤.

أكل الحرام والربا والسحت، وأصرّعلى بيان خياناتهم ونقضهم للعهود والمواثيق التي أخذت عليهم، كما قام بفضح آبائهم الذين خانوا دينهم وكتموا الحقائق وقاموا بتحريف الكتب السماوية في القرون الماضية وهم على آثارهم يقتدون. . وليس من العجب أن يسهم ذلك الفضح في عداء أكثر اليهود للرسول ﷺ ودعوته. ثمّ يشيرإلى وجه آخر للصورة فيقول:كما كان له السهم الأكبر في إيمان البعض الآخر من المتنوّرين والعلماء العارفين من بينهم. ثمّ يصل الحديث ببيانه الأوّل فيقول:تجد في القرآن أصدق الحديث عن دأب اليهود في مناهضة الرسول ﷺ والوقوف بوجهه والتدبير له ومخالفته ومنازعته، فهو يحكي عن مواقفهم المعادية الثقافية والسياسية والعسكرية، و إن كان الكلام في أكثر الموارد كلّيا بنحو الإجمال، ولكن يمكن استنباط بعض الجزئيات والوقوف عليها. ولم يترك القرآن الإشارة إلى ما أصابهم والنتائج التي صاروا إليها من أجل اعتبار الآخرين ولتتمّ الحجّة على الخلق.[١] وليس من المستبعد أن يكون النسل القرشي الذي عايش النبيّ ﷺ هو المعني بالعبرة في القصص القرآنية التي أنزلها الله على نبيّه، فكانت تحكي تجربة بطر الأبناء وطغيانهم وعتوّهم وجهلهم ووثنيتهم التي تعبّدوا بها وأخذوا بها سنّة وشريعة، فأبدلت طغاتهم وكبراؤهم شرائع التوحيد والحنيفية والصلاح وتركته جانباً، وعكفت جموعهم على عبادة الأحجار والأشجار، وصارت الأموال التي اقترفوها قبلتهم ومنتهى آمالهم، فقصص القرآن الكريم وأخباره عن بني إسرائيل الأوائل الذين ربّما كانوا مع يعقوب وموسى عليهما السلام كانت تحكي بداية توحيد وصلاح في جماعة رائدة صالحة، كانوا من الذين نالوا درجة في ما مضى من الزمان الأوّل أشار لها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي**

١ـ الرسول المصطفى واليهود: ٨٨ و٨٩.

أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١] فبنو إسرائيل الأوائل الذين فضّلوا هم غير بني إسرائيل الذين بدّلوا القول الحسن بقول السوء، فهبطت درجتهم ومنزلتهم، وربّما كان وضعهم يشاكل الوضع الذي كان عليه أبناء قريش الذين مدّوا عيونهم نحو الآباء الأوائل والذين يمتدّون بنسبهم القريب إلى إسماعيل و إبراهيم عليهما السلام، فكانت تجري في عروق آبائهم بقايا الحنيفية الإبراهيمية، ولكن الصلاح والفلاح الذي كان عليه الأجداد قد آل في بطون الأبناء إلى الشرك والنفاق والغرور والصلف والقسوة والطغيان. وربّما كان عمر بن الخطّاب متفهّماً للغرور القرشي والذي يشكّل مصدر إزعاج للدولة ولحكمه، وربّما لبقيّة المسلمين من غير قريش، فيروى عن الشعبي بأنّ عمر حصر القرشيين بالمدينة وقال لهم:إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمّة انتشاركم في البلاد، فإن كان الرجل يستأذنه في الغزو، وهو ممّن حصر في المدينة من المهاجرين، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكّة فيقول: قد كان لك في غزوك مع النبي ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم أن لا ترى الدنيا وتراك، فلمّا ولي عثمان خلّى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس.[٢] وروى الطبري عن الحسن البصري أنّه قال: كان عمر بن الخطّاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلّا بإذن وأجل، فشكوه فبلغه فقام فقال:ألا إنّي قد سننت الإسلام سنّ البعير يبدأ فيكون جذعاً ثمّ ثنيّاً ثمّ رباعياً ثمّ سديساً ثمّ بازلاً، ألا فهل ينتظر بالبازل إلّا النقصان، ألا فإنّ الإسلام قد بزل، ألا و إنّ قريشاً يريدون أن يتّخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأمّا وابن الخطّاب حيّ فلا، إنّي قائم دون شعب الحرّة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار.[١]

١ـ البقرة :٤٧.

٢ـ كنز العمّال ١٤: ٧٦ ح٣٧٩٧٨.

١ـ تاريخ الأمم والملوك ٣: ٤٢٦.

وكأنّ انتشار رجالات قريش في أوساط المسلمين يكون باعثاً لإثارة عدد كبير من المشاكل والفتن والاضطرابات، و من المؤكّد أنّ بعض الجماعات والكتل التي كانت تنتسب لقريش، كانت تشابه جماعات المصالح في أزماننا، والتي تسعى إلى ترتيب الأمور واستثمارها وتوجيهها وفقاً لمنافعها ومصالحها الاقتصادية التي تعنيها وحدها دون النظر للعامّة، والحديث عن المبادئ والقيم والاعتبارات يتكيّف وفقاً لما ينسجم مع مصالح هذه الجماعة والكتلة الطامحة، فتتخذ الدين غطاءاً ساتراً، لذا حاول عمر، نظراً لخبرته ومعرفته بعيوب قريش كونه واحداً منهم، إبعاد رجالات قريش عن ساحة المسلمين ووضعهم تحت مراقبته للحدّ من سطوتهم وشوكتهم، لأنّ أحلامهم وآمالهم الكبيرة كانت تهدّد الدولة الناشئة وتهدّد حكومة عمر نفسه ، وربّما تطاولوا على وحدة المسلمين ومزّقوهم، فالحلم القرشي الجديد اتّخذ لباس الإسلام الذي قد تحوّل إلى مشكلة وفتنة تعصف باستقرار الدولة الإسلامية وتضعفها، وقد ظهرت أعاصير الفتن في عهد عثمان لتمتدّ إلى خلافة الإمام عليّ عليه السلام. وهناك من كان يدرك الفتنة القرشيّة التي زحفت بثقلها و إعصارها إلى العصر العلوي، ولعلّ عبد الله بن حنش الخثعمي الذي ساقته الأقدار إلى الشام قد أدرك هذه الفتنة ووعاها، فقد نقل نصر بن مزاحم المنقري أحاسيس هذا الرجل قائلاً: حدّثنا أبو علقمة الخثعمي أنّ عبد الله بن حنش الخثعمي رأس خثعم مع معاوية، أرسل الى أبي كعب رأس خثعم مع عليّ عليه السلام قائلاً له : أن لو شئت لتواقفنا فلم نقتتل، فإن ظهر صاحبك كنّا معكم، و إن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضاً. فأبى أبو كعب ذلك، فلما التقت خثعم و خثعم ـ أي خثعم العراق والشام ـ وزحف الناس بعضهم إلى بعض، قال رأس خثعم الشام لقومه: يا معشر خثعم، قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادعة صلة لأرحامهم، وحفظاً لحقّهم، فأبوا إلّا قتالنا، فقد بدؤونا بالقطيعة فكفّوا أيديكم

عنهم حفظاً لحقّهم أبداً ما كفّوا عنكم؛ فإذا قاتلوكم فقاتلوهم. فخرج رجل من أصحابه فقال: إنّهم قد ردّ وا عليك رأيك و أقبلوا يقاتلونك. ثمّ برز فنادى: رجل لرجل يا أهل العراق. فغضب رأس خثعم من أهل الشام، فقال: اللهم قيّض له وهب ابن مسعود ـ وكان رجلاً من خثعم من أهل الكوفة، و قد كانوا يعرفونه في الجاهليّة، لم يبارزه رجل قطّ إلّا قتله ـ فخرج إليه وهب بن مسعود فحمل على الشاميّ فقتله، ثم اضطربوا ساعة فاقتتلوا أشدّ القتال، وأخذ أبو كعب يقول لأصحابه: يا معشر خثعم: خدّموا. وأخذ صاحب الشام يقول: يا أبا كعب، الكلّ قومك فأنصف! فاشتدّ قتالهم، فحمل شمر بن عبد الله الخثعمي من أهل الشام على أبي كعب رأس خثعم الكوفة فطعنه، فقتله، ثمّ انصرف يبكي و يقول: رحمك الله يا أبا كعب، لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمسّ بي رحماً منهم وأحبّ إليّ نفساً منهم. ولكن والله ما أدري ما أقول، ولا أرى الشيطان إلّا قد فتننا، و لا أرى قريشاً إلّا قد لعبت بنا [1]

وكأنّ عنوان قريش صار غاية أمنية وسياسية ودينية، لا تعني غير الريادة والسيادة واهتبال الفرص، فكلّ حركة أو موقف يكون من القرشي له ثمنه ودلالته، وينقل ابن دحية الكلبي صورة كانت في حرب صفّين تؤدّي هذا المعنى فيقول:كان فارس معاوية الذي يعدّه للمبارزة مولى له يقال له:حريث، وكان يلبس سلاح معاوية، و إنّ معاوية قال له: يا حريث اتق عليّاً ثمّ ضع رمحك حيث شئت. فقال له عمرو بن العاص:إنّك، والله، يا حريث لو كنت قرشيّاً لأحبّ معاوية أن تقتل عليّاً، ولكن كره أن يكون لك حظّها، فإن رأيت منه فرصة فاقتحم عليه. فلمّا خرج الناس إلى القتال وتصافحوا، خرج عليّ عليه السلام أمام أصحابه، قال يحيى الجعفي عمّن روى: خرج حريث مولى معاوية يوم صفّين فدعا عليّاً عليه السلام إلى المبارزة فقال:هلمّ يا أبا الحسن إلى المبارزة، فخرج إليه وهو يقول:

١ـ وقعة صفين: ٢٥٧.

أنـا علـيّ وابـن عبـد المطّلـب　　　أنـا وبيـت الله أولـى بالكتـب

أهـل اللـواء والمقـام والحجـب　　　نحـن نصـرناه علـى جـلّ العـرب

ثمّ حمل عليه عليّ عليه السلام فطعنه فدقّ ظهره[١] وفقد حلمه وأمله بأن يحظى بحظّ كبير خدعه به عمرو بن العاص. وربّما كان عمرو بن العاص ومن التحق به من القرشيين يعتقدون بأنّ الجبهة العلوية كانت تحمل نفس المشاعر اللاإسلامية الضيّقة، وكذلك كان يعتقد معاوية بأنّ الشعور القرشي الضيّق الذي كان عليه بنو أميّة ما زال يضرب في عروق بني هاشم فكتب إلى عبد الله بن عبّاس:أمّا بعد، فإنّكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفّان، حتّى إنّكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه، واستعظامهما ما نيل منه، فإن يكن ذلك لسلطان بني أميّة فقد وليها عديّ وتيم، فلم تنافسوهم، وأظهرتم لهم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأكلت هذه الحروب بعضنا من بعض حتّى استوينا فيها، فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم، وما آيسكم منّا آيسنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان، وخشينا دون ما وقع، ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حدّ أمس، ولا غداً بأحدّ من حدّ اليوم، و قد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وأبقوا على قريش، فإنّما بقي من رجالها ستّة، رجلان بالشام، و رجلان بالعراق، و رجلان بالحجاز، فأمّا اللذان بالشام فأنا و عمرو، و أمّا اللذان بالعراق فأنت و عليّ، و أمّا اللذان بالحجاز فسعد و ابن عمر، و اثنان من الستّة ناصبان لك، واثنان واقفان فيك، وأنت رأس هذا الجمع اليوم، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنّا إليك أسرع منّا إلى عليّ [١] وكأنّ عليّاً عليه السلام وابن عبّاس وغيرهما قد انساقا في عصبيّة قرشيّة جديدة رآها معاوية وعمرو بن العاص قد

---

١ ـ أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفّين: ١٢٠.

١ ـ نفس المصدر ٤١٤.

اختزلت في هؤلاء الأشخاص، فشخص مثل معاوية لايهمّه الأخوّة الإيمانية أو الرابطة الجهادية، أو أيّ رابطة أخرى، فانهالت فتنه ومؤامراته، وكان عمرو بن العاص خير ناصر ومعين ومؤازر لموجات الفتن التي هبّت على أمصار المسلمين وقراهم، فتلاطمت أمواج الحروب واشتعلت النيران وعلا دخانها وقتامها لتنحر أبناء البيت الواحد والقبيلة الواحدة، والمصر الواحد، والقرية الواحدة بعضهم يطعن بعضاً ويمزّق أشلاءه، ابتدأت بالجمل وهاهي صفّين تبتلع الرجال، وفي مشاهد حرب الشام كانت وقفت القبائل بعضها قبال بعض تتهاوش الرماح والسيوف أبناء الأب الواحد في لوحات دامية خضّبتها السيوف القاطعة من رؤوس المسلمين الموحّدين، فكانت الفتن التي أرادها وأجّجها عدّة من عتاة قريش، كان معاوية بن أبي سفيان واحداً منهم، تمزّق القبيلة الواحدة وتشتتها، بل البيت الواحد، وتقطع أواصر المودّة والرحم، التي كانت تجمع بيوت المسلمين وقبائلهم، لتشتعل أوار الفتن والحروب . . وقد أبان الأشتر هذا بقوله في خطبته بقناصرين حين قال: الحمد لله الذي خلق السماوات العلى ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**﴾[1] أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء حمداً كثيراً بكرة وأصيلاً، من يهده الله فقد اهتدى، ومن يضلل الله فقد غوى. أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالصواب والهدى، وأظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، صلّى الله عليه وآله وسلّم. ثمّ كان ممّا قضى الله وقدّر أن ساقتنا المقادير إلى هذه البلدة من الأرض، ولفّ بيننا وبين عدوّنا، فنحن بحمد الله ونعمته ومنّه وفضله قريرة أعيننا، طيّبة أنفسنا، ونرجو في قتالهم حسن الثواب، والأمن من العقاب، معنا ابن عمّ نبيّنا، وسيف من سيوف الله، عليّ بن أبي طالب، صلّى مع رسول الله ﷺ، لم يسبقه

١ـ طه : ٥و٦.

بالصلاة ذكر حتّى كان شيخاً؛ لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة. فقيه في دين الله، عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل، وصبر جميل، وعفاف قديم. فاتّقوا الله، وعليكم بالحزم والجدّ، واعلموا أنّكم على الحقّ، وأنّ القوم على الباطل يقاتلون مع معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدريّ، ومن سوى ذلك من أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله أكثر ممّا معكم، رايات قد كانت مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله. فما يشكّ في قتال هؤلاء إلّا ميّت القلب. فإنّما أنتم على إحدى الحسنيين: إمّا الفتح، و إمّا الشهادة. عصمنا الله و إيّاكم بما عصم به من أطاعه واتّقاه، وألهمنا و إيّاكم طاعته وتقواه، وأستغفر الله لي ولكم[1] وهكذا تتساوق الفتن ويعلو دخانها ولهيبها لتمتدّ إلى حقب زمنية متطاولة حيّرت المسلمين وأوقعتهم في شكّ وريبة، لم ينج منها إلّا من أوتي بصيرة وحظّاً عظيماً، وكان الأشتر ممّن رزق هذا الحظّ فانبرى في جهاده مع الجبهة العلوية لايتردّد ولايخشى أحداً، ولكن أنّى للآخرين هذا الوعي والبصيرة، فتراهم تائهين بين الفرق والعصائب والجماعات الضالّة والدراهم والآمال التي يلوّح بها معاوية، فانسابت لجبهة الباطل جماعات انخدعوا بما زيّن لهم الشيطان، فتصاعدت وعلت أصوات النفاق والشقاق لتنخر في جسم الدولة العلوية الناهضة لتنطلق وتنقدح شرارات الفتنة مرّة أخرى، ومن ثمّ تسري وتمتدّ الفتنة إلى عصر وخلافة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الذي واجه القرشيين، ومن كان على هواهم في صفوف جيشه وجيش أهل الشام، الذين كانوا يرون مصلحتهم ووضعهم الشخصي والاقتصادي فوق كلّ الاعتبارات، وعاضدتهم في هذه الفتن المستعرة عشائرهم وأتباعهم وعبدانهم ومواليهم، وقد تنبّه الحسن عليه السلام لذلك فآثر الموادعة والنأي عن هؤلاء الذين أوقدوا نيران العصبية وفرّقوا جماعات المسلمين بشهواتهم

١ـ وقعة صفّين: ٢٣٨.

ومصالحهم التي لا ترتضي باليسير.

وكانت إلى جانب هذه المشكلة السياسية التي واجهها عليّ عليه السلام، وامتدّت إلى عصر ودولة الحسن عليه السلام، فتخبّط بها المسلمون وتاهوا في فتنتها مشكلة أخرى ظلّ المسلمون يدورون حولها، هي العصبية العشائرية والقومية، والانكفاء على الدم والأصل والأرومة، وكانت قريش وشأنها شأن الآخرين تغذّي هذا الشعور الطافح وتضرم فيه نار الشرك والوثنية القديمة. وصار هذا الشعور الجديد القديم للقرشيين وكأنّه معلم مميّز لهم، انعكس بشكل جلي في التعامل مع الذات والكيان البشري الآخر الذي لمس ما للقرشيين من زهو وغرور أرداهم في العناد والضلالة فيما سلف منهم في أوّل الدعوة الإسلامية في مواجهة النبيّ الكريم الذي انبثق منهم، فرفضوه لاعتبارات شتّى منها: أنّه يتيم قريش، وأنّه لم يكن من موسري قريش. . وتشبّث أكثر الباحثين برفض قريش له صلى الله عليه وآله لأنّه سفّه آلهتهم. وهناك من يعزي هذا الجفاء القرشي إلى عوامل ثلاث: ١ـ العامل السياسي: حيث أدرك زعماء قريش أنّ هذه الدعوة الجديدة هي ثورة دينية، قد تؤدّي إلى انقلاب في المفاهيم يكون من نتائجها فقدانهم الزعامة التي يتفيّؤون بظلالها والتي ترتبط إلى حدّ كبير بزعامتهم الوثنية ووجود الكعبة، رمز وحدة العرب ومحط أنظارهم، فهم سدنة هذه الكعبة وهم المشرفون على شؤونها وحمايتها، وهي التي أعطتهم بمناسك حجّها وبالآلهة الموجودة في داخلها، وما يتمتّعون به من مكانة وسيادة، وكان منبع خوفهم أن يأتي الدين الجديد ليهدم هذه المقدّسات وبالتالي ليسلبهم ما لهم من سيادة وامتيازات. من جانب آخر، فإنّ المجتمع الجديد الذي يدعو إليه محمّد صلى الله عليه وآله سيكون مجتمعاً تحتاج الزعامة السياسية فيه إلى مواصفات تختلف عن المواصفات التي يحتاجها المجتمع القديم، وسينتج عن نجاح دعوة محمّد صلى الله عليه وآله تغيير شامل يتناول فيما يتناول جانب الزعامة السياسية، وسيزول زعماء قريش

التقليديون بنتيجة هذا التغيير، وسيجلس في مقاعد الزعامة أشخاص تنبع زعامتهم من متطلبات الدين الجديد. و إذن فستكون أولى النتائج السياسية التي تترتّب على الاستسلام لدعوة الدين الجديد أن يحتلّ محمّد ﷺ مركز الزعامة والصدارة في المجتمع، وهذا ما لا توافق عليه الزعامة القرشية، لذلك كان من المتوقّع أن تدافع هذه الزعامات عن وجودها المهدد.

٢ ـ العامل الديني :من الطبيعي أن تكون مظاهر المعارضة الأولى دينية، لأنّ الإسلام جاء بالدرجة الأولى ليؤكّد على عبادة إله واحد وليلغي عبادة الأصنام في مكّة وخارجها، وأنّ نجاح الإسلام في تحقيق هذا الهدف الجوهري، يعني زوال معتقدات وتقاليد ألفها الناس وعاشوا معها زمناً طويلاً، جيلاً بعد جيل، وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من مناسبة إلى هذا الجانب كقوله تعالى ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾[1] وغيرها من الآيات الكريمة.

٣ ـ العامل الاجتماعي:أدرك القرشيون وأهل مكّة أنّ الإسلام دين يهدّد تكوين مجتمعهم ونظمهم وعاداتهم وتقاليدهم التي ألفوها واعتادوا عليها وطبّقوها في حياتهم الخاصّة والعامّة، وليس من السهل عليهم أن يتخلّوا عنها، وليس من ضرورة أن يتوافق الإسلام وهذه النظم والتقاليد، لذا فإنّ أيّ ثورة عليها يأتي بها الدين الجديد هي ثورة على مألوف محبّب، وستلاقي معارضة المتزمّتين المتمسّكين بالقدم، هذا فضلاً عن تأكيد الإسلام على عصبية العقيدة بدلاً من عصبية الدم، وهذه العصبية الجديدة ـ العقيدة الإسلامية ـ قد تبعد الأخ عن أخيه والابن عن أبيه، وهذا ما أفزع المشركين وأقلق المجتمع المكّي.[1] فعاش القرشيون في أوهام التضرر من الدين الجديد، ويتحدثّ المحامي أحمد حسين يعقوب عن

---

١ ـ الزخرف : ٢٢.

١ ـ موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر النبوّة: ٢٥٦.

الزعامة القرشية التي اعتقدت بأنّ زعماء بطون قريش عامّة، والزعماء الأمويون بقيادة أبي سفيان خاصّة، قد قدروا أنّهم المتضررون من هذا الدين الجديد، فقد اعتبروا مخطئين أنّ النبوّة موجّهة ضدّهم بالذات، وأنّ غايتها هو إبدال زعامة البطون بزعامة محمّد، و إقامة ملك محمّد على أنقاض ملك البطون، وأنّ هدفها الحقيقي هو إلغاء الصيغة السياسية الجاهلية القائمة على اقتسام مناصب الشرف بين البطون، و إلغاء القيادة الأموية، و إقامة نظام جديد يعطي الحقّ للهاشميين بالتمتّع بكلّ مناصب الشرف وحيازتها، ويعطي الحق لمحمّد بالقيادة بدلاً من أبي سفيان، وهكذا برأي البطون ينال الهاشميون[١] شرف النبوّة وشرف الملك معاً، وتحرم من هذين الشرفين كافة بطون قريش، وفي ذلك إجحاف بحقّ البطون.. وقدرة بطون قريش عامّة، والبطن الأموي خاصّة أنّ نجاح النبوّة المحمدية والرسالة، يعني ـ حسب تحليل قريش ـ دمار الصيغة السياسية الجاهلية القائمة على التوازن بين البطون وتقسيم مناصب الشرف. وتعني أيضاً تفرّد البطن الهاشمي بشرف النبوّة، وحرمان بطون قريش من هذا الشرف. وعندما ينجح محمّد ﷺ بدعوته، ويتمكّن من بناء المجتمع الجديد على أساسها، فسيكون حاكم ذلك المجتمع بغير منازع، وهكذا يتفرّد الهاشميون بالملك أيضاً وبمزايا القيادة، وفي ذلك نسف كامل للصيغة السياسية الموروثة، ونسف للجانب السياسي من عقيدة الشرك التي تتبناها البطون. فالدين الجديد برأي بطون قريش خروج هاشمي على ما أجمعت عليه البطون ورضيت به، وهو نقض للصيغة السياسية يصبّ في الخانة الهاشمية، وبما أنّ البطن الهاشمي هو الذي يحتضن الدعوة والداعية، فمن

١ـ كان المصطلح الهاشمي يطلق على البيتين العلوي والعبّاسي معاً، فصار في العصور العبّاسية يطلق على بني العبّاس دون غيرهم، لاعتبارات سياسية، وصار مصطلح العلويين هو الفاصل المميّز للعلويين من بني هاشم. ينظر: **التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين** ٦١.

المؤكّد ـ حسب منطق الأشياء، وبتحليل قريش ـ أنّ خلافة محمّد ستنحصر في البطن الهاشمي أبداً، وقد سمعت بطون قريش بوقائع الاجتماع الذي عقده الهاشميون في دار محمّد وسمعوا نبأ اختيار علي بن أبي طالب لولاية محمّد وخلافته من بعده، وهكذا سينال الهاشميون شرف النبوّة أبداً وشرف الملك أبداً، وستحرم بطون قريش من هذين الشرفين معاً، وهذا أمر ينبغي أن ترفضه كافّة البطون، وأن تكافح بكلّ وسائل الكفاح لإجهاض النبوّة والدين والرسالة، لأنّ اختصاص محمّد الهاشمي بشرف النبوّة وحرمان البطون الأخرى من هذا الشرف، أمر غير مقبول، واختصاص آل محمّد مع النبوّة بالملك إجحاف بحق البطون.. والطريق الأوحد يتمثّل برفض النبوّة ورفض الرسالة ورفض الكتاب.. وكان أكثر البطون القرشية اندفاعاً بمعاداة النبيّ ورسالته وبني هاشم هو البطن الأموي[١] ونسي القرشيون ما أراده الله لهم في نبيّ مبارك، أراد لهم أن يرتفعوا وينتقلوا لوضع أرفع وأرقى تشرف به قريش على سائر العرب، لكنّهم تهابطوا وتآمروا على غرس النبيّ إسماعيل عليه السلام الذي به شرفوا وشرفت جميع قبائل العرب، فانزووا ونأوا ليتقوقعوا في دائرة من العصبية الضيّقة التي باركت لها أصنامهم وأحجارهم الصمّاء. والعصبية التي عرف بها القرشيون ربّما تكون أقلّ حدّة من سائر قبائل العرب الذين تعبّدوا بأصنامهم وعصبيتهم البدوية الجافة، فالعربي في ذلك العصر كان عاجزاً عن السمو بتفكيره وشعوره العصبي عن حدود عشيرته الأدنين، وربّما اتّسع نطاق عصبيته فشمل القبيلة بمعناها الضيّق، أمّا تجاوز هذه الحدود إلى القبيلة الأوسع: الشعب والأصل الجامع، فلم تكن تسمح به أحوال المجتمع القبلي في ذلك الحين. وقد يكون ظهور العصبية في المجتمع الجاهلي يلبّي حاجة كامنة في نفس العربي ويروّي ظمأه إلى التعلّق بمثل أعلى يعيش من أجله، ويعكس توقه إلى

---

١ ـ المواجهة مع رسول الله وآله: ٣٢.

عقيدة يبذل دمه في سبيلها، فكانت العصبية القبلية صدى هذه الحاجة وتجسيداً لذلك التوق. وكان العربي عصرئذ يجد من اللذة في ارتباطه بهذه الفكرة وفنائه من أجلها مثل الذي يجدها أبناء العصر الحاضر في تعلّقهم بفكرة الوطن أو القومية أو المذهب السياسي [١] والزمن وإن تغيّر وتبدّل في الإسلام وتباعد عن الجاهلية، إلّا أنّ الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة إلى النسب وتكوين الأحلاف، فقبيل ظهور الإسلام كان بين يثرب ومكّة نزاع شديد، ولمّا هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين، وقد دامت الهجرة إلى عام الفتح، فتح مكّة. وأمّا أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ﷺ ولتقديم مساعداتهم له وللمسلمين. وللقضاء على الخصومة، آخى الرسول ﷺ بين الأنصار والمهاجرين، غير أنّ العداء عاد فتجدّد بين الأنصار والمهاجرين بعد وفاة الرسول ﷺ [٢] وقد سعى النبيّ ﷺ للحدّ من الغرور القرشي فقال لعمر: اجمع لي من هاهنا من قريش، فجمعهم ثمّ قال لهم: يا رسول الله، أتخرج إليهم أم يدخلون؟ قال ﷺ: بل أخرج إليهم. فخرج إليهم فقال: يا معشر قريش، هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، إلّا بنو أخواتنا. قال: إنّ ابن أخت القوم منهم، ثمّ قال: يا معشر قريش، اعلموا أنّ أولى الناس بالنبيّ المتّقون، فانظروا لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها، فأصدّ عنكم بوجهي، ثمّ قرأ ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [١] وهكذا كانت الرسائل والمواعظ التي يرسلها النبيّ ﷺ لهم تترى لعلّهم يرعون أو يرتدعون، ولكن ظلّ هذا الوهم القرشي الجاهلي معهم ينتقل من عصر إلى عصر، ليحمله

١ـ ينظر: إحسان النصّ، **العصبيّة القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: ١٣٩و١٤١.

٢ـ جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ١: ٤٨٢.

١ـ **مسند أبي يعلى** ٣: ١٥٠ ح ١٥٧٩، والآية في سورة آل عمران ٦٨.

جمع من أبنائهم الذين ورثوا الغرور والجهل فيواجهوا أئمّة الحقّ والعدل. وربّما قد كان المكّيون الذين شكّلوا طبقة المهاجرين يمدّون أعينهم إلى تاريخ مدينة مقدّسة ينتسبون إليها ويرفعون هاماتهم إلى البيت العتيق الذي شرّف هذه المدينة وحماها من عاديات الأيّام وغوائل الأزمان، وقد كان القرشيون إلى وقت قريب من بزوغ فجر الإسلام يتذكّرون قصص الطيور الربّانية التي كانت ترفرف فوق رؤوس قطّان مكّة وأهلها والتي أخبرهم القرآن الكريم بها.

قصّة الطيور في سماء مكّة

لمّا بنى أبرهة الحبشي الأشرم كنيسته التي سمّاها القلّيس بصنعاء كتب إلى النجاشي: إنّي قد بنيت لك أيّها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتّى أصرف إليها حجّ العرب. فلمّا تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النسأة أحد بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. فخرج الكناني حتّى أتى القلّيس فقعد فيها ـ أي أحدث ـ ثمّ خرج فلحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحجّ العرب إليه بمكّة لمّا سمع قولك: أصرف إليها حجّ العرب. غضب فجاء فقعد فيها، أي أنّها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتّى يهدمه، ثمّ أمر الحبشة فتهيّأت وتجهزّت ثمّ سار وخرج معه بالفيل [١] وهناك رواية أخرى تقول: بأنّ أبرهة توّج محمّد بن خزاعى وأمّره على مضر، وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حجّ القلّيس كنيسته التي بناها فسار محمّد بن خزاعى حتّى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة، وقد بلغ أهل تهامة

---

١ ـ السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٤٤.

أمره وما جاء به له، بعثوا إليه رجلاً من هذيل يقال له:عروة بن حياض الملاحي فرماه بسهم فقتله، وكان مع محمّد بن خزاعى أخوه قيس بن خزاعى فهرب حين قتل أخوه فلحق بأبرهة فأخبره بقتله، فزاد ذلك أبرهة غضباً وضغناً وحلف ليغزونّ بني كنانة وليهدمنّ البيت، ثمّ إنّ أبرهة حين أجمع السيرإلى البيت أمرالحبشان فتهيّأت وتجهّزت وخرج بمن معه بالفيل[١] وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقّاً عليهم، حين سمعوا بأنّه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له:ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائرالعرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه و إخرابه، فأجابه إلى ذلك من أجابه ثمّ عرض له فقاتله، فهزم ذو نفروأصحابه وأخذ له ذو نفرفأتي به أسيراً، فلمّا أراد قتله قال ذو نفر:أيّها الملك لا تقتلني فإنّه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق. ثمّ مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتّى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعم:شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتي به، فلمّا همّ بقتله قال له نفيل:أيّها الملك، لا تقتلني فإنّي دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم :شهران وناهس بالسمع والطاعة، فخلّى سبيله معه يدلّه، حتّى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف ابن ثقيف في رجال ثقيف فقالوا له:أيّها الملك، إنّما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنّما تريد البيت الذي بمكّة، ونحن نبعث معك من يدلّك عليه، فتجاوز عنهم، فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكّة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال

١ـ تفسير الطبري ٣٠ : ٣٠٠ .

حتّى أنزله المغمّس، فلمّا أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت العرب قبره. فلمّا نزل أبرهة المغمّس بعث رجلاً من الحبشة يقال له:الأسود بن مقصود على خيل له حتّى انتهى إلى مكّة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطّلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها، فهمّت قريش وكنانة وهذيل، ومن كان بذلك الحرم من سائر الناس بقتاله، ثمّ عرفوا أنّهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكّة وقال له:سل عن سيّد أهل هذا البلد وشريفها ثمّ قل له:إنّ الملك يقول لك:إنّي لم آت لحربكم، إنّما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلمّا دخل حناطة إلى مكّة سأل عن سيّد قريش وشريفها فقيل له:عبد المطّلب بن هاشم فجاءه، فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطّلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، وإن يخلّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة :فانطلق معي إليه، فإنّه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطّلب ومعه بعض بنيه حتّى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان له صديقاً، حتّى دخل عليه وهو في محبسه فقال له :ياذا نفر، هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوّاً أو عشيّاً! ما عندنا غناء في شيء ممّا نزل بك، إلّا أنّ أنيساً سائس الفيل صديق لي، وسأرسل إليه فأوصيه بك، وأعظم عليه حقّك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال:حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إنّ عبد المطّلب سيّد قريش وصاحب عير مكّة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، فقال :أفعل، فكلّم أنيس أبرهة فقال له :أيّها الملك هذا سيّد قريش

ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عير مكّة، وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلّمك في حاجته، وأحسن إليه، فأذن له أبرهة. وكان عبد المطّلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلمّا رآه أبرهة أجلّه وأعظمه وأكرمه من أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثمّ قال لترجمانه:قل له حاجتك، فقال له ذلك الترجمان، فقال :حاجتي أن يردّ عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي، فلمّا قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له، قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثمّ قد زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه! قال له عبد المطّلب: إنّي أنا ربّ الإبل، و إنّ للبيت ربّاً سيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنع منّي، قال:أنت وذاك.[1] وزعم بعض أهل العلم أنّه ذهب مع عبد المطّلب إلى أبرهة، حين بعث إليه حناطة، يعمر بن نفاثة بن عدي بن الديل ابن بكر بن مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيّد بني بكر، وخويلد بن واثلة الهذلي، وهو يومئذ سيّد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم[2] ويبدو أنّ عبد المطّلب قد يئس من أن يتمكّن مع الآخرين من أن يمنع أبرهة ويدفع شرّه عن مكّة، لذا طلب منه أن يردّ عليه إبله التي أخذها جيشه. وينقل لنا المؤرّخون بقيّة الأحداث التي تلت لقاء عبد المطّلب بأبرهة فقالوا:فلمّا انتهى عبد المطّلب ومن كان معه من مقابلة أبرهة انصرفوا عنه، وانصرف عبد المطّلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكّة والتحرّز في شعف الجبال والشعاب تخوّفاً عليهم من معرّة الجيش. ثمّ قام عبد المطّلب

١ـ السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٤٧.

٢ـ تفسير الطبري ٣٠: ٣٠٢.

فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطّلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هــــمّ إنّ العبــــد يمنــــع رحلــــه فــــامنع حلالــــك
لا يغلــــبن صــــليبهم ومحــــالهم غــــدوا محالــــك
إن كنــــت تــــاركهم وقبلتنــــا فــــأمر مــــا بــــدا لــــك[1]

وفي رواية ابن إسحاق: حتّى إذا كانوا بالمغمّس نزلوا المغمّس من مكّة على ستّة أميال، فبعثوا مقدّماتهم إلى مكّة، فخرجت مكّة عباديد في رؤوس الجبال وقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء القوم، فلم يبق بمكّة أحد إلّا عبد المطّلب بنْ هاشم أقام على سقايته، وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت، فجعل عبد المطّلب يأخذ بعضادتي الباب ثمّ يقول:

اللهــــم إن المــــرء يمــــنــع حلّــه فــــامنع حلالــــك
لا يغلبــــوا بصــــليبهم ومحــــالهم غــــدرا محالــــك
إن يــدخلوا البلــد الحــرام غــدا فــأمر مــا بــدا لــك[2]

ثمّ أرسل عبد المطّلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكّة إذا دخلها. فلمّا أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكّة وهيّأ فيله وعبّأ جيشه، وكان اسم الفيل محمود، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثمّ الانصراف إلى اليمن. فلمّا وجّهوا الفيل إلى مكّة أقبل نفيل ابن حبيب حتّى قام إلى جنب الفيل ثمّ أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنّك في بلد الله الحرام، ثمّ أرسل أذنه فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشتدّ حتّى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا

١ـ سيرة ابن هشام ١: ٥٢.

٢ـ السيرة النبوية، لابن إسحاق ١: ١١٢.

رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن[1] لهم في مراقّه[2] فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكّة فبرك، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كلّ طائر منه ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمّص والعدس، لا تصيب أحداً منهم إلّا هلك، وليس كلّهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن[3] ولمّا هلك أصحاب الفيل خرج عبد المطّلب وأصحابه فأخذوا أموالهم، وكانت أموال عبد المطّلب منها. وبها تكاملت رياسة عبد المطّلب، ثمّ خرج أهل مكّة بعده ونهبوا. وقيل: إنّ عبد المطّلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر. ولمّا ردّ الله الحبشة عن مكّة عظّمت العرب قريش وقالوا: هم أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم، فكان نعمة من الله عليهم[4] وكانت قصّة الفيل أوّل المحرّم من سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين[5] فلمّا بعث الله تعالى محمّداً صلّى الله عليه وآله كان ممّا يعدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدّتهم، فقال الله تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[1] وقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيّه على عظم الآية التي

١ـ المحاجن: هي كلّ عود معطوف الرأس. ترتيب جمهرة اللغة ١: ٣٦٥ (حجن).

٢ـ مراقّ البطن: أسفله وما حوله ممّا استرقّ منه ولان، ولا واحد لها. لسان العرب (رقق)و(مرق).

٣ـ سيرة ابن هشام ١: ٥٣.

٤ـ تفسير القرطبي ٢٠: ١٩٥و١٩٦.

٥ـ الروض الأنف ١: ١٥٧.

١ـ الفيل: ١ـ٥.

أظهرها والمعجزة التي فعلها فقال ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم يا محمّد! لأنّه ﷺ لم ير ذلك. وقيل:معناه ألم تخبر عن الذين قصدوا تخريب الكعبة! وكان معهم فيل واحد اسمه محمود، وقيل ثمانية أفيال، وقيل اثنا عشر فيلاً، و إنّما وحّد لأنّه أراد الجنس. وكان ذلك في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ، وعليه أكثر العلماء. وقيل كان أمر الفيل قبل مولد النبيّ ﷺ بثلاث وعشرين سنة. وقيل قبل مولده ﷺ بأربعين سنة. والصحيح الأوّل. ويدلّ عليه ما ذكر أنّ عبد الملك بن مروان قال لعتاب بن أشيم الكناني الليثي:يا عتاب، أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال عتاب:رسول الله ﷺ أكبر منّي، وأنا أسنّ منه، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ووقعت على روث الفيل. وقالت عائشة:رأيت قائد الفيل وسائقه بمكّة أعميين مقعدين يستطعمان[١] وهناك من يقول بأنّ هذه المعجزة كانت لنبيّ ذلك الزمان. ويجوز أن يكون ذلك النبيّ خالد بن سنان. وقيل هذه المعجزة كانت توطيئاً لنبوّة نبيّنا محمّد ﷺ لأنّه ولد في عام الفيل.[٢] فهذه المعجزة بمثابة تذكير وتأثيل لنبيّ يظهر ويولد في هذا المكان يشع بنوره وهديه، لعلّهم يهتدون بهداه.

ولادة الأنوار السماوية في الحجاز

بعد أن شهدت مكّة طيور السماء الهابطة بأحجارها القاتلة، وهي ترفرف على رؤوس العتاة والطغاة الذين جندلتهم رميات السباع الطائرة، ازدادت حرمة البيت وهيبته، وظلّت مكّة على قداستها وسطوتها في نفوس العرب وغيرهم، ولكن لم يكد ينتهي الإعجاز السماوي عنها بالسباع الطائرة التي أثخنت أبرهة وصحبه بجراح قاتلة لا تندمل، حتّى ظهر إعجاز جديد في أرضها هو النبيّ القرشي الذي

١ـ **مجمع البيان**، للطبرسي المجلد الخامس من الجزء العاشر: ٥٤٢.

٢ـ **تفسير التبيان**، للطوسي ١٠ :٤١٠ :

بعث من بين ترابها وجبالها وسهولها، فأضفى عليها ثوباً قدسياً آخر جلّل المدينة التي كانت تنتظر خطى الفتى القرشي الذي سيطهّرها من أحجار الأوثان والشرك والجهالة والظلام. ولكن الأشقياء و الجهلاء الذين ازدادوا بطراً وطغياناً، و سرى بدمائهم حبّ الأوثان والخمور، وغشيتهم العصبيّة العمياء، أعدّوا العدّة للانقضاض على هذا النور المبين الذي زاد مكّة ألقاً وشرفاً، فضيّقت شياطينهم هذا الفتى الطاهر وأخرجته إلى أرض يثرب، ليعود بعدها بجند وصحب أوفياء ليطفئ نار شركهم ويكسر شوكة عصبيّتهم و يحطّم أصنامهم . وهناك في أرض يثرب مدينة الرسالة والجهاد كانت له ﷺ ولأصحابه أوكار متواضعة أورقت فيها أشجار الإيمان والإسلام وتبرعمت أغصان منها لتمتدّ إلى أرض الحجاز كلّها فتضيئها وتنشر أوراقها الخضراء الزاهية بألوانها ونضارتها، وكانت الشجرة الهاشمية قد أورقت في تلك الأرض الطيّبة بأعلام جديدة تجدّد الرسالة وتعيد لها حيويتها وفتوّتها.

ولادة قرشية في المدينة

في ليلة النصف من شهر رمضان يوم الثلاثاء، وفي السنة الثالثة للهجرة ولد الحسن بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم[1] وقيل لسنة اثنتين من الهجرة، وهي سنة بدر. وفي تاريخ الدولابي أنّه ولد الحسن عليه السلام بعد أحد بسنتين، وكان بين أحد وبين الهجرة سنتان وستّة أشهر ونصف [2] وينقل علي بن يوسف بن المطهّر الحلّي عن كتاب **المجتبى في النسب**: ولد الحسن عليه السلام في شهر رمضان، لثلاث من الهجرة بالمدينة، قبل وقعة بدر بتسعة عشر يوماً.[3] وهناك رواية تؤرّخ لميلاد النور الهاشمي في شهر شعبان من سنة ثلاث من الهجرة [4] وأصحّ ما قيل في ولادته أنّه ولد بالمدينة في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وكان والده عليّ عليه السلام قد بنى بفاطمة عليها السلام في ذي الحجّة من السنة الثانية من الهجرة[5] والحسن عليه السلام قطعة من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ولد من أبويين هاشميين ورضع بلبن هاشمي بشّر به النبيّ صلى الله عليه وآله، وكما جاء في رواية قابوس بن المخارق الشيباني، عن

---

١ ـ **إعلام الورى بأعلام الهدى**، للطبرسي: ٢٠٥.

٢ ـ **التتمة في تواريخ الأئمّة**، لتاج الدين العاملي: ٦٥.

٣ ـ **العدد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة**: ٢٨.

٤ ـ **سير أعلام النبلاء**: للذهبي ٣: ٢٤٦.

٥ ـ **مطالب السؤول في مناقب آل الرسول**، لابن طلحة الشافعي: ٢٢٥.

أبيه قال: جاءت أمّ الفضل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: إنّي رأيت بعض جسمك فيّ! فقال صلى الله عليه وآله: نعم ما رأيت، تلد فاطمة غلاماً وترضعينه بلبن قثم. قال: فجاءت به تحمله إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فوضعته في حجره، فبال فلطمته بيدها، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أوجعت ابني رحمك الله. قالت: هات إزارك حتّى نغسله، قال صلى الله عليه وآله: إنّما يغسل من بول الجارية وينضح بول الغلام. وفي رواية: أنّها قالت: يا رسول الله، رأيت في المنام كأنّ عضواً من أعضائك في بيتي، أو قالت: في حجرتي! فقال صلى الله عليه وآله: تلد فاطمة غلاماً إن شاء الله فتكفلينه.[1] فنال المولود الهاشمي رشفات من لبن قصي وعبد المطّلب الذي صبّته له امرأة العبّاس بن عبد المطّلب ليرطب لسانه. وكان الحسن عليه السلام أوّل أولاد عليّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام. وروي مرفوعاً إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: لمّا حضرت ولادة فاطمة قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأسماء بنت عميس وأمّ سلمة: احضرا فاطمة، فإذا وقع ولدها واستهلّ صارخاً فأذّنا في أذنه اليمنى وأقيما في أذنه اليسرى[2] فإنّه لا يفعل ذلك بمثله إلّا عصم من الشيطان ولا تحدثا شيئاً حتّى آتيكما، فلمّا ولدت فعلنا ذلك. وأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله ولثاه بريقه وقال: اللهم إنّي أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم. فلمّا كان اليوم السابع من مولده قال صلى الله عليه وآله: ما سمّيتموه؟ قالوا: حرباً، فقال صلى الله عليه وآله: بل سمّوه حسناً، ثمّ إنّه صلى الله عليه وآله عقّ عنه وذبح كبشاً وتولّى ذلك بنفسه الكريمة وقال لفاطمة عليها السلام: احلقي رأسه وتصدّقي بوزن الشعر فضّة، فكان الوزن عن شعره بعد حلقه درهماً وشيئاً فتصدّقت به. فصارت العقيقة والتصدّق بوزن الشعر سنّة مستمرّة عند العلماء بما فعله النبيّ صلى الله عليه وآله في حقّ الحسن[3] ويروي الشيخ الصدوق بإسناده عن جابر قال: لمّا

١ـ **المعجم الكبير**، للطبراني ٣: ٢٠ و٢٣ح ٢٥٢٦ وح ٢٥٤١.

٢ـ وأكثر الروايات الخاصّة تقول بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله هو الذي أذّن في أذنه.

٣ـ **الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة**، لابن الصبّاغ المالكي: ٢١٩.

حملت فاطمة عليها السلام بالحسن عليه السلام فولدت، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم أن يلفّوه في خرقة بيضاء فلفّوه في صفراء وقالت فاطمة عليها السلام: ياعلي سمّه، فقال: ماكنت لأسبق باسمه رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاء النبيّ صلى الله عليه وآله فأخذه وقبّله وأدخل لسانه في فيه، فجعل الحسن عليه السلام يمصّه، ثمّ قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله:ألم أتقدّم إليكم أن تلفّوه في خرقة بيضاء!فدعا بخرقة بيضاء فلفّه فيها ورمى بالصفراء، وأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى؛ ثمّ قال لعليّ عليه السلام: ما سمّيته ؟فقال:ما كنت لأسبقك باسمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما كنت لأسبق ربّي باسمه، فأوحى الله جلّ ذكره إلى جبرئيل عليه السلام أنّه قد ولد لمحمّد ابن فاهبط إليه فأقرئه منّي السلام وهنّئه منّي ومنك، وقل له: إنّ عليّاً منك بمنزلة هارون من موسى فسمّه باسم ابن هارون. فأتى جبرئيل النبيّ صلى الله عليه وآله وهنّأه وقال له كما أمره الله تعالى به أن يسمّي ابنه باسم هارون، قال :وما كان اسمه ؟ قال:شبّر، قال:لسان عربي، قال:سمّه الحسن، فسمّاه الحسن. فلمّا ولدت فاطمة الحسين عليه السلام جاء إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله ففعل به كما فعل بالحسن عليه السلام، وهبط جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله فقال:إنّ الله ـ عزّ ذكره ـ يقرئك السلام ويقول لك:إنّ عليّاً منك بمنزلة هارون من موسى فسمّه باسم ابن هارون، قال:ما كان اسمه ؟قال:شبير، قال:لسان عربي، قال:سمّه الحسين، فسمّاه الحسين.[1] وفي رواية أخرى رواها الصدوق عن عكرمة قال:لمّا ولدت فاطمة الحسن عليهما السلام جاءت به إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فسمّاه حسناً، فلمّا ولدت الحسين عليه السلام جاءت به إليه وقالت:يا رسول الله هذا أحسن من هذا، فسمّاه حسيناً. وروى رواية أخرى عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: أهدى جبرئيل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله اسم الحسن بن عليّ في خرقة من حرير من ثياب

١ـ وجاء في خبر رواه الصادق عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال:الولد الصالح ريحانة من الله قسّمها بين عباده، وإنّ ريحانتي من الدنيا الحسن والحسين عليهما السلام سمّيتهما باسم سبطين من بني إسرائيل شبّراً وشبّيراً. **بحار الأنوار** ٤٣: ٣٠٦.

الجنّة، واشتقّ اسم الحسين من الحسن عليهما السلام.[١] وجاء في خبر عن سورة بنت مشرح قالت: كنت فيمن حضر فاطمة عليها السلام حين ضربها المخاض في نسوة فأتانا النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: كيف هي؟ قلت: إنّها لمجهودة يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله فإذا وضعت فلا تسبقيني فيه بشيء، قالت: فوضعت فسرّوه ولففوه في خرقة صفراء، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ما فعلت؟ قلت: قد ولدت غلاماً وسررته ولففته في خرقة، قال: عصيتني! قلت: أعوذ بالله من معصية الله وغضب رسوله! قال: ائتيني به. فأتيته به فألقى الخرقة الصفراء ولفّه في خرقة بيضاء، وتفل فيه وألبأه[٢] بريقه، فجاء عليّ عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله: ما سمّيته يا عليّ؟ قال: سمّيته جعفراً يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: لا، ولكن حسن وبعده حسين، وأنت أبو حسن الخير.[٣] وحكي عن أبي الحسين النسّابة كأنّ الله تعالى حجب هذين الاسمين عن الخلق، يعني حسناً وحسيناً، حتّى يسمّى بهما ابنا فاطمة عليها السلام، فإنّه لا يعرف أنّ أحداً من العرب تسمّى بهما في قديم الأيّام إلى عصرهما، لا من ولد نزار ولا اليمن مع سعة أفخاذهما، مع كثرة ما فيهما من الأسامي، وإنّما يعرف فيهما حسن ـ بسكون السين ـ وحسين ـ بفتح الحاء والسين ـ فلا نعرفه إلّا اسم جبل معروف، قال الشاعر:

لأمّ الأرض وبل ما أجنّت   بحيث أضرّ بالحسن السبيل

وسئل أبو عمر[٤] غلام ثعلب عن قول أمير المؤمنين عليه السلام «حتّى لقد وطئ

١ـ معاني الأخبار: ٥٧ و٥٨.

٢ـ ألبأه، أي سقاه اللبأ، واللبأ: هو أوّل اللبن في النتاج. ينظر: **لسان العرب**(لبأ).

٣ـ **المعجم الكبير**، للطبراني ٣: ٢٣ ح ٢٥٤٢.

٤ـ وقد حكى هذا القول أيضاً السيّد المرتضى، عن أبي عمر محمّد بن عبد الواحد غلام ثعلب.

وروي بخصوص هذا القول الذي قاله عليه السلام عند اندفاع الناس لمبايعته، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنّما كان يومئذ جالساً محتبياً، وهي جلسة رسول الله صلى الله عليه وآله المسمّاة بالقرفصاء،

الحسنان، وشقّ عطفاي» فقال: الحسنان الإبهامان واحدهما حسن. قال الشنفري:

مهضومة الكشحين ردماء الحسن   جمّـاء ملسـاء بكفّيهـا شـثن

وشق عطفاي:أي ذيلي [1] ويروي مؤرّخ دمشق شمس الدين محمّد بن طولون عن أبي أحمد العسكري أنّه قال:سمّاه النبيّ صلى الله عليه وآله الحسن، ولم يكن هذا الاسم يعرف في الجاهلية. ثمّ روى عن ابن الأعرابي عن الفضل قال:إنّ الله تعالى حجب اسم الحسن والحسين حتّى سمّى النبيّ صلى الله عليه وآله بهما ابنيه الحسن والحسين. قال:قلت له:فاللّذين باليمن ؟قال:ذاك حسن بإسكان السين، وحسين بفتح الحاء وكسر السين.[2] وحكي عن عروة البارقي [3] قال: حججت في بعض السنين فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدت رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً وحوله غلامان يافعان، وهو يقبّل هذا مرّة وهذا أخرى، فإذا رآه الناس يفعل ذلك أمسكوا عن كلامه حتّى يقضي وطره منهما، وما يعرفون لأيّ سبب حبّه إيّاهما. فجئته وهو يفعل ذلك بهما فقلت: يا رسول الله، هذان ابناك ؟ فقال صلى الله عليه وآله:إنّهما ابنا ابنتي، وابنا أخي وابن عمّي وأحبّ الرجال إليّ، ومن هو سمعي وبصري، ومن نفسه نفسي ونفسي نفسه، ومن

ـ وهي جمع الركبتين وجمع الذيل، فلمّا اجتمعوا لمبايعته زاحموه حتّى وطئوا إبهاميه وشقّوا ذيله بالوطء، ولم يعن الحسن والحسين عليهما السلام . ينظر: **شرح نهج البلاغة**، لابن ميثم البحراني ١: ٢٦٥

١ ـ **بحار الأنوار** ٤٣: ٢٥٢ ح٣٠ عن **مناقب ابن شهراشوب** ٣: ٣٩٨ . قال ابن دريد:الحسن:كثيب معروف بنجد في بلاد بني ضبّة. وقال:لطيّئ بطنان يقال لهما بنو حسن وبنو حسين. ونقل ابن دريد عن ابن الكلبي أنّه قال:لا نعرف في الجاهلية أحداً سمّي حسناً وحسيناً. ترتيب **جمهرة اللغة** ١: ٤٠٢(حسن).

٢ ـ **الأئمّة الاثنا عشر**: ٦٤ .

٣ ـ البارقي، نسبة إلى جبل كان يسكنه الأزد فنسب إليه. ينظر: **رجال صحيح مسلم**، لابن منجويه ٢: ٥٨ رقم ١١٤٤.

أحزن لحزنه ويحزن لحزني، فقلت له: قد عجبت يا رسول الله من فعلك بهما وحبّك لهما ا فقال لي: أحدّثك أيّها الرجل، إنّي لمّا عرج بي إلى السماء ودخلت الجنّة انتهيت إلى شجرة في رياض الجنّة فعجبت من طيب رائحتها، فقال لي جبرئيل: يا محمّد، لا تعجب من هذه الشجرة، فثمرها أطيب من ريحها، فجعل جبرئيل يتحفني من ثمرها، ويطعمني من فاكهتها وأنا لا أملّ منها، ثمّ مررنا بشجرة أخرى فقال لي جبرئيل:يا محمّد كل من هذه الشجرة فإنّها تشبه الشجرة التي أكلت منها الثمر، فهي أطيب طعماً وأذكى رائحة، قال الراوي:فجعل جبرئيل يتحفني بثمرها ويشمّني من رائحتها وأنا لا أملّ منها. فقلت: يا أخي جبرئيل، ما رأيت في الأشجار أطيب ولا أحسن من هاتين الشجرتين! فقال لي: يا محمّد أتدري ما اسم هاتين الشجرتين؟ فقلت:لا أدري، فقال:إحداهما الحسن والأخرى الحسين، فإذا هبطت يا محمّد إلى الأرض من فورك فأت زوجتك خديجة وواقعها من وقتك وساعتك، فإنّه يخرج منك طيب رائحة الثمر الذي أكلته من هاتين الشجرتين، فتلد لك فاطمة الزهراء، ثمّ زوّجها أخاك عليّاً فتلد له ابنين، فسمّ أحدهما الحسن والآخر الحسين. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:ففعلت ما أمرني أخي جبرئيل، فكان الأمر ما كان. فنزل إليّ جبرئيل بعد ما ولد الحسن والحسين، فقلت له : يا جبرئيل ما أشوقني إلى تينك الشجرتين! فقال لي : يا محمّد، إذا اشتقت إلى الأكل من ثمرة تينك الشجرتين فشمّ الحسن و الحسين. قال : فجعل النبيّ صلى الله عليه وآله كلّما اشتاق إلى الشجرتين يشمّ الحسن و الحسين و يلثمهما و هو يقول: صدق أخي جبرئيل عليه السلام ثمّ يقبّل الحسن و الحسين و يقول: يا أصحابي، إنّي أودّ أنّي أقاسمهما حياتي لحبّي لهما، فهما ريحانتاي من الدنيا. فتعجّب الرجل [من] وصف النبيّ صلى الله عليه وآله للحسن و الحسين...[1] وروى السيوطي عن عمران بن سليمان قال:

١ـ بحار الأنوار ٤٣: ٣١٤ ح ٧٣.

الحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنّة، ما سمّت العرب بهما في الجاهلية. وروى عن المفضّل أنّه قال: إنّ الله حجب اسم الحسن والحسين حتّى سمّى بهما النبيّ عليه الصلاة والسلام ابنيه الحسن والحسين.[١] واقترن اسم الحسن عليه السلام وفضله ودرجته في أغلب الأخبار باسم أخيه الحسين عليه السلام، وهما سبطا رسول الله، وريحانتا نبيّ الله، وهما شنفا العرش، وهما سيّدا شباب أهل الجنّة. وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: هذا السيّد المجتبى، وهذا شهيد كربلاء سيّد الشهداء. وقال صلى الله عليه وآله: الحسين هو السيّد، وأخو السيّد، وابن السيّد، وأبو السادة، هو الحجّة، أخو الحجّة، ابن الحجّة، أبو الحجج، هو الإمام، أخو الإمام، ابن الإمام، أبو الأئمة. وروي أنّ فاطمة عليها السلام أتت النبيّ صلى الله عليه وآله فقالت: هذان ابناك ورّثهما شيئاً. فقال: أمّا الحسن فإنّ له هديي وسؤددي، وأمّا الحسين فإنّ له جودي وشجاعتي. ولذلك قيل: ذو الهدى والسؤدد للحسن، وذو الجود والشجاعة للحسين[٢] وهناك أخبار مستفيضة في فضلهما نقلت بطرق أهل السنّة والشيعة لايمكن عدّها أو حصرها، ومن هذه الأخبار ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا. وفي خبر آخر: الحسن والحسين عليهما السلام سيّدا شباب أهل الجنّة. وفي خبر عن أبي أسامة بن زيد قال: طرقت النبيّ صلى الله عليه وآله ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبيّ صلى الله عليه وآله مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلمّا فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشفه فإذا حسن وحسين عليهما السلام على وركيه، فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إنّي أحبّهما فأحبّهما وأحبّ من يحبّهما[٣] وروي عن ابن

---

١ ـ تاريخ الخلفاء: ١٨٨.

٢ ـ ألقاب الرسول وعترته، لبعض القدماء ٢٠١ ـ٢٠٢ من كتاب مجموعة نفيسة

٣ ـ سنن الترمذي ٥: ٦٥٦ ـ ٦٥٧ ح٣٧٦٨ ـ ٣٧٧٠ كتاب المناقب، مناقب الحسن والحسين عليهما السلام. وجاء خبر آخر في فضل الحسنين أيضاً: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل

مسعود قال:كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي فإذا سجد وثب الحسن والحسين عليهما السلام على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعونهما أشار إليهم أن دعوهما، فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره وقال:من أحبّني فليحبّ هذين.[١] وروي عن عبد الله بن شدّاد عن أبيه قال: دُعي رسول الله صلى الله عليه وآله لصلاة فخرج وهو حامل حسناً أو حسيناً فوضعه إلى جنبه فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطال فيها، قال أبي:فرفعت رأسي من بين الناس فإذا الغلام على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله فأعدت رأسي فسجدت، فلمّا سلّم رسول الله صلى الله عليه وآله قال له القوم: يا رسول الله لقد سجدت في صلاتك سجدة ما كنت تسجدها، أفكان يوحى إليك! قال:لا، لكنّ ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتّى يقضي حاجته.[٢] وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال:فخرت الجنّة على النار فقالت:أنا خير منك، فقالت النار: بل أنا خير منك، فقالت لها الجنّة استفهاماً: وممّه ؟قالت النار:لأنّ فِيَّ الجبابرة ونمرود وفرعون، فارتكست الجنّة، فأوحى الله إليها:لاتخضعي، لأزيّننّ ركنيك بالحسن والحسين، فماست كما تميس العروس في خدرها. وروى عقبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:الحسن والحسين شنفا العرش وليسا بمعلّقين. وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال:إذا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة قالت الجنّة: يا رب، وعدتني أن تزيّنني بركنين من أركانك، قال:ألم أزيّنك بالحسن والحسين ! وروي عن سعد بن أبي وقّاص قال:دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله والحسن والحسين يلعبان على بطنه، فقلت: يا رسول الله، أتحبّهما ؟ فقال: وما لي لا أحبّهما وهما ريحانتاي! وروي عن عمر قال:رأيت الحسن والحسين عليهما السلام على

الجنّة وأبوهما خير منهما. **قرب الإسناد**، للحميري: ٥٣. و١١١ ح٣٨٦ ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

١ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ٩: ١٧٩.

٢ـ **مصنّف ابن أبي شيبة** ٧: ٥١٤ ح١٧ الباب ٢٣.

عاتِقَي النبيّ صلى الله عليه وآله فقلت:نعم الفرس تحتكما. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: ونعم الفارسان. وروي نحو هذا عن جابر قال:دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين عليهما السلام وهو يقول :نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما. وروى ابن عبّاس قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله صلاة العصر، فلمّا كان في الرابعة أقبل الحسن والحسين عليهما السلام حتّى ركبا على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله فلمّا وضعهما بين يديه. وأقبل الحسن عليه السلام فحمل رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن على عاتقه الأيمن والحسين عليه السلام على عاتقه الأيسر ثمّ قال:أيّها الناس، ألا أخبركم بخير الناس جدّاً وجدّة، ألا أخبركم بخير الناس عمّاً وعمّة، ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالة، ألا أخبركم بخير الناس أباً وأمّاً؟ الحسن والحسين جدّهما رسول الله وجدّتهما خديجة بنت خويلد، وأمّهما فاطمة بنت رسول الله وأبوهما عليّ، وعمّهما جعفر بن أبي طالب وعمّتهما أم هانئ بنت أبي طالب وخالهما القاسم بن رسول الله، جدّهما في الجنّة وأبوهما في الجنّة وعمّهما في الجنّة وعمّتهما في الجنّة وخالاتهما في الجنّة، وأبوهما في الجنّة وأمّهما في الجنّة، وهما في الجنّة ومن أحبّهما في الجنّة.[1] وهذا الحبّ

١ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩ : ١٨٠و ١٨١ و١٨٢ و١٨٤. وكأنّ معاوية بن أبي سفيان كان يعرف كرم نسب الحسن عليه السلام فأراد أن يتحقق من ذلك، أو كأنّه أراد أن يسمع بأنّ شخصاً كان كريم النسب غير الحسن عليه السلام . . فيروي الحسن بن أبي الحسن الديلمي أنّ معاوية قال يوماً لجلسائه:أخبروني بأكرم الناس أباً وأمّاً وجدّاً وعمّاً وعمّة وخالاً وخالة ؟ فأخذ مالك بن العجلان بيد الحسن بن عليّ عليه السلام وقال:هذا والله، أبوه عليّ بن أبي طالب، وأمّه فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمّه جعفر الطيّار ذو الجناحين، وعمّته أمّ هانئ ابنة أبي طالب، وخاله القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وآله، وخالته زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدّته خديجة سيّدة نساء أهل الجنّة، فسكت القوم فقال:لم سكتّم؟فوالله، ما قلت إلّا حقّاً، وأزيد ذلك فأقول:وهو صريح بني هاشم، وبنو هاشم أنضر قريش عوداً، وأطولها عموداً، وأوراهم زنوداً. وأزيد ذلك وأقول:هو وأخوه الحسين سبطا هذه الأمّة وسيّدا شباب أهل الجنّة. هكذا هو يا

والتكريم من رسول الله صلى الله عليه وآله لهما وهما صبيّان يدلّان دلالة واضحة أنّهما صاحبا شأن ، وكأنّهما قطعتان متّصلتان من الرسالة وصاحبها، وكما نعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يلهو ولا يعبث، ولايمكن أن يحبّ أو يكره إلّا بما يوافق أمر السماء، أوكأنّ ما كان يظهر منه أمراً جادّاً وقاصداً كان لتنبيه صحابته على درجتهما ومنزلتهما، وقد رأى الصحابة منذ نعومتهما عليهما السلام لم ينفكّا عن رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى وهو على منبره وفي لحظات صلواته وعبادته. وكأنّه صلى الله عليه وآله كان مملوء حبّاً وشوقاً لهما، فلم يكد يفارق حبّهما الذي امتزج مع دمه وأنفاسه وتسبيحه صلى الله عليه وآله، وكأنّ ما حبى الله هذين المخلوقين الطاهرين من حبّ وود قد فاض على الكون، وألبس جدّهما النبي المرسل هذا اللباس العاطفي الذي يتجلّى في كلّ خطوة وخطرة. وقد سرى حبّ الحسنين عليهما السلام في قلوب العباد جميعهم، فروي في فضلهما عليهما السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:إنّ ابنَي فاطمة عليها السلام اشترك في حبّهما البرّ والفاجر[1] وقد كان الصحابة يعرفون فضل الحسن والحسين عليهما السلام، فقد كان ابن عبّاس يأخذ الركاب للحسن والحسين عليهما السلام إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه. وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما ممّا يزدحمون عليهما للسلام عليهما.[2] وقال مدرك أبو زياد:كنّا في حيطان ابن عبّاس، فجاء ابن عبّاس وحسن وحسين عليهما السلام فطافوا بالبستان فنظروا ثمّ جاءوا إلى ساقية فجلسوا على شاطئها، فقال لي حسن: يا مدرك، أعندك غداء؟ قلت:قد خبزنا، قال:ائت به. قال:فجئت بخبز وشيء من ملح جريش وطاقتي بقل، فأكل ثمّ قال: يا مدرك ما أطيب هذا!ثمّ أتى بغدائه، وكان كثير الطعام طيّبه،

معاوية ؟فقال معاوية: نعم. غرر الأخبار ودرر الآثار في مناقب أبي الأئمّة الأطهار عليّ أمير المؤمنين ٢٦٣ . وفيه قول مالك بن العجلان:فوالله، ما قلّت الأحقاد.

١ـ المحاسن، للبرقي: ١٥١

٢ـ المنتقى في أعقاب الحسن المجتبى، لابن يعقوب الحسني: ١١٤.

فقال: يا مدرك اجمع لي غلمان البستان، قال:فقدّم إليهم فأكلوا ولم يأكل، فقلت:ألا تأكل؟فقال:ذاك أشهى عندي من هذا، ثمّ قاموا فتوضّأوا ثمّ قدّمت دابّة الحسن عليه السلام فأمسك ابن عبّاس بالركاب وسوّى عليه، ثمّ جيء بدابّة الحسين عليه السلام فأمسك له ابن عبّاس بالركاب وسوّى عليه، فلمّا مضيا قلت:أنت أكبر منهما تمسك لهما وتسوّي عليهما! فقال:يا لكع أتدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ممّا أنعم الله عليّ به أن أمسك لهما وأسوّي عليهما. وهذا الاحترام والتقدير من ابن عبّاس للحسن والحسين عليهما السلام دليل على محبّته لهما ومعرفة فضلهما، كما يدلّ على فضل ابن عبّاس، فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلّا أهله. وقد كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يعامل عمّه العبّاس والد عبد الله معاملة قلّ نظيرها في الاحترام والتقدير، فعن ابن عبّاس قال:اعتلّ أبي العبّاس، فعاده عليّ عليه السلام فوجدني أضبط رجليه، فأخذهما من يدي وجلس موضعي وقال:أنا أحقّ بعمّي منك، إن كان الله قد توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله وعمّي حمزة وأخي جعفراً فقد أبقى لي العبّاس. عمّ الرجل صنو أبيه، وبرّه به كبرّه بأبيه، اللهمّ هب لعمّي عافيتك وارفع له درجته، واجعله في علّيين.[١] وروي عن علي بن الحسين عليه السلام قال:كنت أمشي خلف عمّي الحسن وأبي الحسين عليهما السلام في بعض طرقات المدينة في العام الذي قبض فيه عمّي الحسن عليه السلام وأنا يومئذ غلام قد ناهزت الحلم أو كدت، فلقيهما جابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريان في جماعة من قريش والأنصار، فما تمالك جابر بن عبد الله حتّى أكبّ على أيديهما وأرجلهما يقبّلهما، فقال رجل من قريش كان نسيباً لمروان:أتصنع هذا يا أبا عبد الله، وأنت في سنّك هذا، وموضعك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله ؟وكان جابر قد شهد بدراً، فقال له:إليك عنّي، فلو علمت يا أخا قريش من فضلهما ومكانهما ما أعلم لقبّلت ما تحت أقدامهما من التراب.

١ـ سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن عليّ عليهما السلام، للصلّابي: ٢٢٢.

ثمّ أقبل جابر على أنس بن مالك فقال: يا أبا حمزة، أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله فيهما بأمر ما ظننته أنّه يكون في بشر. قال له أنس: وبماذا أخبرك، يا أبا عبد الله؟ قال عليّ بن الحسين: فانطلق الحسن والحسين عليهما السلام ووقفت أنا أسمع محاورة القوم، فأنشأ جابر يحدّث، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم في المسجد وقد خفّ من حوله، إذ قال لي: يا جابر، ادع لي حسناً وحسيناً، وكان صلى الله عليه وآله شديد الكلف بهما، فانطلقت فدعوتهما، وأقبلت أحمل هذا مرّة وهذا أخرى حتّى جئته بهما، فقال لي، وأنا أعرف السرور في وجهه لمّا رأى من محبّتي لهما وتكريمي إيّاهما :أتحبّهما يا جابر؟ فقلت: وما يمنعني من ذلك فداك أبي وأمّي، وأنا أعرف مكانهما منك ! قال: أفلا أخبرك عن فضلهما؟ قلت: بلى بأبي أنت وأمّي. قال صلى الله عليه وآله: إنّ الله تعالى لمّا أحبّ أن يخلقني، خلقني من نطفة بيضاء طيّبة، فأودعها صلب أبي آدم عليه السلام، فلم يزل ينقلها من صلب طاهر إلى رحم طاهر إلى نوح و إبراهيم عليهما السلام، ثمّ كذلك إلى عبد المطّلب، فلم يصبني من دنس الجاهلية، ثمّ افترقت تلك النطفة شطرين: إلى عبد الله وأبي طالب، فولدني أبي فختم الله بي النبوّة، وولد عليّ عليه السلام فختمت به الوصيّة، ثمّ اجتمعت النطفتان منّي ومن علي فولّدتا الجهر والجهير: الحسنان، فختم الله بهما أسباط النبوّة، وجعل ذرّيتي منهما، والذي يفتح مدينة ـ أو قال: مدائن ـ الكفر فمن ذرّية هذا ـ وأشار إلى الحسين عليه السلام ـ رجل يخرج في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، فهما طُهران مطهّران، وهما سيّدا شباب أهل الجنّة، طوبى لمن أحبّهما وأباهما وأمّهما، وويل لمن حاربهم وأبغضهم [1]

ويروي الطبراني بإسناده أنّ مروان بن الحكم أتى أبا هريرة في مرضه الذي مات فيه، فقال مروان لأبي هريرة :ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلّا في حبّك الحسن والحسين، فتحفّز أبو هريرة فجلس، فقال: أشهد لخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله

---

١ ـ أمالي الطوسي ٥٠٠ ح١٠٩٥.

حتّى إذا كنّا ببعض الطريق سمع رسول الله صلى الله عليه وآله صوت الحسن والحسين عليهما السلام وهما يبكيان، وهما مع أمّهما عليها السلام، فأسرع السير حتّى أتاهما، فسمعته يقول لها: ما شأن ابني؟ فقالت:العطش، قال:فأخلف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى شنة يبتغي فيها ماء، وكان الماء يومئذ أغداراً، والناس يريدون الماء فنادى:هل أحد منكم معه ماء؟فلم يبق أحد إلّا أخلف بيده إلى كلابه يبتغي الماء في شنة، فلم يجد أحد منهم قطرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:ناوليني أحدهما، فناولته إيّاه من تحت الخدر، فرأيت بياض ذراعيها حين ناولته، فأخذه فضمّه إلى صدره وهو يطغو ما يسكت، فأدلع له لسانه فجعل يمصّه حتّى هدأ أو سكن، فلم أسمع له بكاء، والآخر يبكي كما هو ما يسكت، فقال صلى الله عليه وآله:ناوليني الآخر، فناولته إيّاه ففعل به كذلك، فسكتا فما أسمع لهما صوتاً، ثمّ قال:سيروا، فصدعنا يميناً وشمالاً عن الظعائن حتّى لقيناه على قارعة الطريق، فأنا لا أحبّ هذين وقد رأيت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله![1] ولقّب الحسن عليه السلام بالوزير والتقيّ والقائم والطيّب والحجّة والسيّد والسبط والوليّ[2] وفي رواية أخرى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: هذا السيّد المجتبى له عليه السلام، ولأخيه الحسين عليه السلام قال:هذا شهيد كربلاء[3] وروى شيخ الطائفة في فضلهما عليهما السلام بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاة الفجر، ثمّ انفتل وأقبل علينا يحدّثنا فقال:أيّها الناس، من فقد الشمس فليتمسّك بالقمر، ومن فقد القمر فليتمسّك بالفرقدين. قال جابر: فقمت أنا وأبو أيّوب الأنصاري ومعنا أنس بن مالك، فقلنا:يا رسول الله، من الشمس؟ قال:أنا، فإذا هو صلى الله عليه وآله ضرب لنا مثلاً، فقال:إنّ الله تعالى خلقنا وجعلنا بمنزلة نجوم السماء كلّما غاب نجم طلع نجم، فأنا

١ـ المعجم الكبير ٣: ٥٠ ح٢٦٥٦.

٢ـ تاريخ مواليد الأئمّة ووفياتهم، لابن الخشّاب البغدادي: ١٣٠.

٣ـ ألقاب الرسول صلى الله عليه وآله وعترته: ٢٠١ من مجموعة نفيسة

الشمس فإذا ذهب بي فتمسّكوا بالقمر، قلنا:فمن القمر؟قال:أخي ووصيّي ووزيري وقاضي ديني وأبو ولدي وخليفتي في أهلي عليّ بن أبي طالب. قلنا:فمن الفرقدان؟قال:الحسن والحسين.[1] وكان الحسن عليه السلام أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خلقاً وهدياً وسؤدداً، وروى ذلك جماعة، منهم:معمّر عن الزهري، عن أنس ابن مالك، لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن بن عليّ عليه السلام. وروى إبراهيم ابن علي الرافعي، عن أبيه، عن جدّه شبيب بن أبي رافع عمّن حدّثه قال: أتت فاطمة عليها السلام بابنيها الحسن والحسين عليهما السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شكواه التي توفّي فيها فقالت:يا رسول الله، هذان ابناك فورّثهما شيئاً، فقال:أمّا الحسن فإنّ له هيبتي وسؤددي، وأمّا الحسين فإنّ له جودي وشجاعتي.[2] ولم تكن الأخلاق الهاشمية والشمائل النبوية بعيدة عن هذا الغرس العلوي، فلقد نشأ الحسن عليه السلام في بيت يهبط فيه الوحي، وتهوي إليه القلوب، وكان ينمو ويشعر، فتتسرّب إلى قلبه عظمة جدّه، وينفذ إليه مجد أسرته، فيترعرع مغموراً بشرف الرسالة ونور الدعوة ويسمع ذكر الله ومبادئ الدين، فيغدو كبيراً في طفولته وعظيماً في حداثته، و إماماً في صغره. ذاك أنّ انشغال جدّه بنشر الدين وتأثيل العقيدة التي تنذر باجتياح الأرض، وتعمد إلى إخضاع مردتها، لم يؤخّره عن مناغاته، أو مناجاة روحه ليغرس فيه الإيمان طريئة، وليجعلها منيعة أمام أباطيل الجاهلية وأضاليلها. وقد علم الجدّ والأب والأم أنّ عبد المطّلب ولد الحسن مرّتين كما ولد هاشم عليّاً مرّتين، فكان له ذلك له الشرف العظيم الذي يتيه به على الأمثال، فلم يغفلوا عن استعداده و إمكانياته، فصقلوا نفسه وأمدّوه بالتعاليم الفضلى، واهتمّوا بإعطائه أكبر قسط ممكن من معاني البرّ والأخلاق ليدخل الدنيا وليفارقها على كلمة الله أكبر. أجل لقد دأب

١ـ أمالي الطوسي: ٥١٧ ح١١٣١.

٢ ـ المستجاد من كتاب الإرشاد، للعلّامة الحلّي: ٢٨٢.

هؤلاء الثلاثة على تكوينه وجعله بريئاً طاهراً لا تناله رعونة ولا تدنّسه همجية، فلاقت تعاليمهم المنبت الخصب الذي حباه الله طيب الوراثة عن أهل انقطعوا، منذ وجودهم على الأرض إلى عبادة الله وتأدية الطقوس الدينية و إقامة المظاهر التعبّدية، لأنّهم تولّوا تلك الأعمال من دون الناس قبل الإسلام بمدى بعيد، فضاعف وجود القابلية وتيسّر الاستعداد، أثر التربية البيتية، فتمرّس الحسن بعقائد أهله، واحتبى بإنسانية رفيعة، وتقمّص بمجد سابق، وكان خليقاً بأن يحفظ دين الله بعد جدّه وأبيه، كيف لا وقد خلعت عنايتهما به رداء يطوي جميع مكنونات نفسيهما الزكيتين، فأصبح ذا شخصية فذّة في عالم الأطفال، نبيلاً قويّاً في مؤهّلاته وجسده.[١] وحصل للحسن ولأخيه الحسين عليهما السلام ما لم يحصل لغيرهما، لأنّهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته وسيّدا شباب أهل الجنّة، فجدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوهما علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم، وأمّهما الطهر البتول فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله سيّدة النساء.

نسب كأنّ عليه من وضح الضُّحى نوراً ومن فَلق الصباح عمودا[٢]

والحسن عليه السلام أوّل سبط ملأ قلب رسول الله صلى الله عليه وآله بجمال طفولته وروعة تحرّكاته و إشراقة محيّاه، فتعاهده بالتربية، وغذّاه من لسانه، ونوّه بفضله وبمستقبله، ولأكثر من مناسبة قال: حسن وحسين منّي وأنا منهما، من أحبّهما وأحبّ أباهما وأمّهما كان معي في الجنّة.[٣] وكان الإمام الحسن عليه السلام أحبّ الناس إلى النبي صلى الله عليه وآله، بل لقد بلغ من حبّه صلى الله عليه وآله له ولأخيه عليهما السلام أنّه يقطع خطبته في المسجد، وينزل عن المنبر

١ـ كامل سليمان، **الحسن بن علي** عليه السلام: ١٥.

٢ـ **مطالب السؤول في مناقب آل الرسول**: ٢٢٦.

٣ـ هاشم معروف الحسني، **سيرة المصطفى**: ٣٨٢.

ليحتضنهما[1] إضافة إلى نصوص كثيرة تؤكّد محبّته لهما. . وكان من مواقف النبيﷺ تجاههما ما علق بذاكرة أبي هريرة في مواقف عاطفية تثير في نفس أبي هريرة ذكريات جدّهماﷺ، فيروي البيهقي بأنّ أبا هريرة قال للحسنعليه السلام: ارفع قميصك عن بطنك حتّى أقبّل حيث رأيت رسول اللهﷺ يقبّل، فرفع الحسنعليه السلام قميصه فقبّل سرّته.[2] ومن هذه النصوص التي تعبّرعن درجة العاطفة التي يحملها النبيّﷺ تجاه الحسنينعليهما السلام علّق السيّد جعفر العاملي فيقول: الكلّ يعلم أنّهﷺ

١ـ ومن هذا يروى عن عبد الله بن بريدة أنّ أباه حدّثه قال: رأيت رسول اللهﷺ يخطب فأقبل حسن وحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل رسول اللهﷺ فأخذهما فوضعهما في حجره فقال: صدق الله ورسوله. إنّما أموالكم وأولادكم فتنة، رأيت هذين فلم أصبر. ثمّ أخذ في خطبته. **سنن ابن ماجة** ٢: ١١٩٠ ح٣٦٠٠ باب لبس الأحمر. ونحوهذه الرواية جاءت في المسانيد والمجاميع الحديثية روايات بعضها مقاربة لها في ألفاظها وبعضها تغايرها، ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمر أنّه قال: رأيت رسول اللهﷺ على المنبر يخطب الناس، فخرج الحسن بن عليّعليه السلام في عنقه خرقة يجرّها، فعثر فيها فسقط على وجهه، فنزل رسول اللهﷺ عن المنبر يريده، فلمّا رآه الناس أخذوا الصبي فأتوه به فحمله، فقالﷺ: قاتل الله الشيطان إنّ الولد فتنة، والله ما علمت أنّي نزلت عن المنبر حتّى أوتيت به. وفي خبر رواه حبّة العرني وأبي البختري عن سلمان قال: كنّا حول النبيّﷺ فجاءت أمّ أيمن فقالت: يا رسول الله، لقد ضلّ الحسن والحسينعليهما السلام . . فقال رسول الله: قوموا فاطلبوا ابنَيّ. قال: وأخذ كلّ رجل تجاه وجهه وأخذت نحو النبيّﷺ فلم يزل حتّى أتى سفح جبل، وإذا الحسن والحسينعليهما السلام ملتزق كلّ واحد منهما صاحبه، وإذا شجاع (أي ثعبان) قائم على ذنبه يخرج من فيه شبه النار، فأسرع إليه رسول اللهﷺ فالتفت مخاطباً لرسول اللهﷺ، ثمّ انساب فدخل بعض الأحجرة، ثمّ أتاهما فأفرق بينهما ومسح وجههما وقال: بأبي وأمّي أنتما ما أكرمكما على الله! ثمّ حمل أحدهما على عاتقه الأيمن والآخر على عاتقه الأيسر، فقلت: طوباكما، نعم المطيّة مطيتكما، فقال رسول اللهﷺ: ونعم الراكبان هما وأبوهما خير منهما. **المعجم الكبير**، للطبراني ٣: ٤٢ و٦٥ ح٢٦٢٦ وح ٢٦٧٧.

٢ـ **السنن الكبرى** ٢: ٢٣٢.

لم يكن ينطلق في مواقفه وكلّ أفعاله وتروكه من منطلق المصالح أو الأهواء الشخصية، ولا بتأثير من النزعات والعواطف، و إنّما كان عليه السلام فانياً في الله بكلّ وجوده، وبكلّ عواطفه وأحاسيسه، وبكلّ ما يملك من فكر، ومن طاقات ومواهب، فهو عليه السلام من الله كان، ومن أجل دينه ورسالته يعيش، وعلى طريق حبّه. فالله سبحانه هو البداية وهو الاستمرار وهو النهاية. الأمر الذي يعني أنّ كلّ موقف لايكون خطوة على طريق خدمة دين الله و إعلاء كلمته لا يمكن أن يصدر عنه، أيّاً كان نوعه ومهما كان حجمه. ولكن ذلك لايعني أبداً أنّه عليه السلام لم يكن يملك العواطف البشرية، والأحاسيس الطبيعية، ولا يمنحها قسطها الطبيعي في مجال التأثير الإيجابي في الحياة، أو حتّى الاستفادة المباحة منها. و إنّما نريد أن نقول: إنّه حينما يتّخذ ذلك التأثير العاطفي صفة الموقف، بإعطائه صفة العلنية وسيصبح واضحاً: أنّ ثمّة إصراراً أكيداً على إبرازه و إظهاره للملأ العام، وحتّى على المنبر أحياناً، فإنّه لا بدّ وأن يكون ذلك في خدمة الرسالة، وعلى طريق الهدف الأسمى. بل وحتّى على صعيد منحه عليه السلام أحاسيسه وعواطفه قسطها الطبيعي في التأثير في مجاله الشخصي البحت، فإنّه سيحوّلها إلى عبادة زاخرة بالعطاء، غنيّة بالمواهب، تمنحه المزيد من الطاقة، وتؤثر المزيد من القرب من الله سبحانه وتعالى.[1]

الإمامة و الدور السياسي للإمام

يعتقد الشيعة بأنّ النبوّة والإمامة كالأخوين[2] فكما أنّ النبوّة من قبل الله تعالى فكذلك الخلافة والإمامة من قبله تعالى. والإمامة قائمة على أربعة أمور: نصّ الله،

١ـ الحياة السياسية للإمام الحسن في عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الثلاثة بعده: ١٤.

٢ـ أي أنّ الإمامة رئاسة و إمرة إلهيّة كالنبوّة. البيعة ونظام الحكم في الإسلام: ٢١٦.

ونصب الرسول، والعصمة، ووصاية النبيّ إلى الوصيّ، والوصيّ إلى الوصيّ، كما أوصى النبيّ إلى عليّ، وأوصى عليّ إلى الحسن، وأوصى الحسن الى الحسين وهكذا إلى المهدي عليه السلام.[١] والاعتقاد والمعرفة بإمام الزمان[٢] يعدّ واجباً شرعيّاً كبقية الفروض الشرعية، يقول الشيخ المفيد: يجب على كلّ مكلّف أن يعرف إمام زمانه[٣] ويعتقد إمامته وفرض طاعته، وأنّه أفضل أهل عصره وسيّد قومه.[٤] وأنّهم في العصمة والكمال كالأنبياء عليهم السلام. ويعتقد أنّ كلّ رسول لله تعالى فهو نبيّ إمام، وليس كلّ إمام نبيّاً ولا رسولاً. وأنّ الأئمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حجج الله تعالى وأوليائه وخاصّة أصفياء الله، أوّلهم وسيّدهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبعده الحسن والحسين عليهما السلام، ومن ثمّ بعدهما عليّ بن الحسين عليه السلام، ثمّ محمّد بن علي عليه السلام، ثمّ جعفر بن محمّد عليه السلام، ثمّ موسى بن جعفر عليه السلام، ثمّ عليّ بن موسى عليه السلام، ثمّ محمّد بن

١- **تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار**، لعماد الدين حسن بن عليّ الطبري: ٣٨.

٢- قال المظفّر: لمّا كان الإمام هو الحجّة البالغة وجب عليه إعلام الناس بإمامته، وإقامة الأدلّة عليها عند الحاجة الماسّة، كما وجب على الأمّة معرفته وطاعته إذا عرفوه. **الإمام الصادق** عليه السلام ١: ٦٤.

٣- جاء في الأخبار عن الباقر عليه السلام: من مات ليس له إمام مات ميتة جاهلية. وقال الصادق عليه السلام: إنّ الأرض لا تصلح إلّا بإمام. ومن مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية. **المحاسن**، للبرقي ١٥٤ و ١٥٥.

٤- روى الشيخ البهائي حديثاً حسناً مسنداً إلى عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ثلاث هنّ فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه ممّا في أيدي الناس، وولاية الإمام من آل محمّد صلى الله عليه وآله. **مفتاح الفلاح**: ٢٢٤. وإضافة إلى ما كان من أحاديث وردت في إثبات حجّيتهم وطاعتهم وحقوقهم، كانت هناك أحاديث توحي بأنّ محبّتهم أمان من الفرقة، كما روي في حديث رواه القندوزي الحنفيّ بأنّ من مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة والجماعة. **ينابيع المودّة**: ٢٧، وط بيروت ١: ٩١ ح٤٤ و٢: ٣٣٣ ح٥٦ و٣: ١٤٠ ح٦٥.

عليّ عليه السلام، ثمّ عليّ بن محمّد عليه السلام، ثمّ الحسن بن عليّ عليه السلام، ثمّ الحجّة القائم بالحقّ. لا إمامة لأحد بعد النبيّ صلى الله عليه وآله غيرهم، ولايستحقّها سواهم، وأنّهم الحجّة على كافّة الأنام كالأنبياء عليهم السلام، وأنّهم أفضل خلق الله بعد نبيّه صلى الله عليه وآله، والشهداء على رعاياهم يوم القيامة، كما أنّ الأنبياء عليهم السلام شهداء الله على أممهم. وأنّ بمعرفتهم وولايتهم تقبل الأعمال، وبعداوتهم والجهل بهم يستحقّ النار.[1] ويقول الشيخ الصدوق: كلّ ما كان جائزاً في الأنبياء فهو واجب لازم في الأئمّة، حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، وذلك أنّ الأنبياء هم أصول الأئمّة ومغيضهم[2] والأئمّة هم خلفاء الأنبياء وأوصياؤهم والقائمون بحجّة الله تعالى على من يكون بعدهم، كيلا تبطل حجج الله وحدوده وشرائعه ما دام التكليف على العباد قائماً، والأمر لهم لازماً. ولو وجبت المعارضة لجاز لقائل أن يقول:إنّ الأنبياء حجج الله، فغير جائز أن يكون الأئمّة حجج الله، إذ ليسوا بالأنبياء ولاكالأنبياء، وله أن يقول أيضاً: فغير جائز أن يسمّوا أئمّة، لأنّ الأنبياء كانوا أئمّة وهؤلاء ليسوا بأنبياء، فيكونوا أئمّة كالأنبياء، وغير جائز أن يقوموا بما كان يقوم به الرسول من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من أبواب الشريعة، إذ ليسوا كالرسول ولا هم برسل. . ثمّ يقول الشيخ الصدوق موضّحاً ومبيّناً: التشاكل بين الأنبياء والأئمّة بيّن واضح، فيلزمهم أنّهم حجج الله على الخلق، كما كانت الأنبياء حججه على العباد، وفرض طاعتهم لازم كلزوم فرض طاعة الأنبياء، وذلك قول الله عزّوجلّ ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[3] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

١ـ المقنعة: ٣٢.

٢ـ وجاء في نسخة: مفيضهم، من الإفاضة. والمغيض: مجتمع الماء ومدخله في الأرض. ينظر: ترتيب جمهرة اللغة ٢: ٦٨٤ و٣: ٨١ (غيض) و(فيض).

٣ـ النساء: ٥٩.

﴿يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[١] فولاة الأمر هم الأوصياء والأئمّة بعد الرسول ﷺ، وقد قرن الله طاعتهم بطاعة الرسول، وأوجب على العباد من فرضهم ما أوجبه من فرض الرسول، كما أوجب على العباد من طاعة الرسول ما أوجبه عليهم من طاعته عزّوجلّ في قوله ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ثمّ قال ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٢]. وإذا كانت الأئمّة عليهم السلام حجج الله على من لم يلحق بالرسول ولم يشاهده، وعلى من خلفه من بعده، كما كان الرسول حجّة على من لم يشاهده في عصره، لزم من طاعة الأئمّة ما لزم من طاعة الرسول محمّد ﷺ فقد تشاكلوا واستقام القياس فيهم، وإن كان الرسول أفضل من الأئمّة فقد تشاكلوا في الحجّة والاسم والفعل والفرض، إذ كان الله جلّ ثناؤه قد سمّى الرسل أئمّة بقوله لإبراهيم ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٣] وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى أنّه قد فضّل الأنبياء والرسل بعضهم على بعض، فقال تبارك وتعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾[٤] وقال ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[٥] فتشاكل الأنبياء في النبوّة، وإن كان بعضهم أفضل من بعض، وكذلك تشاكل الأنبياء والأوصياء، فمن قاس حال الأئمّة بحال الأنبياء واستشهد بفعل الأنبياء على فعل الأئمّة فقد أصاب في قياسه واستقام له استشهاده بالذي وصفناه من تشاكل الأنبياء والأوصياء عليهم السلام. ثمّ قال الصدوق: ووجه آخر من الدليل على حقيقة ما شرحنا من تشاكل الأئمّة والأنبياء عليهم السلام أنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٦] وقال تعالى

١ـ النساء : ٨٣.

٢ـ النساء : ٨٠.

٣ـ البقرة : ١٢٤.

٤ـ البقرة : ٢٥٣.

٥ ـ الإسراء : ٥٥.

٦ ـ الأحزاب : ٢١.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانتَهُوا﴾[1] فأمرنا الله عزّوجلّ أن نهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وآله ونجري الأمور على حدّ ما أجراها رسول الله صلى الله عليه وآله من قول أو فعل، فكان من قول رسول الله صلى الله عليه وآله المحقّق لما ذكرنا من تشاكل الأنبياء والأئمّة أن قال: «منزلة عليّ عليه السلام منّي كمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» فأعلمنا رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ عليّاً ليس بنبيّ، وقد شبّهه بهارون وكان هارون نبيّاً ورسولاً، وكذلك شبّهه بجماعة من الأنبياء عليهم السلام. ثمّ قال: حدّثنا محمد بن موسى بن المتوكّل ـ رحمه الله ـ قال: حدّثنا عليّ بن الحسين السعدآبادي قال: حدّثنا أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه محمد بن خالد قال: حدّثنا عبد الملك بن هارون بن عنترة الشيباني، عن أبيه، عن جدّه، عن عبد الله بن عبّاس قال: كنّا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في سلمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في فطانته، وإلى داود في زهده فلينظر إلى هذا. قال: فنظرنا فإذا عليّ بن أبي طالب قد أقبل كأنّما ينحدر من صبب، فإذا استقام أن يشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً من الأئمّة عليهم السلام بالأنبياء والرسل، استقام لنا أن نشبّه جميع الأئمّة بجميع الأنبياء والرسل.[2] ويقول السيّد المرتضى: الإمامة في كلّ زمان لقرب الناس من الصلاح وبعدهم من الفساد عند وجود الرؤساء المهيبين. وأوجب في الإمام عصمته، لأنّه لو لم يكن كذلك لكانت الحاجة إليه فيه، وهذا يتناهى من الرؤساء، والانتهاء إلى رئيس معصوم. وواجب أن يكون أفضل من رعيته وأعلم، لقبح تقديم المفضول على الفاضل فيما كان أفضل من فيه في العقول. فإذا وجبت عصمته وجب النصّ من الله تعالى عليه وبطل اختيار الإمامة، لأنّ العصمة لا طريق للأنام إلى العلم بمن هو عليها. فإذا تقرر وجوب العصمة فالإمام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله بلا فصل أمير المؤمنين

---

١ ـ الحشر: ٧.

٢ ـ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٤ ـ ٣٧ وط جماعة المدرّسين: ٢٣ ـ ٢٥.

عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لإجماع الأمّة على نفي القطع على هذه الصفة في غيره عليه السلام ممّن ادّعى الإمامة في تلك الحال. وخبر الغدير وخبر غزوة تبوك يدلّان على ما ذكرناه من النصّ عليه، وإنّما عدل عن المطالبة والمنازعة وأظهر التسليم والانقياد للتقيّة والخوف على النفس والإشفاق من فساد في الدين لا يتلافاه.[1]

ويروي الشيخ الصدوق بإسناده عن الإمام السابع موسى بن جعفر، عن آبائه عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال:الإمام منّا لا يكون إلّا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، ولذلك لا يكون الإمام إلّا منصوصاً. فقيل له: يا ابن رسول الله، فما معنى المعصوم؟ فقال عليه السلام:هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة. والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عزّوجلّ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.[2] وفي قول نصير الدين الطوسي: لمّا كانت العصمة أمراً خفيّاً لا يطّلع عليه إلّا علّام الغيوب، لم يكن للخلق طريق إلى معرفة المعصوم، فيجب أن يكون منصوصاً عليه من قبل الله تعالى، أو من قبل نبيّ، أو من قبل إمام قبله. وعلّق السيوري على هذا بالقول:اختلف الناس في الطريق إلى تعيين الإمام بعد اتفاقهم على أنّ النصّ من الله أو من النبيّ أو من إمام قبله. فقال أهل السنّة: يحصل أيضاً بالبيعة والاختيار. وقال الزيدية بالقيام والدعوة، ويكون من الحسنين عليهما السلام أو أحدهما. وقال أصحابنا :لا يحصل إلّا بالنص لا غير، وذلك لأنّ العصمة شرط في الإمام، وهي أمر خفيّ لايطّلع عليه إلّا علّام الغيوب. وإنّما قلنا ذلك لأنّ صلاح الظاهر غير كاف في العصمة، بل لابدّ مع ذلك من صلاح الباطن، لأنّ الأعمال في عرضة الرياء والسمعة والنفاق، فلولا

---

١ ـ رسائل الشريف المرتضى، المجموعة الثالثة: ٢٠.

٢ ـ معاني الأخبار:١٣٢ معنى عصمة الإمام، والآية في سورة الإسراء: ٩.

النصّ على العصمة لم يكن لنا طريق إلى معرفتها.[١] وميّز الشيخ الطوسي مفهوم الإمامة بصفتين أو أمرين، أحدهما أنّ الإمام مقتدى به في أفعاله وأقواله من حيث قال وفعل، لأنّ حقيقة الإمام في اللغة هو المقتدى به. ومنه قيل لمن يصلّي بالناس: إمام الصلاة. ثانيهما:أنّه يقوم بتدبير الأمّة وسياستها وتأديب جناتها، والقيام بالدفاع عنها، وحرب من يعاديها، وتولية الأمراء والقضاة، و إقامة الحدود..[٢] ويروي الشيخ الصدوق أنّ محمّد بن أبي عمير سأل هشام بن الحكم عن الإمام أهو معصوم ؟فقال:نعم، فقال له:فما صفة العصمة فيه، وبأيّ شيء تعرف؟فقال هشام:إنّ جميع الذنوب لها أربعة أوجه ولا خامس لها:الحرص، والحسد، والغضب، والشهوة، فهذه منفيّة عنه لا يجوز أن يكون حريصاً على هذهِ الدنيا وهي تحت خاتمه، لأنّه خازن المسلمين، فعلى ماذا يحرص؟ولايجوز أن يكون حسوداً، لأنّ الإنسان إنّما يحسد من فوقه، وليس فوقه أحد، فكيف يحسد من هو دونه !ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا إلّا أن يكون غضبه لله عزّوجلّ، فإنّ الله عزّ وجلّ قد فرض عليه إقامة الحدود، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم ولا رأفة في دينه حتّى يقيم حدود الله عزّوجلّ، ولا يجوز له أن يتّبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة، لأنّ الله عزّوجلّ حبّب إليه الآخرة كما حبّب إلينا الدنيا، فهو ينظر إلى الآخرة، كما ننظر إلى الدنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح! وطعاماً طيّباً لطعام مرّ! وثوباً ليّناً لثوب خشن! ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية.[٣] وعلى العموم يشكّل مبدأ الإمامة ركناً أساسياً من أركان العقيدة والفكر في مذهب الشيعة الإمامية واتجاههم السياسي والفكري، وكما هو واضح فإنّ سبب تسميتهم

١ـ الأنوار الجلاليّة في شرح الفصول النصيرية: ١٥٩.

٢ـ رسالة في الفرق بين النبيّ والإمام، من مجموعة الرسائل العشر: ١١١.

٣ـ معاني الأخبار:١٣٣ باب معنى عصمة الإمام.

بالإمامية هو إيمانهم بإمامة اثني عشر إماماً من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، تكون إمامتهم للخليقة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم عليّ وولداه السبطان: الحسن والحسين، وتسعة من ذرّية الحسين عليهم السلام على التعاقب. و فهم المنهج الإمامي الإمامة الإسلامية بأنّها إمامة فكرية و إمامة سياسية بشكل متلازم ومترابط في شخص الإمام من أهل بيت النبوّة عليهم السلام، لذلك قالوا في صفة الإمام أنّه يجب أن يكون أعلم أهل زمانه، ولذلك أيضاً رفضوا إمامة المفضول [1] لأنّ الإمام حافظ للشرع وداع إلى الله تعالى ومبيّن للكتاب والسنّة، والقيّم على الخطّ الفكري، والمشخّص للمسير. وهكذا كان أئمّة أهل البيت قادة الفكر وأساتذة العلماء ومرجع الفقهاء.. وهكذا تحمل الإمامة مسؤوليتين من المسؤوليات العقيدية، هما: مسؤولية الولاية أو القيادة السياسية، ومسؤولية الإمامة الفكرية والسلوكية. [2] ومن هذا الاعتقاد يمثّل تاريخ الأئمّة امتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الإسلامية في بناء الأمّة، فعملهم من خلال هذه الحقيقة يمثّل أطروحة الإسلام في حماية مستقبل الدعوة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله. فيعتقد عامّة علماء الشيعة وجمع من مفكّريهم بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله سار بعملية التغيير خطوات مدهشة في برهة قصيرة، وكان على العملية أن تواصل طريقها الطويل بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، لأنّ طريق عملية التغيير الشامل، لم يكن في يوم من الأيّام قصيراً أو سهلاً، بل كان طريقاً طويلاً وممتدّاً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين

١ـ ذهب الإمامية إلى أنّ الإمام لابدّ وأن يكون أفضل الناس وأكملهم، لأنّ ترجيحه عن غيره وتعيينه إماماً من بين سائر الناس لابدّ وأن يكون لأمر لايوجد في غيره و إلّا كان ترجيحه بلا مرجّح. ولأنّ تقديم المفضول على الفاضل لا يقرّه العقل، لأنّ الأفضل أعرف بالواقع وأهدى إلى الحقّ، ومحلّ للثقة والاطمئنان من جميع الطبقات. **الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة**، للحسني: ٢٠٥.

٢ـ هاشم الموسوي، **التشيّع**، نشأته ـ معالمه: ١٦٣و١٧٩.

الجاهلية والإسلام.. ومن هنا جاءت أعمال الأئمّة عليهم السلام لتكمل هذا الطريق.[١] ولم يكن هذا الطريق سهلاً وخالياً من المصاعب والأشواك والشدائد التي كان يواجهها الأوصياء، الذين أريد لهم أن يواصلوا السير على هذا الطريق الشائك. ويشير أوّل وصيّ وإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى المصاعب التي تلقّاها في أوّل الطريق في كتاب بثّه همومه وأشجانه التي كانت تعصف في قلبه، عندما كان يمارس دوره الرسالي كإمام يكمل دور النبوّة قائلاً: أمّا بعد، فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين، ومهيمناً على المرسلين. فلمّا مضى عليه السلام تنازع المسلمون الأمر من بعده. فوالله ما كان يلقى في روعي[٢] ولايخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته، ولا أنّهم منحّوه عنّي من بعده! فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتّى زاح الباطل وزهق، واطمأنّ الدين وتنهنه. ثمّ يقول عليه السلام في هذا الكتاب :إنّي والله، لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض[٣] كلّها ما باليت ولا استوحشت، وإنّي من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربّي. وإنّي إلى لقاء الله لمشتاق، وحسن ثوابه لمنتظر راج، ولكنّي آسى أن يلي أمر هذه الأمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإنّ منهم الذي قد شرب فيكم

١ـ عادل الأديب، **الأئمة الاثنا عشر، دراسة تحليلية**: ٢٣.

٢ـ الروع: النفس وما خطر فيها. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٩٩ (روع).

٣ـ طلاع الأرض: أي ملؤها. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٤٥٨ (طلع).

الحرام، وجُلد حدّاً في الإسلام، وإنّ منهم من لم يسلم حتّى رُضخت له على الإسلام الرضائخ[١] فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم، وجمعكم وتحريضكم، ولتركتكم إذ أبيتم ونيتم[٢] ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت، وإلى أمصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى ! انفروا ـ رحمكم الله ـ إلى قتال عدوّكم، ولا تثّاقلوا إلى الأرض فتقرّوا بالخسف[٣] وتبوؤوا بالذلّ، ويكون نصيبكم الأخسّ، وإنّ أخا الحرب الأرق، ومن نام لم ينم عنه، والسلام.[٤] والحقّ كانت هذه معاناة ومعايشة الرجال الذين وضعوا الرسالة غايتهم ونصب أعينهم، وهم في الاصطلاح يعبّر عنهم بأهل المبادئ والرساليين. والرساليون وأهل المبادئ كانوا وما زالوا ـ في تاريخ الأديان والرسالات والأهداف العظيمة التي يكافح من أجلها الإنسان ـ يشكّلون كتلة واحدة منسجمة فيشقون ويكابدون في أوّل الطريق وآخره، فهم بين التضحية والإيثار، ونكران الذات وتناسيها، لايهمّهم مصالحهم الشخصية وحياتهم الخاصّة، بقدر ما يعنيهم تحقيق أهدافهم الرسالية والمحافظة عليها والسير بها قدماً نحو التكامل والارتقاء، وكان أهل البيت عليهم السلام يتناسخون هذا الدور في صور تكاملية متعددة تلتقي عند نقطة واحدة هي نجاح الرسالة وهداية الأمّة. ومن هذا الاعتبار والفهم لايمكن من الناحية التاريخية أن يفصل دور أيّ إمام من

١ـ يقال: رضخ فلان لفلان شيئاً من ماله، إذا أعطاه قليلاً من كثير، والاسم الرضيخة. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢ : ٥١ (رضخ).

٢ـ الونى من قولهم: ونى يني ونياً، إذا أعيا، والتقصير في العمل من التعب. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣ : ٦١٩ (ونى).

٣ـ يقال : خسف الرجل والدابّة، إذا باتا جائعين، ويقال: باتا على الخسف. وربّما استعمل الخسف في معنى الدنيئة فيقولون: رضي بالخسف، أي بالدنيئة . **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٥٢٢ (خسف).

٤ـ **نهج البلاغة**: ٤٥١ من كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولّاه إمارتها، الرقم ٦٢ .

أئمّة أهل البيت عليهم السلام عن دور من سبقه من الأئمّة، أو دور من يليه منهم، بالنظر لتكامل الأدوار والأعمال والمهمّات التي ينهضون بها. و إذا كان هناك من اختلاف بين الأدوار التي نهض بها الأئمّة عليهم السلام من أجل دفع حركة الإسلام التاريخية للأمام، فإنّ ذلك ناشئ عن الاختلاف في الظروف السياسية وأرضيّة الواقع التي تحرّكوا عليها، إضافة إلى مقتضيات الحكمة والمصلحة الإسلامية العليا، وضرورات المرحلة التي عاشوها، ولذا فإنّ لجوء الحسين بن علي عليه السلام إلى الثورة لأنّه كان يمتلك المبررات الموضوعية على أرض الواقع، وأنّ مقتضيات الحكمة والمصلحة الإسلامية تقتضي ذلك اللون من العمل، بينما كانت المبررات الموضوعية ومقتضيات الحكمة متوفّرة لإبرام الصلح مع معاوية بن أبي سفيان من قبل الإمام الحسن عليه السلام، ولو قدّر أنّ الحسنين عليهما السلام قد تبادلا المرحلة والأرضية العامة للواقع الذي عاشه كلّ منهما، لتبادلا الأدوار بالضرورة، وما ينطبق على السبطين عليهما السلام ينطبق على سائر الأئمّة الهداة عليهم السلام من ناحية مضامين الأدوار التي نهضوا بها من أجل الإسلام ومسيرته التاريخية.[١] ولذا يكون من العسف والجهل إسقاط التهم والتشكيك بالأدوار التي تبدو في ظاهرها متباينة، وهي في حقيقتها متشابهة في

١ـ عبد الزهرة عثمان محمّد، **الإمام محمد بن علي الجواد تاسع أئمّة أهل البيت عليهم السلام**: ٧١. كانت هناك وقائع جرت في حياة الأئمّة عليهم السلام، لهم فيها رؤية ونظر لم يكن يدركه كثير من أنصارهم، فحين خرج صاحب فخّ زمن الهادي العبّاسي اعتذر الإمام الكاظم عليه السلام عن مشاركته في هذه الحركة المشروعة، لأنّه كان يعلم بعواقب الأمور، كما أنّه لم يكن مأموراً بهذا الدور، ولكنّه قال لهم: اجهدوا أنفسكم في قتالهم. **أخبار فخّ**، وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس: ٣٥، ولا يعني غياب الإمام المعصوم عن ميادين الثورات عدم شرعيتها، وقد أشار محمد فاضل المسعوديّ لذلك بالقول: لاشكّ في مشروعيّة ثورة فخّ، ولم تحض ثورة بتأييد من قبل أهل البيت عليهم السلام، مثلما أيّدت هذه الثورة، لكنّ الإمام الكاظم عليه السلام لم يشارك فيها. **العبد الصالح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام**: ٢٨٢.

غاياتها الباطنة البعيدة، والسيرة التي سار عليها كلّ نبي معصوم بما أسند له من دور تشابه لحدّ كبير دور كلّ إمام معصوم في هداية الخلق وتغيير المجتمع ودفعه نحو الصلاح والرشاد، وتأكيد رسالة التوحيد ونبذ الشرك والإلحاد، وبسط الأمن والعدل في الأرض، وتندرج ضمن هذه الأهداف مواجهة انحراف السلطة السياسية وظلمها للعباد والتي تمثّلت بالملوك والسلاطين الذين عاصروهم، فليس كلّ نبيّ كان يحمل سيفه على عاتقه ويروم تغيير مجتمعه بالقوّة والمجاهدة الحربية، فعيسى عليه السلام لم يصنع جيشاً من الحواريين لمقاتلة طواغيت زمانه، ولم يحدّثنا القرآن الكريم أو العهد القديم أو الجديد عن حروب وجيوش أعدّها عيسى عليه السلام لمنازلة جبابرة عصره، وقل مثل ذلك عن نوح عليه السلام أو إبراهيم عليه السلام أو لوط عليه السلام أو زكريا عليه السلام أو إدريس عليه السلام أو دانيال عليه السلام.. وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى. والأئمّة المعصومون عليهم السلام شأنهم شأن هؤلاء الذين كابدوا وجاهدوا إلى تحقيق أهداف رسالية عظيمة كانت نصب أعينهم.. فالأنبياء كانت لهم أعصر وظروف يتحرّكون فيها ويتعاملون معها لتحقيق أهدافهم وغاياتهم، ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام بعيداً أو غافلاً عن تجارب هؤلاء الأنبياء الذين أعدّهم الله لأداء أدوارهم الرسالية، فالمخزون التاريخي الذي كان يمتلكه أوقفه على أداء دور المعاهدة وعدم الاحتكام إلى السلاح لممارسة دوره في الإيقاء على الرسالة السماوية حيّة نابضة وهداية أمة جدّه صلى الله عليه وآله...[1].

١ـ روى الكليني عن الصادق عليه السلام في خبر الوصيّة.. أنّ الحسن عليه السلام فتح الخاتم الثاني ومضى لما أمر به فيها(أي المصالحة)، فلمّا توفّي الحسن عليه السلام ومضى فتح الحسين عليه السلام الخاتم الثالث فوجد فيها أن قاتل فاقتل وتقتل، واخرج بأقوام للشهادة، لا شهادة لهم إلّا معك. ففعل عليه السلام.. وعن الباقر عليه السلام.. يعلم صمت من صمت منّا. أصول الكافي١: ٢٧٩ و٢٨١ ح١ و٣.

بيعة الحسن عليه السلام والدور السياسي الذي اقتضاه زمانه في المصالحة

ارتبطت إمامة الحسن عليه السلام وبيعته وخلافته بتاريخ واحد متّفق عليه بين المؤرّخين، ففي شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة بويع الحسن عليه السلام بعد شهادة أبيه عليّ عليه السلام بيومين.[1] وفي خبر آخر أنّه بويع له عليه السلام يوم مات أبوه عليه السلام، وأقام بعد المبايعة بالكوفة إلى ربيع الأوّل من سنة إحدى وأربعين[2] وكانت الظروف التي أعقبت وفاة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام صعبة ومعقّدة، إذ لا زالت الحرب قائمة مع معاوية بن أبي سفيان، وفي هذه الظروف بايع أهل الكوفة الحسن ابن عليّ عليه السلام بالخلافة، ولذلك لم يكن لدى الحسن عليه السلام متّسع من الوقت لإجراء تغييرات إدارية أو تغيير الولاة، فأقرّ عمّال أبيه على ولاياتهم، عدا الكوفة، فقد ولي عليها المغيرة بن نوفل. أمّا على المدائن فقد استمرّ سعد بن مسعود الثقفي عاملاً عليها، وقد كان عاملاً للخليفة عليّ بن أبي طالب عليه السلام على ذات المدينة، وقد استبقاه الحسن عليه السلام إبّان خلافته، واستمرّ يشغل منصبه الإداري إلى نهاية عهد الحسن عليه السلام وتنازله لمعاوية، أمّا على البصرة فقد جاء في بعض الروايات، بأنّ

١ـ **مروج الذهب** ٢: ٤٢٦ ط دار الأندلس.

٢ـ **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، للديار بكري ٢: ٣٨٩.

عبد الله بن عبّاس كان والياً عليها من قبل الخليفة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبقي عليه لغاية عقد الصلح مع معاوية بن أبي سفيان، ثمّ خرج من البصرة معتزلاً السياسة قاصداً مكّة المكرّمة، متفرّغاً للعلم والتعليم، أمّا ولاية فارس فقد كانت لزياد بن أبيه ـ ابن سفيان في آخر الأمر بعد ادّعاء معاوية بأنّه ابن أبيه ـ وكان عليّ عليه السلام قد بعثه إلى فارس لتأديب بعض المتمرّدين بها، فظفر بهم وتمكّن من القضاء عليهم، ثمّ ولّاه بعد ذلك على فارس، فاستمرّت ولايته لغاية عقد الصلح مع معاوية، كما أبقى الحسن عليه السلام العمّال أنفسهم الذين كانوا يعملون لوالده الخليفة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقد استبقى عبيد الله بن أبي رافع كاتباً، وكذلك استبقى شريح بن الحارث قاضي الكوفة، وأبقى معقل بن قيس الرياحي على الشرطة.[1] وكانت جموع المسلمين قانعة وراضية بخلافته، لذا ينقل المؤرّخون والباحثون المبايعة الطوعية للمسلمين واستعدادهم للدفاع عنه والمقاتلة بين يديه عليه السلام، يقول الشيخ عبد الله الشبراوي: بايعه أكثر من أربعين ألفاً من أهل الكوفة على الموت، وبقي نحو سبعة أشهر، وقيل ستّة أشهر خليفة بالحجاز واليمن وخراسان وغير ذلك، وأطاعه الناس وأحبّوه أكثر من حبّهم لأبيه. ثمّ سار في أهل العراق وسار معاوية في أهل الشام، فلمّا التقى الجيشان نظر الحسن إليهم فإذا أمثال الجبال من الحديد، فقال: أيقتل هؤلاء بعضهم بعضاً على ملك من الدنيا لا حاجة لي به! وأرسل إلى معاوية بتسليم الخلافة له لا من قلّة ولا من ذلّة[2] وأوّل من بايعه قيس بن سعد الأنصاري وقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عزّوجلّ، وسنّة نبيّه، وقتال المحلّين. فقال له الحسن عليه السلام: على كتاب الله، وسنّة رسوله، فإنّهما يأتيان على كلّ شرط. فبايعه الناس، وكان الحسن عليه السلام يشترط عليهم: إنّكم

١ـ سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢٦٠.

٢ـ الإتحاف بحبّ الأشراف: ٣٥.

مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت. فارتابوا بذلك وقالوا:ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتال. ويعود هذا الموقف بعد أن كان هناك جيش قوامه أربعون ألفا من عسكر عليعليه‌السلام بايعوه على الموت لمّا ظهر ما كان يخبرهم به أهل الشام عن تجهزهم للمسير في جيش أعدّه معاوية لمقاتلتهم، فقتل عليّعليه‌السلام في هذه الفترة التي كان قد عزم على منازلة معاوية و إنهاء تمرّده على الخلافة الشرعية، فلمّا قتلعليه‌السلام وبايع الناس ولده الحسنعليه‌السلام بلغه مسير معاوية في أهل الشام إليه فتجهّز هو والجيش الذين كانوا بايعوا عليّاًعليه‌السلام وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية، وكان قد نزل مسكن، فوصل الحسنعليه‌السلام إلى المدائن وجعل قيس بن سعد ابن عبادة الأنصاري على مقدّمته في اثني عشر ألفاً، وقيل: بل كان الحسنعليه‌السلام قد جعل على مقدّمته عبد الله بن عبّاس، فجعل عبد الله على مقدّمته في الطلائع قيس بن سعد بن عبادة، فلمّا نزل الحسنعليه‌السلام المدائن نادى مناد في العسكر:ألا إنّ قيس بن سعد قتل فانفروا، فنفروا بسرادق الحسنعليه‌السلام فنهبوا متاعه حتّى نازعوه بساطاً كان تحته، فازداد لهم بغضاً ومنهم ذعراً، ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عمّ المختار بن أبي عبيد، فقال له المختار، وهو شاب:هل لك في الغنى والشرف ؟قال:وما ذاك ؟قال:تستوثق من الحسنعليه‌السلام وتستأمن به إلى معاوية، فقال له عمّه:عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأوثقه! بئس الرجل أنت. فلمّا رأى الحسنعليه‌السلام تفرّق الأمر عنه كتب إلى معاوية.[1] ويقول الحافظ ابن كثير: ولمّا رأى الحسن بن عليّعليه‌السلام تفرّق جيشه عليه مقتهم وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان ـ وكان قد ركب في أهل الشام فنزل مسكن ـ يراوضه على الصلح بينهما، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، فقدما عليه الكوفة

---

١ ـ الكامل في التاريخ ٣: ٢٦٧ و٢٧١.

فبذلا له ما أراد من الأموال، فاشترط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم، وأن يكون خراج دار أبجرد له، وأن لا يسبّ عليّ عليه السلام وهو يسمع، فإذا فعل ذلك نزل عن الأمرة لمعاوية، ويحقن الدماء بين المسلمين. فاصطلحوا على ذلك، واجتمعت الكلمة على معاوية.[١] ويصف الشيخ الصدوق الأوضاع الخارجية المحيطة بالإمام الحسن عليه السلام فيقول: دسّ معاوية إلى عمرو بن الحريث، والأشعث بن قيس، وإلى حجر بن الحجر، وشبث ابن ربعي دسيساً أفرد كلّ واحد منهم بعين من عيونه: أنّك إن قتلت الحسن بن عليّ فلك مائتا ألف درهم، وجند من أجناد الشام، وبنت من بناتي. فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلأم ولبس درعاً وكفّرها، وكان يحترز ولايتقدّم للصلاة بهم إلّا كذلك، فرماه أحدهم في الصلاة بسهم فلم يثبت فيه لما عليه من اللأمة، فلمّا صار في مظلم ساباط ضربه أحدهم بخنجر مسموم فعمل فيه الخنجر، فأمر عليه السلام أن يعدل به إلى بطن جُرَيْحَى وعليها عمّ المختار بن أبي عبيد مسعود بن قيلة، فقال المختار لعمّه: تعال حتّى نأخذ الحسن ونسلّمه إلى معاوية، فيجعل لنا العراق، فبدر بذلك الشيعة من قول المختار لعمّه فهمّوا بقتل المختار، فتلطّف عمّه لمساءلة الشيعة بالعفو عن المختار ففعلوا، فقال الحسن عليه السلام: ويلكم! والله إنّ معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي، وإنّي أظنّ أنّي إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين لدين جدّي صلى الله عليه وآله، وأنّي أقدر أن أعبد الله وحدي ولكنّي كأنّي أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعله الله لهم فلا يسقون ولا يطعمون، فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديكم «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» فجعلوا يعتذرون بما لا عذر لهم فيه، فكتب الحسن عليه السلام من فوره إلى معاوية: أمّا بعد، فإنّ خطبي انتهى إلى اليأس من حقّ أحييه وباطل أميته، وخطبك

١ـ البداية والنهاية ٨ : ١٦.

خطب من انتهى إلى مراده، و إنني أعتزل هذا الأمر وأخليه لك، و إن كان تخليتي إيّاه شرّاً لك في معادك. ولي شروط أشرطها لا تبهظنّك إن وفيت لي بها بعهد ولاتخف إن غدرت. وكتب الشرط في كتاب آخر فيه يمنّيه بالوفاء وترك الغدر، وستندم يا معاوية كما ندم غيرك ممّن نهض في الباطل أو قعد عن الحقّ حين لم ينفع الندم والسلام.[١] ويصف أحمد بن داود الدينوري الوضع العسكري والسياسي آنذاك فيقول: ولمّا بلغ معاوية قتل عليّ عليه السلام تجهّز، وقدّم أمامه عبد الله بن عامر بن كريز فأخذ على عين التمر، ونزل الأنبار يريد المدائن، وبلغ ذلك الحسن بن عليّ عليه السلام وهو بالكوفة، فسار نحو المدائن لمحاربة عبد الله بن عامر بن كريز، فلمّا انتهى إلى ساباط رأى من أصحابه فشلاً وتواكلاً عن الحرب، فنزل ساباط وقام فيهم خطيباً ثمّ قال:أيّها الناس، إنّي قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإنّي ناظر لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردّوا عليّ رأيي، إنّ الذي تكرهون من الجماعة أفضل ممّا تحبّون من الفرقة، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عن القتال، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون. فلمّا سمع أصحابه ذلك نظر بعضهم إلى بعض، فقال من كان معه ممّن يرى رأي الخوارج:كفر الحسن كما كفر أبوه من قبله. فشدّ عليه نفر منهم، فانتزعوا مطرفه عن عاتقه، فدعا بفرسه فركبها ونادى :أين ربيعة وهمدان ؟ فتبادروا إليه ودفعوا عنه القوم. ثمّ ارتحل يريد المدائن، فكمن له رجل ممّن يرى رأي الخوارج، يسمّى الجرّاح بن قبيصة من بني أسد بمظلم ساباط، فلمّا حاذاه الحسن عليه السلام قام إليه بمغول فطعنه في فخذه. وحمل على الأسدي عبد الله بن خطل وعبد الله بن ظبيان فقتلاه. ومضى الحسن عليه السلام عنه مثخناً حتّى دخل المدائن، ونزل القصر الأبيض وعولج حتّى برأ، واستعدّ للقاء ابن عامر. وأقبل معاوية حتّى وافى الأنبار، وبها قيس ابن سعد بن عبادة من قبل

١ـ علل الشرائع: ٢٢٠.

الحسن عليه السلام، فحاصره معاوية وخرج الحسن فواقف عبد الله بن عامر، فنادى عبد الله بن عامر: يا أهل العراق، إنّي لم أر القتال، و إنّما أنا مقدّمة معاوية، وقد وافى الأنبار في جموع أهل الشام فأقرئوا أبا محمّد -يعني الحسن- منّي السلام وقولوا له:أنشدك الله في نفسك وأنفس هذه الجماعة التي معك. فلمّا سمع ذلك الناس انخذلوا وكرهوا القتال، وترك الحسن عليه السلام الحرب وانصرف إلى المدائن وحاصره عبد الله بن عامر بها. ولمّا رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل إلى عبد الله بن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلّم له الخلافة، وكانت الشرائط: ألّا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة، وأن يؤمّن الأسود والأحمر، ويحتمل ما يكون من هفواتهم، ويجعل له خراج الأهواز مسلّماً في كلّ عام، ويحمل إلى أخيه الحسين بن عليّ عليه السلام في كلّ عام ألفي ألف، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس. فكتب عبد الله بن عامر بذلك إلى معاوية . فكتب معاوية جميع ذلك بخطّه وختمه بخاتمه، وبذل عليه له العهود المركّبة والأيمان المغلّظة. وأشهد على ذلك جميع رؤساء الشام ووجّه به إلى عبد الله بن عامر فأوصله إلى الحسن عليه السلام فرضي به. وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح ويأمره بتسليم الأمر إلى معاوية والانصراف إلى المدائن. فلمّا وصل الكتاب بذلك إلى قيس بن سعد قام في الناس فقال:أيّها الناس، اختاروا أحد الأمرين، القتال بلا إمام، أو الدخول في طاعة معاوية. فاختاروا الدخول في طاعة معاوية، فسار حتّى وافى المدائن وسار الحسن بالناس من المدائن حتّى وافى الكوفة، ووافاه معاوية بها فالتقيا فوكّد عليه الحسن عليه السلام تلك الشروط والأيمان. ثمّ سار الحسن عليه السلام بأهل بيته حتّى وافى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله.[1] والمؤرّخ شمس الدين الذهبي يصف حركة الإمام الحسن عليه السلام بشكل موجز فيقول:لمّا استشهد الإمام عليّ عليه السلام عمد أهل العراق إلى ابنه الحسن عليه السلام

١ـ الأخبار الطوال: ٢١٦ ـ٢١٨ .

فبايعوه وأشاروا عليه بالمسير ليأخذ الشام من معاوية، وسار معاوية بجيش الشام لقصده، فلمّا تقارب الجيشان رأى الحسن عليه السلام أنّ المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال، فراسل معاوية لينزل له عن الأمر، وليكون وليّ العهد من بعده، وأن يمكّنه من بيت المال ليأخذ منه حاجته، ففرح معاوية وأجاب إلى ذلك، فخلع الحسن عليه السلام نفسه وسلّم الأمر إلى معاوية وصالحه ودخل هو ومعاوية الكوفة، وسمّي عام الجماعة، وأعطاه معاوية أربع مئة ألف درهم.[١] وجاء في رواية الديار بكري: فلمّا تقارب الجيشان وتراءى الجمعان بموضع يقال له: مسكن بناحية الأنبار من أرض السواد علم الحسن عليه السلام أن لن تغلب إحدى الفئتين حتّى يذهب أكثر الأخرى، فرأى أنّ المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال، فكتب إلى معاوية يراسله بأنّه يصير الأمر إليه، وينزل عنه على أن يشترط عليه أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء ممّا كان في أيّام أبيه، وأن يكون ولي العهد من بعده، وأن يمكّنه من بيت المال ليأخذ حاجته منه، ففرح معاوية وأجاب إلى ذلك إلّا أنّه قال: إلّا عشرة أنفس لا أؤمنهم، فراجعه الحسن عليه السلام فيهم فكتب إليه معاوية: إنّي قد آليت أنني متى ظفرت بقيس بن سعد بن عبادة أن أقطع لسانه ويده، فراجعه الحسن عليه السلام: إنّي لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً وغيره بتبعة قلّت أو كثرت. فبعث إليه معاوية برقّ أبيض وقال له: اكتب ما شئت فيه، فأنا ألتزمه. فاصطلحا على ذلك، فكتب الحسن عليه السلام كلّ ما اشترط عليه من الأمور المذكورة، واشترط أن يكون له الأمر بعده[٢] ويصف المسعودي أجواء البيعة التي كانت للحسن عليه السلام فيقول: وقام أبو محمد بأمر الله جلّ وعلا، واتّبعه المؤمنون وأتاه الناس فبايعوه وقالوا: يا ابن رسول الله، نحن السامعون المطيعون لك، قال عليه السلام: كذبتم، فوالله ما وفيتم لمن

---

١ ـ دول الإسلام ١: ٣٧.

٢ ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ٢: ٢٩٠.

كان خيراً منّي، فكيف تفون لي وكيف أطمئنّ إليكم، إن كنتم صادقين فموعدنا بيني وبينكم المعسكر في المدائن، فركب وتخلّف عنه أكثر الناس فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وذكّرهم بأيّام الله، ثمّ قال:أيّها الناس قد غررتموني كما غررتم من كان قبلي، فلا جزاكم الله عن رسول الله وأهل بيته خيراً، مع أيّ إمام تقاتلون بعدي مع الظالم الكافر الزنديق الذي لم يؤمن بالله ولا برسوله قطّ، ولا أظهر الإسلام ومن تقدّمه من الشجرة الملعونة في كتاب الله بني أميّة إلّا خوفاً من سيوف الحقّ، ولو لم يبق منهم إلّا عجوز درداء، لبغت لدين الله الغوايل. ثمّ نزل ووجّه برجل من كندة في أربعة آلاف على مقدّمته لحرب معاوية، وأمره أن يعسكر بالأنبار ولايحدث شيئاً حتّى يأتيه أمره، فلمّا نزل الكندي الأنبار بعث إليه معاوية رسولاً يعده ويمنّيه ويبذل له الرغائب من المال وحطام الدنيا، وأن يولّيه من أعمال الشام والجزيرة ما يختاره ويسوقه مال ما يقلّده. وعجّل إليه خمسين ألف درهم صلة له ومعونة على سفره، فقبض الكندي المال ومضى إلى معاوية، فقام أبو محمّد عليه السلام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:يا أيّها الناس، هذا فلان الكندي قدّمته بين يدي الله لمحاربة عدوّ الله وابن آكلة الأكباد فبعث إليه بمال ووعده ومنّاه حطام الدنيا ومتاعها فباع دينه وآخرته بدنيا زائلة غير باقية، وقد توجّه إليه وقد أخبرتكم مرّة أخرى أنّه لا وفاء لكم ولا ذمّة ولا خير عندكم، وأنّكم عبيد الدنيا، وأنّي موجّه مكانه رجلاً وأنّي لأعلم أنّه يفعل فعل صاحبه غير مفكر في عاقبة أمره ومرجعه ولا مراقب لله في دينه. وبعث رجلاً من مراد في أربعة آلاف وتقدّم إليه بمشهد من الناس وحذّره الغدر والنكث، فلمّا صار إلى الأنبار أتاه رسول معاوية بمثل ما أتى الكندي من الصلة والمواعيد، فتوجّه إليه مؤثراً لدنياه على آخرته وبإيعاده بالتافه القليل الفاني، ومختاراً على الجنّة، فقام أبو محمّد عليه السلام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: قد عرّفتكم أنّكم لا تفون بعهد ولاتستأمنون إلى عقد، وقد غدر المرادي الذي اخترتموه وقبله ما اخترتم

الكندي، فقام أناس فقالوا:إن كان الرجلان غدرا فنحن ننصح ولانغدر، فقال لهم: كلّا، وإنّي أعذر بيني وبينكم مع علمي بسوء ما تبطنون وتنطوون عليه، وموعدكم عسكري بالنخيلة، ثمّ خرج فعسكر بالنخيلة وأقام به عشرة أيّام، فلم يلحق به منهم إلّا عدد يسير، فانصرف إلى الكوفة وقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:يا عجباً من قوم لا حياء لهم ولا دين من غدرة بعد غدرة، أما والله لو وجدت أعواناً لقمت بهذا الأمر أيّ قيام، ونهضت به أيّ نهوض، وأيم الله لا رأيتم فرجاً ولا عدلاً أبداً مع ابن آكلة الأكباد وبني أميّة وليسومنّكم سوء العذاب حتّى تتمنّوا أن يليكم عبد حبشي مجدع، فأُفٍ لكم وبعداً وترحاً، يا عبيد الدنيا وموالي الحطام. ثمّ نزل وهو يقول:وأعتزلكم وما تدعون من دون الله، فاتّبعه من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام عدد يسير إشفاقاً عليه وحقناً لدمه[1] وفي رواية المجلسي عن الخرائج والجرائح ذكر مثل هذه الرواية إلّا أنّه جاء في آخرها:و كتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية :فإنّا معك، و إن شئت أخذنا الحسن وبعثناه إليك، ثمّ أغاروا على فسطاطه وضربوه بحربة، وأخذ مجروحاً ثمّ كتب جواباً لمعاوية :إنّما هذا الأمر لي، والخلافة لي ولأهل بيتي، و إنّها لمحرّمة عليك وعلى أهل بيتك، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله والله، لو وجدت صابرين عارفين بحقّي غير منكرين، ما سلّمت لك ولا أعطيتك ما تريد. وانصرف إلى الكوفة.[2] ويروي الحسن الديلمي أنّ الحسن عليه السلام خطب في سياق هذه الأحداث خطبة قال فيها:أما والله، ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلّة ولا قلّة، ولكن كنّا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم تتوجّهون معنا ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم، فكنّا لكم وكنتم لنا، وقد صرتم اليوم علينا، ثمّ أصبحتم تعدّون قتيلين: قتيلاً بصفّين

---

١ ـ إثبات الوصيّة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ١٣٤.

٢ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٤٥.

تبكون عليه، وقتيلاً بالنهروان تطلبون بثأره، فأمّا الباكي فخاذل، وأمّا الطالب فثائر. وإنّ معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الحياة قبلناه منه، وأغضضنا على القذى، وإن أردتم الموت بذلناه في ذات الله وحاكمناه إلى الله. فنادى القوم بأجمعهم:بل البقية والحياة.[١]

وفي رواية الطبري :فلمّا رأى الحسن عليه السلام تفرّق الأمر عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح، وبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فقدما على الحسن عليه السلام بالمدائن فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها، ثمّ قام الحسن عليه السلام في أهل العراق فقال:يا أهل العراق، أنّه سخى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إيّاي، وانتهابكم متاعي. ودخل الناس في طاعة معاوية، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس. وروى الطبري زيادة أخرى على هذا الخبر جاء فيها: وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان، وقال الحسن للحسين عليهما السلام ولعبد الله بن جعفر:إنّي قد كتبت إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان. . . فلمّا انتهى كتاب الحسن بن عليّ عليه السلام إلى معاوية، أرسل معاوية عبد الله ابن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فقدما المدائن وأعطيا الحسن عليه السلام ما أراد. فكتب الحسن عليه السلام إلى قيس بن سعد وهو على مقدّمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس بن سعد في الناس، فقال:يا أيّها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام، قالوا:لا، بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة، فبايعوا لمعاوية، وانصرف عنهم قيس بن سعد[٢] وفي رواية شمس الدين الذهبي:كان قيس مع عليّ عليه السلام في مقدّمته ومعه خمسة آلاف قد حلقوا

١ـ إعلام الدين بصفات المؤمنين: ٢٩٢.

٢ـ تاريخ الأمم والملوك ٤: ١٢٢.

رؤوسهم بعدما مات عليّ عليه السلام، فلمّا دخل الحسن عليه السلام في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل وقال لأصحابه: إن شئتم جالدت بكم أبداً حتّى يموت الأعجل، و إن شئتم أخذت لكم أماناً. فقالوا: خذ لنا أماناً، فأخذ لهم، ولم يأخذ لنفسه خاصّة [١] وقد كانت الأوضاع العامة للفريقين المتحاربين تنذر بوقوع كارثة ومأساة كبرى، لايمكن تقدير خسائرها الباهضة، إلّا لمن عايش تلك الظروف والمناخات التاريخية، وربّما قارب الصورة الأديب الكاتب كامل سليمان في وصفه للفريقين بالقول: لقد كان تحفّز الفريقين بالغاً أوّل الأمر، لرسوخ الإيمان في نفوس المخلصين من حزب الحسن عليه السلام، ولهيام الحزب الثاني بالملك والسلطان. وكان الأمر ينذر بواقعة أليمة تدع الأمّة أشلاء، وتضعفها في عيون أعدائها وحسّادها، وتلك نتيجة لا يجوز أن تكون. . وقد نظر الحسن إلى يوم التجييش، فرأى فريقاً من قوّاده ينقض العهد ويتّصل بمعاوية سرّاً أوجهراً فخشي أن تتساوى كفّتا القوّة والمقاومة فتقترب نهاية الدين بالتقاء الجمعين، خصوصاً وهو ينطلق من الكوفة التي كانت إبّان القرن الأوّل من الهجرة إقليماً يخضع بطبيعته جميع قوى الإنسان، ويؤثّر على خططه ويضطرّه إلى تحوّل فسيولوجي بالنظر لطبيعتها ومناخها وأمزجة أهلها، و إلى تحوّل عقلي بالنسبة إلى ما تحتّمه قضاياها وفروضها، وقد علم ذلك فخطر الصلح في نفسه لأوّل مرّة، كيف لا والإسلام يواجه خطر أعدائه إلى جانب خطر المفروضين عليه باسمه. . فتخوّفه من انحلال مجتمعه بتاتاً، ألجأه إلى ترك الحكم، وصرفه إلى الاهتمام ببناء النفوس بناء أدبياً سامياً، ليداوي أمراض الناس ويعالج آلامهم بما يسكّن الأوجاع ويقرّب من القوّة الخلقية الرفيعة التي توصل إلى الانبعاث في المستقبل، أي يوم يوجد في الناس وجدان اجتماعي صحيح. . ولم تكن هذه الأشياء وحدها نقطة الارتكاز في أسباب الصلح، ولن نرى هناك جميع الأسباب،

١ـ سير أعلام النبلاء ٣: ١١٠.

ولانحن طويناها في بحوثنا الماضية، ولكنّها موزّعة في ما ذكرناه عن بيئة الحسن وحزبه وظروفه، وعن ظروف معاوية وبيئته وأنصاره، يضاف إلى ذلك رغبة الحسن عليه السلام في تقديم عدوّه إلى الناس بوجهه الصحيح وعقليته الوثنية. .[١] وقد أبان ذلك لأبي سعيد عقيصا حين قال للحسن عليه السلام :يا ابن رسول الله، لم داهنت معاوية وصالحته، وقد علمت أنّ الحقّ لك دونه، وأنّ معاوية ضالّ باغ ؟ فقال الحسن عليه السلام :يا أبا سعيد، ألست حجّة الله ـ تعالى ذكره ـ على خلقه، و إماماً عليهم أبي عليه السلام ؟فقال أبو سعيد:بلى، فقال الحسن عليه السلام :ألست الذي قال لي رسول الله ولأخي: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟قال أبو سعيد:بلى، قال الحسن عليه السلام : فأنا إذن إمام لو قمت، وأنا إمام إذ لو قعدت، يا أبا سعيد، علّة مصالحتي لمعاوية علّة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكّة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفّار بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفّار بالتأويل، يا أبا سعيد، إذا كنت إماماً من قبل الله ـ تعالى ذكره ـ لم يجب أن يسفّه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة، و إن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً، ألا ترى الخضر عليه السلام ، لمّا خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتّى أخبره فرضي، هكذا أنا، سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلّا قتل[٢] ولا يخفى على الباحث المنصف أنّ الإمام الحسن عليه السلام قد تولّى مسؤولية الخلافة في مناخ قلق وغير مستقرّ، وفي ظروف معقّدة قاسية منها:أنّ الحسن عليه السلام بدأ حكمه مع جماهير لا تؤمن إيماناً واضحاً كاملاً برسالية المعركة وأهدافها، ولا تتجاوب دينياً و إسلامياً مع متطلّبات هذه المعركة، وهذه الجماهير تتوزّع في تلك الفترة على أحزاب أربعة

١ـ الحسن بن علي عليه السلام دراسة وتحليل: ١٠٥.

٢ـ علل الشرائع: ٢١١.

هي: ١ ـ الحزب الأموي: ويضمّ هذا الحزب عناصر قويّة تتمتّع بنفوذ وكثرة في الأتباع، وهؤلاء عملوا على نصرة معاوية في أوساط شيعة الحسن عليه السلام، وكانوا بمثابة جواسيس وعيون على تحرّك الإمام الحسن عليه السلام.

٢ ـ الخوارج: وكانوا أكثر أهل الكوفة لجاجة على الحرب، حتّى إنّهم اشترطوا على الحسن عند بيعتهم له حرب الحالّين الضالّين فرفض، فأتوا إلى الحسين عليه السلام مبايعين فقال لهم: معاذ الله أن أبايعكم ما دام الحسن حيّاً. عندئذ لم يجدوا بدّاً من مبايعة الحسن عليه السلام، وهؤلاء تعاونوا مع الحزب الأموي على حياكة المؤامرات الخطيرة والمناقضة لخطّة الحسن عليه السلام.

٣ ـ الشكّاكون: وهم المتأثّرون بدعوة الخوارج من دون أن يكونوا منهم، فهم المذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ويغلب على طبعهم الانهزام.

٤ ـ الحمراء ـ وهم شرطة زياد ـ طابعهم العام أنّهم جنود المنتصر وسيوف المتغلّب، بلغ من استفحال أمرهم آنذاك أن نسبوا الكوفة إليهم فقالوا: كوفة الحمراء.[١] وبمواجهة هؤلاء جميعاً كان أتباع الحسن عليه السلام الذين هرعوا إلى مبايعته بعد وفاة أبيه عليّ عليه السلام، وكانوا هم الأكثر عدداً في الكوفة، ولكن دسائس الآخرين وفتنتهم كانت تعمل دائماً لإحباط أي تحرّك صادر عنهم.[٢] هكذا كانت الجماعات والكتل تحمل تصوّرات ورؤى متفاوتة، فالتكوين السكّاني والسياسي لجماهير العراق هنا لم يكن متجانساً أو منسجماً مع نفسه، وهناك من الباحثين

---

١ ـ يذكر أنّه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف ممّن يسمّون جند شاهنشاه طلبوا الصلح من سعد بن أبي وقّاص وطلبوا أن يسمح لهم أن ينزلوا حيث أحبّوا ويحالفوا من شاؤوا ويفرض لهم العطاء، فوافق سعد على طلبهم ونزلوا الكوفة وفرض لهم عطاء ألف ألف درهم وسمّوا حمراء ديلم. صلاح طهبوب، العصر الأموي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**: ١٥.

٢ ـ عادل الأديب، **الأئمّة الاثنا عشر**: ٩٤.

من أجمل الوضع العام الذي شجّع الحسن عليه السلام لإمضاء الصلح بالنقاط التالية: ١ـ إنّ روح الاستبداد في الرأي والاستقلال في اختيار الموقف كان الطابع الجلي الذي تتسم به بعض عناصر الجيش المهمّة في الكوفة، وليس للإمام أن يتّخذ الموقف الذي يراه مناسباً باعتباره القائد الأعلى ويستقلّ به، بل ربّما عليه في بعض الأحوال أن يخضع للرأي المعاكس له، و إلّا انقلب الموقف وانفصمت عرى الوحدة بين صفوف الجيش، ويتجلّى لنا ذلك واضحاً في موقف التحكيم الذي انهارت فيه وحدة الموقف واضطرّ الإمام إلى اختيار الموقف المضاد مرغماً. . وكذلك الأمر بالنسبة إلى ما بعد واقعة النهروان حيث دعاهم الإمام إلى التزام المعسكر ليسير بهم إلى عدوّهم في الشام وردّهم عليه بما كان عاقبته تفرّق الجيش وانتصار الرأي المعاكس.

٢ـ الذي يظهر لنا من بعض كلمات الإمام عليّ أنّ مللاً متبادلاً قد حصل بين الإمام وأهل الكوفة، فقد ملّ أهل الكوفة حكم الإمام، لأنّ فترة حكمه كانت فترة حروب وفتن استنفذت الكثير من طاقاتهم البشرية والمادية، فمن حرب الجمل إلى صفّين إلى النهروان إلى غيرها من الحروب الصغيرة التي كانت للردّ على سرايا معاوية المغيرة على الأطراف. . وقد ملّ الإمام أهل الكوفة لأنّهم لايستجيبون لما يطلبه منهم في سبيل حسم الموقف بينه وبين معاوية ملك الشام.

٣ـ الذي يظهر أنّ هناك طائفة من الرؤساء والقوّاد ممّن لم يجدوا في حكم الإمام عليّ عليه السلام ما يحقق لهم أطماعهم وأمانيّهم في الحياة حاولوا إثارة الموقف ضدّ الإمام وتخذيل الناس عن نصرته باستغلال ما خلّفته الحروب في نفوس العامّة من الإجهاد البدني والمادّي.

٤ـ يضاف إلى ذلك وجود بعض من يميل لحكومة الشام، لا لأنّه لا يجد ما يشبع أطماعه ورغباته، بل لأنّ في نفسه حقد يعتمل على الإمام عليّ عليه السلام، ومنهم

من لم يسلم من طعن الإمام وتوبيخه. . وهؤلاء ومن قبلهم كاتبوا معاوية باذلين له الطاعة وتسليم الحسن عليه السلام أسيراً لو شاء. . حين رأوا أنّ حكم الحسن عليه السلام امتداداً لحكم أبيه.

٥ـ يضاف إلى ذلك وجود طائفة الخوارج التي كان لها الدور الكبير في بلبلة الوضع العام و إثارة الفوضى بين صفوف الجيش الكوفي. ولكن هذا كلّه لا يعني انعدام الفئة المخلصة للحكم والمتفانية في سبيله، ولكنّها لا تصمد أمام الكثرة التي تمتلك زمام الأحداث وبها يتماسك موقف الحكم.[1] وقد كانت الجبهة المقابلة للحسن عليه السلام جبهة متماسكة وقوية وتتخذ قراراتها من قبل أعمدتها التي وكلت الجماهير الشامية لها أمورها لها، فلم تعرف الاضطراب والكتل المتنافرة التي كانت تظهر في جيش الحسن عليه السلام، ولم يعوز هذه الجبهة إلّا الإعلان الصريح بقبول المصالحة، التي تعني باعتقاد الشاميين إعلان الهزيمة ورفع راية الاستسلام أمام الجموع الهائلة، وربّما كان يعني لهم خطبة إمام أهل العراق هو تأكيد هذه الهزيمة ودفع صكوك الاستسلام لقادة أهل الشام، ولذا يفسّر إلحاح عمرو بن العاص وغيره في هذا المجال للإمعان في إذلال إمام أهل العراق، والتشفّي من قادة المعارك التي أنهكت الشاميين، فيروهم في ساحة الاستسلام صامتين يتسمّعون من قائدهم بلاغات المعركة السياسية الخاسرة التي تموت فيها بلاغة الرماح والسيوف. . . . وقد جاء في سياق هذه الأحداث برواية المسعودي:لمّا صالح الحسن عليه السلام معاوية لما ناله من أهل الكوفة، وما نزل به، أشار عمرو بن العاص على معاوية وذلك بالكوفة:أن يأمر الحسن عليه السلام فيقوم فيخطب الناس، فكره ذلك معاوية، وقال:ما أريد أن يخطب بالناس، قال عمرو:لكنّي أريد أن يبدو عيّه في الناس بأنّه يتكلّم في أمور لايدري ما هي، ولم يزل به حتّى أطاعه، فخرج معاوية

١ـ ينظر: محمد جواد فضل الله، **صلح الإمام الحسن عليه السلام** أسبابه ـ نتائجه: ٦٧.

فخطب الناس، وأمر رجلاً أن ينادي بالحسن بن عليّ عليه السلام فقام إليه، فقال: قم يا حسن فكلّم الناس، فقام فتشهّد في بديهته، ثمّ قال: أمّا بعد، أيّها الناس، فإنّ الله هداكم بأوّلنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإنّ لهذا الأمر مدّة، والدنيا دول، قال الله عزّوجلّ لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله «قل إن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون إنّه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين» ثمّ قال في كلامه ذلك: يا أهل الكوفة، لو لم تذهل نفسي عنكم إلّا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم لأبي، وسلبكم ثقلي، وطعنكم في بطني، وإنّي قد بايعت معاوية فاسمعوا وأطيعوا. قال المسعودي: وقد كان أهل الكوفة انتهبوا سرادق الحسن عليه السلام ورحله، وطعنوا بالخنجر في جوفه، فلمّا تيقّن ما نزل به انقاد إلى الصلح.[١] ويروي البيهقي خطبة الحسن عليه السلام بنحو مقارب لرواية المسعودي فيقول: وذكروا أنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن عليّ عليه السلام فمره أن يخطب على المنبر فلعلّه يحصر فيكون ذلك ممّا نعيّره به، فبعث إليه معاوية فأصعده المنبر وقد جمع له الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا أيّها الناس، من عرفني فأنا الذي يعرف، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن عليّ بن أبي طالب بن عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير النذير، السراج المنير، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين وسخطاً على الكافرين، أنا ابن من بعث إلى الجنّ والإنس، أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن أوّل من ينفض رأسه من التراب، أنا ابن أوّل من يقرع باب الجنّة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة، ونصر بالرعب من مسيرة شهر. فافتنّ في هذا الكلام، ولم يزل حتّى أظلمت الدنيا على معاوية، فقال: يا حسن، قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك. فقال الحسن عليه السلام: إنّما الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وعمل بطاعة الله، وليس الخليفة من دان بالجور وعطّل السنن واتّخذ الدنيا أباً وأمّاً، ولكن

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٤٣٠.

ذاك ملك أصاب ملكاً يُمتّع به قليلاً، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذّته وبقيت عليه تبعته، فكان كما قال الله جلّ وعزّ ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[١] ثمّ انصرف فقال معاوية لعمرو:والله، ما أردت إلّا هتكي! ما كان أهل الشام يرون أنّ أحدا مثلي حتّى سمعوا من الحسن ما سمعوا.[٢] وفي رواية رواها سفيان عن مجالد عن الشعبي قال:شهدت الحسن بن عليّ‌عليه‌السلام بالنخيلة حين صالحه معاوية فقال له معاوية: إذا كان ذا فقم فتكلّم وأخبر الناس أنّك قد سلّمت هذا الأمر لي، وربّما قال سفيان: أخبر الناس بهذا الأمر الذي تركته لي، فقام فخطب على المنبر فحمد الله وأثنى عليه. قال الشعبي:وأنا أسمع، ثمّ قال:أمّا بعد فإنّ أكيس الكيس التقى، وإنّ أحمق الحمق الفجور، وإنّ هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية كان لي فتركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمّة وحقن دمائهم. .[٣] وكان للحسن‌عليه‌السلام خطاب سابق لأهل الكوفة، وكما جاء في رواية الشيخ المفيد عن تاريخ هذه الأحداث فقال: خطب الحسن بن عليّ‌عليه‌السلام في صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين‌عليه‌السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ثمّ قال:لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل، ولايدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله يوجّهه برايته فيكنفه جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، ولا يرجع حتّى يفتح الله على يديه، ولقد توفّي‌عليه‌السلام في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، وفيها قبض يوشع بن نون وصيّ موسى‌عليه‌السلام، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله، ثمّ خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه. ثمّ قال:أنا ابن البشير، أنا ابن

١ـ الأنبياء:١١١.

٢ـ المحاسن والمساوئ: ٨٤.

٣ـ المعجم الكبير، للطبراني ٣: ٢٦ ح٢٥٥٩.

النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير، أنا من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، أنا من أهل بيت فرض الله مودّتهم في كتابه فقال ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾[1] فالحسنة مودّتنا أهل البيت، ثمّ جلس فقام عبد الله بن العبّاس بين يديه فقال: معاشر الناس، هذا ابن بنت نبيّكم ووصي إمامكم فبايعوه، فاستجاب له الناس فقالوا :ما أحبّه إلينا، وأوجب حقّه علينا!وبادروا إلى البيعة له بالخلافة. وذلك في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، فرتّب العمّال وأمّر الأمراء، وأنفذ عبد الله بن العبّاس إلى البصرة، ونظر في الأمور. فلمّا بلغ معاوية بن سفيان وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس ابنه الحسن عليه السلام دسّ رجلاً من حمير إلى الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الإمام الحسن عليه السلام الأمور، فعرف ذلك الحسن عليه السلام فأمر باستخراج الحميري من عند لحّام بالكوفة، فأخرج وأمر بضرب عنقه. وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم، فأخرج وضربت عنقه. وكتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية: أمّا بعد، فإنّك دسست الرجال للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون كأنّك تحبّ اللقاء، وما أوشك ذلك! فتوقّعه إن شاء الله تعالى[2] لقد استلم الحسن عليه السلام السلطة بعد أبيه وقام بأفضل ما يمكن القيام به في ذلك الجوّ المشحون بالفتن والمؤامرات، فأقرّ الولاة على أعمالهم، وأوصاهم بالعدل والإحسان ومحاربة البغي والعدوان، ومضى على نهج أبيه وسيرته، وكان في جميع حالاته خلال خلافته القصيرة وقبلها وبعدها امتداداً لجدّه المصطفى وأبيه المرتضى عليهما الصلاة والسلام في سياسته وسيرته. وبالرغم من أنّه يعرف معاوية وما كانت تنطوي عليه

١ـ الشورى :٢٣.

٢ـ الإرشاد: ١٨٨.

تلك الأسرة من الكفر والإلحاد والعداء لمحمّد ورسالته، والعمل لإحياء مظاهر الجاهلية بجميع أشكالها، مع علمه بذلك كلّه، فقد أبى أن يعلن الحرب عليه إلّا بعد أن كتب إليه المرّة تلو المرّة يدعوه إلى جمع الكلمة وتوحيد أمر المسلمين حتّى لايبقى لأحد عذر أو حجّة في التخلّف عن نصرته، فكتب إليه مع رجلين من أهل الكوفة في جملة كتبه ورسائله الرسالة التالية :من الحسن بن علي إلى معاوية ابن أبي سفيان، سلام عليك، فإنّي أحمد الله الذي لا إله غيره، أمّا بعد، فإنّ الله جلّ جلاله بعث محمّداً رحمة للعالمين، ومنّة للمؤمنين، وكافّة للناس، أجمعين، لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين، فبلّغ رسالات الله وقام بأمر الله، حتّى توفّاه الله غير مقصّر ولا وان، وبعد أن أظهر الله به الحقّ ومحق به الشرك وخصّ قريشاً خاصّة فقال له: و إنّه لذكر لك ولقومك. فلمّا توفّي تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولايحلّ لكم أن تنازعونا سلطان محمّد وحقّه، فرأت العرب أنّ القول ما قالت قريش وأنّ الحجّة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمّد فأنعمت لهم وسلّمت إليهم، ثمّ حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها، أنّهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج، فلمّا صرنا آل بيت محمّد وأوليائه إلى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا، فالموعد الله وهو الولي النصير. لقد كنّا تعجّبنا لتوثّب المتوثّبين علينا في حقّنا وسلطان نبيّنا، و إن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده، واليوم فليتعجّب المتعجّب من توثّبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ

ولكتابه الكريم، والله حسيبك، فسترد وتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربّك، ثمّ ليجزينّك بما قدّمت يداك، وما الله بظلّام للعبيد. إنّ عليّاً لمّا مضى لسبيله، رحمة الله عليه يوم قبض، ويوم منّ الله عليه بالإسلام ويوم يبعث حيّاً، ولّاني الأمر من بعده، فأسأل الله أن لا يؤتينا في هذه الدنيا الزائلة شيئاً ينقصناه في الآخرة بما عنده من كرامة، وإنّما حملني على الكتابة إليك الإعذار فيما بيني وبين الله عزّوجلّ في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظّ الجسيم والصلاح للمسلمين، فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنّك تعلم أنّي أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ ومن له قلب منيب، واتّق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة، ولاتنازع الأمر أهله ومن هو أحقّ به منك ليطفئ الله النائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلّا التمادي في غيّك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين. لقد كتب الإمام الحسن عليه السلام هذه الرسالة وغيرها إلى معاوية وهو يعلم بأنّه لا يستجيب لطلبه، وأنّه سيقف منه موقفاً أكثر صلفاً ووقاحة من مواقفه السابقة مع أبيه أمير المؤمنين وإمام المتّقين، لاسيّما وقد نجح في مؤامرته التي وضعها لاغتياله واستمالة القسم الأكبر من قادة أهل العراق إلى جانبه، وهم بعد غيابه عنهم أكثر تفكّكاً وتخاذلاً وخيانة منهم بالأمس، لهذا ولغيره كان الإمام أبو محمّد الحسن عليه السلام على يقين من أنّ معاوية سيكون أصلب عوداً من الأمس، وسيتصرّف من منطق القوّة التي أصبحت بيده، وسيتقدّم إلى الحرب إذا لم يجد المكر والخداع، لقد كان على بيّنة من كلّ ذلك، ولكنّه أراد أن يظهر للعالم الإسلامي ما يضمره هذا البيت للنبيّ صلى الله عليه وآله وآله وللإسلام من حقد وعداء ورثهما من أجداده وأبيه وأمّه آكلة الأكباد.[1] فالرغبة في مواصلة جهاد

١ـ هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمّة الاثني عشر ١: ٥٦١. وكذلك جاءت أخبار في موضوع

العاصين والمنشقّين على القيادة الشرعية كانت موجودة لدى الحسن عليه السلام، ولكن لم يجد جنداً مخلصاً صبوراً يواصل المعركة. والإمام الحسن عليه السلام هو رجل الحرب والسياسة في آن واحد، وقد كان له دور سياسي وعسكري كبير في إدارة الدولة العلوية، وتحرّكه في تدارك الأحداث التي وقعت في خلافة أبيه، وقد أنيطت به مهام إعلامية أيضاً شأنه شأن عبد الله بن عبّاس الذي كان الناطق الرسمي للدولة العلوية. فحينما تجمّع الناكثون والباغون في البصرة وقام عبد الله بن الزبير فيهم خطيباً يتوعّد وبلغ ذلك عليّاً عليه السلام لم يجد لهذا الدور الإعلامي والسياسي مؤهلاً غير الحسن عليه السلام فقال له: قم يا بني فاخطب. فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيّها الناس! قد بلغنا مقالة ابن الزبير، وقد كان والله أبوه يتجنّى على عثمان الذنوب وقد ضيّق عليه البلاد حتّى قتل، وإنّ طلحة راكز رايته على بيت ماله وهو حيّ. وأما قوله: إنّ عليّاً ابتزّ الناس أمورهم. فإنّه أعظم حجة لأبيه، زعم أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة فليأت على ما ادعاه ببرهان وأنّى له ذلك؟! وأمّا تعجبه من تورّد أهل الكوفة على أهل البصرة، فما عجبه من أهل حقّ تورّدوا على أهل الباطل؟! ولعمري والله ليعلمن أهل البصرة، فميعاد ما بيننا وبينهم يوم نحاكمهم إلى الله فيقضي الله بالحقّ وهو خير الفاصلين[1] والإمام الحسن عليه السلام اكتسب دربة ومراناً سياسياً كبيراً، ولعلّ المعايشة اليومية التي كان يشاهدها الإمام الحسن عليه السلام في تجربة أبيه عليه السلام كوّنت لديه صورة كاملة عن نتيجة المعارك لو حصلت مواجهة مع جيش الشام. وكان الحسن عليه السلام على معرفة ودراية بجماعات الكوفيين الذين انتظموا في جيش الحسن عليه السلام، حيث كان عامّة أشراف أهل الكوفة الذين يشكّلون معظم قيادات الجيش الكوفي غير متوافقين مع

يقاربه، ينظر: بحار الأنوار ٤٤ : ٣٩.

١ـ الجمل والنصرة لسيّد العترة في حرب البصرة: ٣٢٧.

أبيه عليه السلام، وهواهم مع معاوية، فيروي إبراهيم بن محمد الثقفي بإسناده إلى المغيرة الضبّي قال: كان أشراف أهل الكوفة غاشّين لعليّ عليه السلام، وكان هواهم مع معاوية، وذلك أنّ عليّاً كان لايعطي أحداً من الفيء أكثر من حقّه، وكان معاوية بن أبي سفيان جعل الشرف في العطاء ألفي درهم.[1] فجيش خاذل متخاذل طامع لايمكن أن يصمد في معركة شرسة، وربّما قتل هذا الجيش قائده طمعاً وأملاً بما كان يؤمّلهم عدوّهم. ويصف الكاتب عليّ محمّد دخيّل معالم هذه الصورة السوداء التي التقطها المؤرّخون لجيش الكوفة الذي كان ينتظر به أن يخوض معركة فاصلة بالقول: مات أمير المؤمنين عليه السلام وفي قلبه آلام كبيرة من تخاذل أصحابه عنه، وانصرافهم عن نصرته، وبين أيدينا نهج البلاغة فهو مملوء بالشكوى منهم، والتذمّر من فعالهم، فمرّة يخاطبهم: لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان. وفي مرّة أخرى يقول لهم: أفّ لكم، لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذلّ من العزّ خلفاً... وفي الوقت الذي كان فيه جيش الإمام عليّ عليه السلام بالكيفية التي مرّت، كان أعداؤه أطوع جيش لسائسهم، وأسمع جند لقائدهم حتّى قال عليه السلام: صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منّي عشرة منكم، وأعطاني رجلاً منهم. وكان معاوية على علم بجيش الإمام وتمرّده فقد قال: كنت في أطوع جند وأصلحه وكان في أخبث جند وأعصاه. وكانت المشكلة أكبر في عهد الإمام أبي محمّد الحسن عليه السلام، فقد ازداد أصحابه تخاذلاً، فهم لم يخرجوا للحرب إلّا بعد اللتيا والتي، وبعد أن أسمعهم

١ـ الغارات: ٤٤.

عدي بن حاتم وغيره ـ من أهل البصائر ـ أعنف الكلام والتوبيخ.[1]

الحسن عليه السلام وذكريات الحروب والفتن وجيش الكوفة

لم تكن ذكريات الحروب وما جرى فيها من أحداث مؤلمة غائبة عن ذهن الإمام الحسن عليه السلام.[2] كما وأنّ مرارة الحروب التي شهدها عليّ عليه السلام في مدّة خلافته لم تكن بعيدة ونائية عن مشاهدة الحسن عليه السلام ورؤيته العينية المباشرة لها، وكانت معايشته عليه السلام لها مستمرّة فلفحته بنارها وسعيرها، فحرب الجمل وصفّين والنهروان كانت معالم بارزة وبيّنة في فترة الحكم العلوي الذي اصطبغ بلون فاقع من الفتن والاضطراب والدماء والخطوب والمحن، فكانت حكومة عليّ عليه السلام تعيش في أتون الحروب والمشاكل التي يؤججها أصحاب المصالح واللاهثون وراء الملك والسلطنة، وانساق معهم المنافقون والجاحدون وممّن تستّر بالدين و ظلّ

---

١ ـ أئمّتنا ١: ١٤٧.

٢ ـ حاول بعض فتية قريش انتزاع الحسن عليه السلام من خضم الصرامة والحزم المبدئي الذي كان يعيش أجواءه مع أبيه عليّ عليه السلام، فيروي نصر بن مزاحم المنقري في سياق أخبار صفّين بأنّ عبيد الله بن عمر بن الخطّاب بعث إلى الحسن عليه السلام قائلاً له: إنّ لي إليك حاجة فالقني. فلقيه الحسن عليه السلام فقال له عبيد الله: إنّ أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً، و قد شنئوه فهل لك أن تخلفه و نوليك هذا الأمر؟ قال: كلّا والله لا يكون ذلك، ثم قال له الحسن: لكأنّي أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك. أما إنّ الشيطان قد زيّن لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلوق ترى نساء أهل الشّام موقفك، وسيصرعك الله و يبطحك لوجهك قتيلاً. قال الراوي: فوالله ما كان إلّا كيومه أو كالغد وكان القتال. فخرج عبيد الله في كتيبة رقطاء ـ و هي الخضرية ـ كانوا أربعة آلاف، عليهم ثياب خضر، ونظر الحسن فإذا هو برجلٍ متوسّد رجل قتيل قد ركز رمحه في عينه، وربط فرسه برجله، فقال الحسن لمن معه: انظروا من هذا. فإذا هو برجل من همدان، فإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قد قتله و بات عليه حتّى أصبح، ثمّ سلبه. وقعة صفّين: ٢٩٧.

على كفره وعصبيته ووثنيّته، فلم يكن عليّ عليه السلام لهم حاكماً مسالماً أو رئيساً مريحاً، أوكأنّهم شعروا بأنّ عليّاً عليه السلام لم يدعهم أحراراً طلقاء في تحقيق أحلامهم وآمالهم العريضة، في امتلاك زمام الأمور وركوب دابّة السلطة السياسية، أو يدعهم يعبثوا ويمارسوا الدور العابث في تخريب وتحريف عقائد المسلمين وعباداتهم، أو يتلاعبوا بمقدّرات الأمّة أو أموالها وما يتعلّق بحقوقها، فالميزان العادل الذي حمله إمام المسلمين في كفّه ونطق به لسانه عليه السلام لم يكن يفارق عليّاً عليه السلام طرفة عين، أو كأنّ هذا الميزان صار ظلاًّ ملازماً له وللدولة الجديدة التي أناط المسلمون مسؤوليتها به عليه السلام، فمن هنا لم تكن الأوضاع السياسية مع رجل المبادئ تمرّ بالتسوية والمساومات، وقد أعلن عليّ عليه السلام منهجه الصارم حين لجّوا وألحّوا على تولّيه أمور الدولة وقيادته لهم بقوله لهم «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولاتثبت عليه العقول» فقالوا له: ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه! ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! عند هذا لم يكن له بدّ من إجابتهم إلى أمر لم يكونوا مطيقيه، أو كأنّهم لم يفهموا عليّاً عليه السلام حقّ الفهم فقال لهم: «قد أجبتكم، واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم إلّا أنّي من أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه» ثمّ افترقوا على ذلك واتّعدوا الغد، وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت.[1] وكان عليّ عليه السلام راجحاً في ميزان التاريخ السياسي رجوحاً واضحاً وبيّناً لم ينس الباحثون والمطّلعون في التاريخ السياسي للمسلمين الإشارة له، يقول الباحث نوري جعفر: لقد كان عليّ عليه السلام موفّقاً كلّ التوفيق، ناصحاً للإسلام كلّ النصح. . صبّر نفسه على ما كانت تكره. وطابت نفسه للمسلمين بما كان يراه حقّاً. . بايع عليّ ثاني الخلفاء كما بايع أوّلهم كراهية للفتنة. ونصحاً للمسلمين.

١ـ الكامل في التاريخ ٣: ٨٣.

ولم يظهر مطالبته بما كان يراه حقّاً له. ونصح لعمر كما نصح لأبي بكر. وقد بايع عثمان كما بايع الشيخين، وهو يرى أنّه مغلوب على حقّه، ولكنّه على ذلك لم يتردّد في البيعة، ولم يقصّر في النصح للخليفة الثالث، كما لم يقصّر في النصح للشيخين من قبله.. ولم ينصب نفسه للبيعة إلّا حين استكره على ذلك استكراهاً..[1] وقبوله عليه السلام لهذا الأمر كارهاً هو تضحية منه وسيراً بالأمّة نحو سدادها وخلاصها، لكن الأمور لم تستوسق له عليه السلام ولأصحابه. والحقّ كان لعليّ عليه السلام من القدرة والطاقة في أن يئد جذور الفتنة ويرفعها من بين أظهر الأمّة، وهو الشجاع الصارم ذو الخبرة والدراية في قمع النفاق والباطل ودحره و إبعاده من صفوف المسلمين، لكن لم يكن له عليه السلام في حسابات القدر المقدور أن يمدّ يده إلّا إلى عين الفتنة فأعماها وأفقدها بصرها فجعلها في حيرة من أمرها تخبط خبط عشواء، فقال عليه السلام في ذلك: أيّها الناس، أمّا بعد أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن أحد ليجترئ عليها غيري. وفي حديث ابن أبي ليلى: لم يكن ليفقأها أحد غيري، ولو لم أك فيكم ما قوتل أصحاب الجمل وأهل النهروان، وأيم الله، لولا أن تنكلوا وتدعوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله على لسان نبيّكم صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مبصراً لضلالتهم عارفاً للهدى الذي نحن عليه..[2] ولكن ابتلي المسلمون بصحابة أدركوا صحبة النبيّ صلى الله عليه وآله ولم يفقهوا المعنى الرسالي للصحبة، وأضاعهم واستحوذ عليهم الشيطان حين نصب لهم حباله، فأظهروا حسدهم لعليّ عليه السلام فمزّقتهم شظايا نيران حسدهم لعليّ عليه السلام شرّ تمزيق، وأحرقتهم وأحرقت أصحابهم ومن تبعهم من الذين أغوتهم المعايشة الزمنية لعصر النبيّ صلى الله عليه وآله، وكأنّ الزمن الواحد، أو العصر الواحد، الذي واجه به هؤلاء الصحابة كلام النبيّ صلى الله عليه وآله وحديثه وأحداثه هو صكّ أمان ووثيقة

---

١ ـ عليّ ومناوئوه: ١٣٠.

٢ ـ الغارات، للثقفي ١: ٥.

خلاص لهم. هكذا كانوا يفكرون، وكان هذا وضع المسلمين آنذاك يرون من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله أو أدرك زمنه كأنّه خلص من الفتن والشهوات والمصالح والمنافع، وكأنّه مرآة عاكسة يعكس لهم صدق النبيّ صلى الله عليه وآله و إخلاصه وزهده وتقواه وبعده عن الفتنة والوساوس الشيطانية. وبعبارة أخرى :كانوا يرون من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله، أو أدرك لمحة من زمانه، قد تحوّل إنساناً آخر انسلخ من بشريته، وكأنّه انتقل إلى صفّ الملائكة فلا ينطق عن الهوى، هذا هو وضع الناس الذين فتنوا أنفسهم وفتنوا الأمّة، وأضاعوها وزجّوها في فتن متلاحقة لم تهدأ، وسارت مع تاريخهم المضطرب بالثورات والحروب والقلاقل. ولم يعد الصحابي يعرف قدر نفسه بينهم، فتاه في كبر وغرور الصحبة. في الوقت الذي لم تكن الصحبة إلّا مسؤولية ومعاناة كما كان النبيّ صلى الله عليه وآله يكابد ويشقى ويجاهد لدور أريد له، ومن الصحابة من عرف قدر نفسه والدور الذي أريد له فاستقام ووطّن نفسه على الدور المناط به، ووقف على الدرجة التي وضعها له النبيّ صلى الله عليه وآله ولم يتجاوز ذلك. وبذلك كان الصحابة الواعون والثابتون على النهج الرسالي يفهمون وظيفة الصحابي ومنزلته، فلم تكن الصحبة، لعمّار وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وسهل بن حنيف والمقداد وغيرهم، غنيمة يقتسمونها ويستثمرونها لمصالحهم ومنافعهم، و إنّما كانت جهداً ومشقّة ونصرة رسالة، فلم يبدّ ل هؤلاء معنى الصحبة، كما لم يضعوا أو يغمسوا أيديهم في الفتن التي وقعت بها الأمّة، وما كان منهم من نكير ونقد، إنّما كان لتصحيح الانحراف والتبدّل الذي لمسوه في الحياة الدينية والسياسية للأمّة الإسلامية.

روى المسعودي من هذا القبيل قائلاً: قد كان عمّار حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان، عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أميّة، فقال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم ؟وقد كان عمي،

قالوا:لا، قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة، فانتهره عثمان، وساءه ما قال، ونمى هذا القول إلى المهاجرين والأنصار وغير ذلك الكلام، فقام عمّار في المسجد فقال:يا معشر قريش، أما إذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم، هاهنا مرّة، وهاهنا مرّة فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله، وقام المقداد فقال:ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيّهم، فقال له:عبد الرحمن بن عوف:وما أنت وذاك يا مقداد بن عمرو! فقال:إنّي ـ والله ـ لأحبّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله إيّاهم، وإنّ الحقّ معهم وفيهم، يا عبد الرحمن، أعجب من قريش ـ وإنّما تطوّلهم على الناس بفضل أهل هذا البيت ـ قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وآله بعده من أيديهم، أما وأيم الله يا عبد الرحمن، لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إيّاهم مع النبيّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر.[١] ويكمل زيد بن صوحان، وهو من رعيل التابعين، المشوار التصحيحي والإصلاحي الذي اختطّه الصحابة العدول ببصيرة ووعي، فيروى عنه لمّا كتبت عائشة إليه:أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس في بيتك وخذّل الناس عن عليّ بن أبي طالب حتّى يأتيك أمري. فلمّا قرأ كتابها قال:أمرت بأمر وأمرنا بغيره، فركبت ما أمرنا به، وأمرتنا أن نركب ما أمرت هي به، أمرت أن تقرّ في بيتها، وأمرنا أن نقاتل حتّى لا تكون فتنة والسلام.[٢] فهذه المواقف والأفكار ليست من الفتنة في شيء، بل هي مواقف تعبّر عن صميم مبادئ الدين والإخلاص

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٣٤٣.

٢ ـ رجال الكشّي: ٦٧ الرقم ٢١٩. لقد كان زيد بن صوحان كريماً على عليّ عليه السلام، وكأنّ زيداً كان قبيلاً لوحده، وجاء في وصف أحزان عليّ عليه السلام وهمومه التي أثقلها فقدان زيد بن صوحان، أن قال المسعودي:اشتدّ حزن عليّ عليه السلام على من قتل من ربيعة قبل وروده البصرة.. وجدّد حزنه قتل زيد بن صوحان العبدي. مروج الذهب ٢: ٣٦٩.

للعقيدة والدفاع عن الحقّ، وأمّا درج مثل هذه المواقف الإصلاحية في عداد الفتن[١] فهو ظلم لهؤلاء الأصحاب وخلط للمفاهيم، ولكن إن كنّا مضطرّين لقبول من يرى بأنّ هؤلاء الصحابة كانوا في وسط الفتنة، فالفتنة هنا هي غير الفتنة التي التي أريد بها أن يرجع الناس إلى جاهليتهم الأولى، أو يكون الصحابي صاحب الامتياز الأوّل واليد الطولى في غنائم المسلمين التي غنمتها سيوفهم في ميادين الجهاد وساحات الوغى، ومهما كانت الذرائع والحجج التي يتذرّع بها الصحابي في ركوبه موجات الفتن ومشاركته في بعض الأحداث والخطوب التي شهدها ورآها المسلمون، فالفتنة التي اشتعل أوارها في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفّان قد خدعت نخبة من الصحابة، فدسّوا أنوفهم فيها أو ساقتهم الجماهير الغاضبة آنذاك لكي يدلوا دلوهم في هذه الفتنة، حتّى آل الأمر إلى أن يشارك بعضهم في قتل الخليفة عثمان، كما يقول مروان بن الحكم[٢] وللأستاذ أحمد راتب عرموش رأي في

١ـ الفتنة: أصلها البليّة، وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة. يقال: فتنت الذهب، إذا أحرقته بالنار ليظهر الخالص. ومن هذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ التوبة: ١٢٦. أي يمتحنون كلّ عام دفعة أو دفعتين بالأمراض والأوجاع. ينظر: **تفسير التبيان** للطوسي ٥: ٣٢٧ و ٤٢٠. ويقول ابن فارس: يقال فتنت الذهب بالنار، إذا امتحنته، وهو مفتون وفتين. والفتّان الشيطان. **معجم مقاييس اللغة** ٤: ٤٧٣. والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد، ومتى كانت من الله تعالى تكون على وجه الحكمة. **المفردات**، للراغب الأصفهاني ٣٧٣ (فتن)، وباعتبار كون الفتنة التي ظهرت في جيش عليّ عليه السلام كانت من فعل العبد قال لهم عليّ عليه السلام: لا تقتحموا ما استقبلتم من فور نار الفتنة. **نهج البلاغة**: ٢٧٧ خطبة ١٨٧، إذ افتراق الآراء سبب لظهور العدوّ عليهم وقيام الفتنة. **اختيار مصباح السالكين**، لابن ميثم البحراني: ٤٤٠.

٢ـ يروى عن قيس بن أبي حازم أنّه قال: رأيت مروان حين رمى طلحة يوم الجمل بسهم فوقع في ركبته فما زال يسحّ حتّى مات. ويروى عن مروان أنّه قال: هذا أعان على قتل عثمان، ولا أطلب بثأري بعد اليوم. **دول الإسلام**، للذهبي ١: ٣١. وروى نصر بن مزاحم المنقري أنّ معاوية

تفاقم الفتنة في زمن عثمان، وفقاً لرؤيته واعتقاداته، أجمله بظروف الدولة وطبيعة التحوّل الاجتماعي في ذلك العصر فقال: ١ـكان العرب قبل الإسلام قبائل متفرّقة، يدير كل قبيلة رئيس وفق تقاليد عشائرية موروثة، مواردهم محدودة، مصدرها ما تدرّه الماشية، وما يسلبه بعضهم من بعض، في غزواتهم و عدوانهم فيما بينهم، يستثني من ذلك قريش و بعض القبائل التي أقامت فيما يشبه المدن، فقد كانت تتعاطى التجارة والزراعة، لكن لم تكن هناك دولة بمعنى الدولة أو نظام و إدارة. فلما جاء الإسلام انتقل العرب من حال إلى حال. جاء بعقيدة و نظام تتناول جميع أمور الحياة، من الولادة إلى ما بعد الممات، فقد كان العرب أشبه بمادة خام تنتظر لها صانعاً، و كان الإسلام الصانع المنتظر الذي صنع فأحسن الصنع. وحّد العرب في أراضيهم الرحبة، و امتدّ إلى خارجها يرفع راياته خفّاقة في الآفاق. و هكذا ولدت في تلك البلاد دولة جديدة، و لكلّ دولة مستلزمات. كان عمرـ و قبله أبو بكرـ كلّما واجه أحدهما وضعاً جديداً اجتهد فيه و أحسن الاجتهاد، فتلك أمور من أعمال الدنيا وللناس أن ينظّموها حسب الزمان و المكان، و لا نجد بخصوصها نصوصاً ثابتة في القرآن و الحديث. أمّا في زمان عثمان فقد وجدت حالات أخرى، وكان على عثمان أن يواجهها، فاجتهد رأيه وأعطى حلولاً، ولكن حلوله لم تكن

ابن أبي سفيان طلب من عبيد الله بن عمربن الخطّاب ـ لمّا التحق بالشام ـ أن يشتم عليّاً عليه السلام ويشهد عليه أنّه ممّن شرك في قتل عثمان، فأجاب عبيد الله عن ذلك شعراً يبيّن ما كان، وممّن شرك في قتل عثمان :

فأمّا ابن عفّان فأشهد أنّه	أصيب بريئاً لابساً ثوب تائب
حرام على آهاله نتف شعره	فكيف وقد جازوه ضربة لازب
وقد كان فيها للزبير عجاجة	وطلحة فيها جاهد غير لاعب
وقد أظهرا من بعد ذلك توبة	فيا ليت شعري ما هما بالعواقب

فلمّا بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه وقرّبه . وقعة صفّين: ٨٤.

دائماً في المستوى المطلوب. ٢ـ اضطرّ عثمان إلى تجنيد الأعراب، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم ﴿**الأعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1] وقال أيضاً ﴿**قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[2] هؤلاء هم الأعراب، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ذهبوا إلى القتال ومعظمهم يبغي عرض الحياة الدنيا، فشكّلوا بعد فترة طبقة خاصّة يمكن تسميتها بلغة العصر بالرعاع. وعندما يكون بيد الرعاع سلاح يسهل على المستغلّين توجيههم في طريق الفتنة. ٣ـ توقّفت الفتوحات في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية لم تتجاوزها من بحار وجبال، إن كان ذلك في جهات فارس وشمالي بلاد الشام أم في أفريقيا. وبتوقّف الجيوش انقطعت الغنائم، وبقي الجنود بدون عمل. ولنتصوّر جيشاً جاهلاً يمضي نصف يومه في الطعام والنوم وقضاء الحاجات، والنصف الثاني بالخوض في سياسة الدولة والحديث عن تصرّفات عثمان التي كانت تهوّلها عصابة سرّية لهدم الإسلام من داخله.. وكيف أنّ الأراضي التي قاموا هم بفتحها، والتي يعتبرونها حقّاً من حقوقهم تذهب إلى بيت المال ويوزّعها عثمان على من يريد. تجاه هذه الأوضاع وجدت الإدارة العليا نفسها عاجزة عن استيعاب الوضع الطارئ، بل يمكننا القول إنّها عجزت عن إدراكه وتقويمه. ٤ـ رافق نشوء طبقة الرعاع بمن فيها من أعراب وعبيد محررين وموالي، نشوء طبقة من الأغنياء أصحاب الملايين تركّزت الثروات في أيديهم، وأصبح المال دولة بينهم، وبدا شيء من حياة الرفاه.. ويبدو أنّ من طبيعة الحياة أن يرافق الغنى البطر وفساد الأخلاق، إلّا ما ندر. ولم يكن على رأس الدولة الرسول صلى الله عليه وآله ولا أبو بكر وأبو عمر، فتفاقم الأمر لدرجة أنّ أولاد الأغنياء بدأوا نوعاً من

١ـ التوبة: ٩٧.

٢ـ الحجرات: ١٤.

حياة الفجور. وهنا ثارت ثائرة عثمان ، وكانت إجراءاته قاسية ـ كما يجب أن تكون ـ فانضمّ أولئك المستهترون إلى صفّ الناقمين من الرعاع وغيرهم. ولم يكن نشوء هذه الطبقية ليؤدّي إلى النقمة التي ظهرت لو كان المجتمع جاهلياً، أمّا وأنّه مجتمع إسلامي، والفرد فيه في بدء تحرر عقلي شخصي واجتماعي، فقد تأزّم الموقف وأخذت فكرة المساواة طريقها إلى الوجود، كذلك من طرف آخر، فقد استيقظ شيء من العصبية كان لا يزال غافياً في اللاشعور. فلم يجد الناقمون غضاضة من حمل السلاح.[١] وهناك من يعزي الفتنة، والاضطراب السياسي الذي بدأ يتشكّل في خلافة عثمان، إلى التمايزوالتراتب الطبقي الذي تشكّل وظهر نتيجة الحروب والفتوحات الإسلامية الكبيرة التي دفعت المسلمين ومشايخ قريش والصحابة إلى مساحات كبيرة من العالم فانهالت عليهم الغنائم، لذا اعتبر بعض الباحثين نشوب الفتنة واشتعالها يختزل في سبب رئيس، إلى جانب أسباب أخرى تداخلت معه، هو العامل الاقتصادي، لأنّ النبيّ ﷺ اعتمد خطّة اقتصادية تقضي بالتسوية بين المواطنين في العطاء، فلا فضل لأحد على أحد مهما بلغ من موقع أو مكانة، و إذا كان هناك من تفاضل بين الناس، فهو في تقوى الله تعالى والعمل الصالح «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى. وهو تفضيل يحقّق نتائجه في الآخرة، لا في الحياة الدنيا، وليس من خلال العطاء والسياسة المالية للمجتمع. . وهذه السياسة الاقتصادية النبويّة كانت تشكّل القاعدة المركزية للعدالة بين الناس، كما أنّها قطعت الطريق على تغيير الهيكل العام لسياسة الاقتصاد، وتبادل الثروة في المجتمع المسلم، رغم النمو الواضح في ثروة الأمّة بعد الفتح لحصون خيبر، و إجلاء بني النضير، ونحو ذلك من تحوّلات. . وهذه السياسة النبويّة في الاقتصاد لم تتعرّض إلى خرق

١ـ **الفتنة ووقعة الجمل**، رواية سيف بن عمر الضبّي الأسدي: ١٥.

واضح في أيّام حكومة الخليفة أبي بكر، الذي يفيد المورّخون أنّه لم يتجاوز سياسة النبيّ صلى الله عليه وآله في مسألة التسوية في العطاء. . وقد غيّر الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب سياسة التوزيع والعطاء بشكل كامل، حيث انتهج سياسة جديدة في توزيع المال والإمكانات، تعتمد طريقة التمييز بين الناس في العطاء وفق الأسس التالية:

١ـ فضّل بعض الناس على بعض. ٢ـ فضّل السابقين في الإسلام على غيرهم. ٣ـ فضّل المهاجرين من قريش على المهاجرين من غير قريش. ٤ـ فضّل عموم المهاجرين من المسلمين على الأنصار كافّة. ٥ـ فضّل العرب على غيرهم من الأمم. ٦ـ فضّل الصريح على المولى. ٧ـ فضّل مضر على ربيعة، كما فضّل الأوسي على الخزرجي . إنّ سياسة التمييز الاقتصادية هذه قد ساهمت بفاعلية في خلق مجتمع طبقي. . وقد شكّلت قريش في هذا المجتمع رأس الهرم، واستأثرت بالامتيازات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الخاصّة، فهي حسب التقسيم التفاضلي الجديد تحظى بالأولوية بكونها من العرب، ومن مضر، ومن المهاجرين، فضلاً عن القرشية، وهي خصائص لا تحظى بها غير قريش وقطّاعاتها المتنفّذة. . إنّ هذا التحوّل الاجتماعي ـ الاقتصادي قد تلمّس فيه حتّى مخططه الخليفة عمر ابن الخطّاب مخاطر واقعية على وحدة المسلمين وكيانهم الداخلي، فأعلن عن عزمه على استبداله بنظام مالي جديد يعتمد على سياسة جديدة في التوزيع، فقال: لئن عشت إلى قابل لألحقن آخر الناس بأوّلهم، لئن بقيت لأسوّين بين الناس. بيد أن عمراً اغتيل قبل أن يغيّر سياسته الاقتصادية المذكورة، فلمّا تولّى عثمان أمر الناس تفاقمت مخاطر تلك السياسة في المجتمع، و تحوّل إلى مجتمع إقطاعي ـ رأسمالي مرعب، تتصارع فيه المصالح و الطبقات، و يسحق المستضعفون من الفلّاحين، والعمّال، والجنود، و الحرفيين، و أمثالهم![1] وقد

١ـ المعارضة السياسية في تجربة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: ٤٨.

استنتج الباحث نوري جعفر الوضع السياسي والإداري العام للدولة الإسلامية، بعد اغتيال عمر بن الخطّاب وتولّي عثمان بن عفّان، بأنّه كان بعيداً عن روح الإسلام وسيرة الشيخين فيقول: إنّ السياسة العامّة للدولة كانت مبنيّة، في جوانبها المالية والإدارية، على العبث بمقدّرات المسلمين، وعلى الخروج على روح الإسلام لكسب ولاء الناس للأمويين من جهة، وللتنكيل لمن يناوئونهم أو ينتصرون للدين الحنيف، وحتّى لسيرة الشيخين، تلك السيرة التي تسلّم عثمان الخلافة على أساس السير وفق مستلزماتها.[١] ووسط هذه الأوضاع والمناخات كان جمع من الصحابة ينكر وينقد ما صار إليه وضع الناس من تفاوت، وربّما كان جمع منهم متربّصاً يحاول استثمار الفرصة وتوجيهها نحو مصالحه، فزجّ نفسه مع من ثار ولغط، وقد كانت أصابع الاتهام تتوجه نحو طلحة والزبير، وهما ممّن كان لهما ثقل كبير، وأثقل منهما معاوية الذي كان يتربّص من بعيد، ويروي السيوطي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الصحابي أنّه دخل على معاوية فقال له معاوية: ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا، ولكنّي ممّن حضره فلم ينصره، قال: وما منعك من نصره؟ قال: لم تنصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما لقد كان حقّه واجباً عليهم أن ينصروه، قال: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟ فقال معاوية: أما طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل ثمّ قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زوّدتني زادي[٢]

والحقيقة أنّ معاوية لم يكن يعنيه موت عثمان أو حياته، بقدر ما يهمّه هنا اهتبال الفرصة والتربّع على عرش السلطة، وجاء في رواية سيف بن عمر الضبّي

---

١ ـ عليّ ومناوئوه: ١٠٦.

٢ ـ تاريخ الخلفاء: ٢٠٠.

الأسدي :ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم، فاجتمعوا إليه بالموسم ثمّ ارتحل، فحدا به الراجز:

إنّ الأمير بعده عليّ وفي الزبير خلف رضي

قال كعب:كذبت!صاحب الشهباء بعده ـ يعني معاوية ـ فأخبر معاوية فسأله عن الذي بلغه، قال:نعم، أنت الأمير بعده، ولكنّها والله لا تصل إليك حتّى تكذّب بحديثي هذا. فوقعت في نفس معاوية. . وكان معاوية قد قال لعثمان غداة خرج وودّعه :يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإنّ أهل الشام على الأمر لم يزالوا. .[١] وكأنّ معاوية كان على علم بمؤامرة القتل والهجوم عليه، وربّما له دور في هذا الأمر، أو تذكير الآخرين وتشجيعهم على إذكاء الفتنة. والتخطيط للانفصال عن جسم الدولة الإسلامية وتكوين دولة مستقلّة، أو إبعاد الخليفة عن مركزإدارته، كما يلوح من هذا الكلام. وقد قال الحسن عليه السلام قولا لمعاوية يذكّره بما كان منه من شيطنة وتربّص جاء فيه:أنّ عمر بن الخطّاب ولّاك الشام فخنت به، وولّاك عثمان فتربّصت به ريب المنون، ثمّ أعظم من ذلك أنّك قاتلت عليّا صلوات الله عليه وآله، وقد عرفت سوابقه وفضله وعلمه، على أمر هو أولى به منك، ومن غيرك عند الله وعند الناس ولا دنية، بل أوطأت الناس عشوة، وأرقت دماء خلق من خلق الله بخدعك وكيدك وتمويهك، فعل من لا يؤمن بالمعاد، ولا يخشى العقاب، فلمّا بلغ الكتاب أجله صرت إلى شرّ مثوى، وعليّ إلى خير منقلب، والله لك بالمرصاد. وكان عبد الله بن عبّاس قد عرّض بمعاوية حين قال له معاوية:غفرت لك عدوك عليّ بصفّين فيمن عدا، وإساءتك في خذلان عثمان فيمن أساء. . فقال ابن عبّاس:ما ذكرت من خذلان عثمان، فقد خذله من كان أمسّ رحماً به منّي، ولي في الأقربين والأبعدين أسوة، وإنّي لم أعد عليه فيمن

١ـ الفتنة ووقعة الجمل: ٥٢.

عدا، بل كففت عنه كما كفّ أهل المروءات والحجى[١] وربّما هناك آخرون لم يعرف لهم دور واضح. . أو كان لهم دور غير مسجّل في التاريخ المدوّن، ولعلّ هناك حكايات طويت في صدور الرجال عن مؤامرات حيكت كان وراءها رجال لم يكن بالوسع ذكرهم . وهؤلاء وغيرهم من المسلمين الذين أشار لهم المؤرّخون شاركوا في موج الفتنة، وكأنّهم متأوّلون في كثير ممّا قالوا أو حكموا، ونسوا أنّ النبيّ ﷺ قال لهم:ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، إلّا من أحياه الله بالعلم. وقال ﷺ:إيّاكم والفتن، فإنّ اللسان فيها مثل وقع السيف[٢] وقد كان دخان الفتنة قوياً وكثيفاً فلم يتمكّنوا من أن يبصروا الحقيقة، أو كأنّ اختلاط الحقّ بالباطل كان على قدر لم يدعهم من أن يتمكّنوا أن يقفوا على جادّة الصواب. وقد كان عليّ عليه السلام شاهداً للفتنة وباصراً بها فقال:إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتّبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولّى عليها رجال رجالاً، على غير دين الله. فلوأنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان !فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى[٣] يقول الشيخ محمّد الخضري:كان رسول الله ﷺ يحذّر الفتن على أمّته، وكثيراً ما كان يحذّرهم منها، لأنّ بأس الأمّة متى انتقل من أعدائها إلى أنفسها ساءت حالها، وفسد نظامها، وصارت إلى الفوضى أقرب منها إلى الصلاح. وقد ورد عن المصطفى ﷺ كثير من الأحاديث في التحذير منها، ولكن قدّر فكان. استكمل الفتح للأمّة واستكمل الملك، ونزل العرب بالأمصار على حدود ما بينهم

١ـ **بحار الأنوار** ٤٤: ٧٩ و ١١٣ ـ ١١٥.

٢ـ **سنن ابن ماجة** ٢: ١٣٠٥ و١٣١٢ح٤٥٩٣و٣٩٦٨ من كتاب الفتن.

٣ـ **نهج البلاغة**: ٨٨ من كلام له عليه السلام رقم ٥٠.

وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصّون بصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله والمهتدون بهديه وآدابه المهاجرون والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأمّا سائر العرب من بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلّا قليلاً منهم، وكان لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم، مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقّهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوّة ونزول الوحي، وتنزّل الملائكة، فلمّا انحسر ذلك الباب وتُنوسي الحال بعض الشيء وذلّ العدوّ، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرئاسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قريش وسواهم، فأنفت نفوسهم ووافق ذلك أيّام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن على ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والتجنّي بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان.[١] فلذا كثرت القالة وأرجفوا وقالوا ما قالوا، والله يعلم كم من الصحابة من أثارته المقولات والأحاديث فجرفته الفتنة وألقته في حلبة الصراع الذي أودى لسفك الدماء، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله شاهداً لعصور الفتنة وما بعدها، وكما روى حذيفة بن اليمان، حين قال لهم:والذي نفسي بيده، لاتقوم الساعة حتّى تقتلوا إمامكم، وتجتلدوا بأسيافكم.[٢] فكان ما كان، وكأنّ من شهد عصور الفتنن لم يكن يفهم ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله أو لم يكن حاضراً، ولكن كانت هناك وقائع وأحداث أفقدتهم الرؤية الصائبة، ومنهم من أحاط بعلم ويقين محدود، ولكن مع كلّ المعرفة والدراية عن الأوضاع التي كانت وملابساتها وضبابيتها لنقلة التاريخ والأحداث، فلا يمكن لصحابي أن يتّخذ هذا الموقف الصعب والخطير في

١ـ إتمام الوفا في سيرة الخلفا: ١٨١.

٢ـ سنن الترمذي ٤: ٤٦٨ح ٢١٧٠ كتاب الفتن.

أن يدخل حوار الرماح والسيوف، لأن لهم طرقاً كثيرة ووسائل شتّى لمعالجة الأوضاع والانحرافات التي ابتليت بها الدولة الإسلامية في حينها، وهذا الموقف إن صحّ لطلحة أو غيره فهو انحراف وابتعاد عن جادة الصحابي. فالوضع الشاذّ الذي شهدته حكومة عثمان يعزى إلى مروان بن الحكم الذي فاقم الأوضاع وزادها اشتعالاً، فمروان كان كاتم سرّ عثمان وكاتبه، وقد وردت روايات تنسب فيها الأعمال لمروان لم يكن أمر بها عثمان، أو لم يكن يعلم بها، كما ينسب لمروان أنّه اشترى خمس غنائم شمال أفريقية من عثمان. . وقالوا أيضاً اشترى مروان الغنائم التي كانت قيمتها أربعمائة ألف دينار بمائة ألف دينار . وقالو:أخذ مروان خمس أرمينيا[١] وجاء في خبر رواه ابن قتيبة أنّ مروان أخذ خمس إفريقية فوهبه كلّه عثمان لمروان[٢] وكلّ هذه التصرّفات لم يعرفها المسلمون ولم يألفوها في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر وعمر في الاستئثار بالغنائم، وفي طريقة توزيعها أو غير ذلك، ومن أسباب انضمّت إلى ما ذكر أثارت حفيظة المسلمين. والمؤرّخون أرجعوا ما جرى من تغيير لسنّة النبيّ ﷺ وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر إلى شخص مروان الذي أثار نقمتهم وحملهم إلى التوجّه إلى عثمان ومساءلته، فلمّا علم عثمان بذلك بعث إلى عليّ عليه السلام فأحضره وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه كلّ ما يريدون من العدل وحسن السيرة، فسار عليّ عليه السلام إليهم، فكان بينهم خطب طويل، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا، فلمّا صاروا إلى الموضع المعروف بحسمى إذا هم بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة، فتأمّلوه فإذا هو ورش غلام عثمان، فقرّروه فأقرّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح صاحب مصر وفيه:إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان،

١ـ ينظر: دراسات في تاريخ العرب، للعسلي ٢: ١٩١.

٢ـ المعارف: ١٩٥.

واقتل فلاناً، وافعل بفلان كذا. .[١] وهناك رواية تقارب سير هذه الأحداث، حيث يروي ابن قتيبة بأنّ عثمان سيّر أبا ذرّ إلى الربذة، وسيّر عامر بن عبد القيس من البصرة إلى الشام، فسار إليه قوم من أهل مصر فيهم محمّد بن أبي حذيفة بن عتبة ابن ربيعة في جند، وكنانة بن بشر التجيبي في جند، وابن عديس البلوي في جند، ومن أهل البصرة حكيم بن جبلة العبدي وسدوس بن عبيس الشنّي، ونفر من أهل الكوفة منهم الأشتر بن الحارث النخعي، فاستعتبوه فأعتبهم وأرضاهم ثمّ وجدوا، بعد أن انصرفوا يريدون مصر، كتاباً من عثمان بخطّ كاتبه عليه خاتمه إلى أمير مصر: إذا أتاك القوم فاضرب أعناقهم. فعادوا به إلى عثمان، فحلف لهم أنّه لم يأمر ولم يعلم. فقالوا: إنّ هذا عليك شديد، يؤخذ خاتمك بغير علمك وداخلتك! فإن كنت قد غلبت على أمرك فاعتزل[٢] فكان هذا ممّا أشعل نار الثورة وزاد في تفاعل الفتنة واضطرابها التي امتدّت إلى قتل عثمان، يقول المسعودي عن هذه الفتنة: فلمّا بلغ عليّاً أنّهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمّداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداء بمن ذكرنا، فصدّوهم عن الدار، فرمى من وصفنا بالسهام، واشتبك القوم وجرح الحسن وشجّ قنبر وجرح محمّد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أميّة، فتركوا القوم في القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليها، وكان ممّن وصل إليه محمّد بن أبي بكر ورجلان آخران، وعند عثمان زوجته، وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال، فأخذ محمّد بن أبي بكر بلحيته، فقال: يا محمّد، والله، لو رآك أبوك لساءه مكانك، فتراخت يده، وخرج عنه إلى الدار، ودخل رجلان فوجداه

١ـ مروج الذهب ٢: ٣٤٤.

٢ـ المعارف: ١٩٥.

فقتلاه[١]...، وهكذا كانت أوّل فصول هذه الفتنة لتتفاعل وتتضاعف في صدر خلافة عليّ عليه السلام وتتشعّب في فصول جديدة، وتمتدّ لها أيدي بعض الصحابة، وكان من هؤلاء طلحة والزبير اللذين غمسا يديهما في فتنة حرب البصرة، وما كان لهما أن يفعلا. نعم كان طلحة والزبير من الصحابة الذين لهم مواقف مشهودة ولهم ولأسيافهم يقف التاريخ إجلالاً، في مرحلة مضت، وقد عبّر عليّ عليه السلام عن هذا الإجلال بعد مصرعهما، بقوله لمّا أحضر له سيف الزبير «طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله».[٢] فلقد أسلم الزبير وله ستّ عشرة سنة، وهو أوّل من سلّ سيفه في سبيل الله. وأمّا طلحة فقد كان يردّ النبل عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد حتّى شلّت يده[٣] لكن النفس تتبدّل وربّما ساقتها الظروف وهي مكرهة لذلك. ولكن التاريخ يشير بالبنان إلى هذين الصحابيين في مواقف سابقة غير ودّية كانت لهما مع عثمان، وربّما إلى دور ما في تأجيج فتنة عثمان ومقتله. وكان الأجدر بهذين الصحابيين الابتعاد عن الساحة السياسية، والنأي عن المشاركة في أحداث جديدة تسهم في تأزيم الأوضاع وتمزيق الأمّة وزجّها في مشكلات ومحن، ممّا هيّأ وخلق فتنة جديدة كانت الأمّة في غنى عنها، لكن الذي حدث في تاريخ المسلمين الأوائل هو ميلاد فتنة جديدة أخطر من سابقتها، وهي فتنة حرب الجمل حيث حرّكا عائشة وحملاها إلى البصرة في نار أخرى أججوها مع آخرين هي فتنة الطلب بدم عثمان، وقد أشار لها عليّ عليه السلام بقوله «وأبرزا حبيس رسول الله لهما ولغيرهم»[٤] ليدفعا بأمّ المؤمنين من بيت الرسالة الذي كانت به مستكنة مستورة

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٣٤٤.

٢ ـ الكامل في التاريخ ٣: ١٣٢.

٣ ـ دول الإسلام، للذهبي ١: ٣٠ و٣١.

٤ ـ نهج البلاغة، ١٥٣ ضمن خطبة ١٧٢.

إلى قفار المحن والخطوب تحت سماء البصرة اللاهبة بالفتن.

وجرت بعد ذلك خطوب وأحداث أطاحت برأسيهما ورؤوس رجال آخرين في هذه الفتنة التي صبغت البصرة بلون أحمر كئيب. وقد كانت وقعة الجمل مليئة بصور محزنة ومؤلمة في كافّة ظروفها وتفصيلاتها، وممّا يروى عنها وعن شدّتها أنّ عبد الله بن سنان قال:لمّا كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتّى فنيت، وتطاعنا بالرماح حتّى تكسّرت وتشبّكت في صدورنا وصدورهم حتّى لو سيّرت عليها الخيل لسارت. وقالوا: علم أهل المدينة بالوقعة يوم الحرب قبل أن تغرب الشمس من نسر مرّ بماء حول المدينة ومعه شيء معلّق فسقط منه فإذا كفّ فيها خاتم نقشه:عبد الرحمن بن عتاب. وعلم من بين مكّة والمدينة والبصرة بالوقعة بما تنقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام[١] فهذه البشاعة التي كانت تنقلها الطيور وتبثّها بين الأمصار لم تكن هيّنة أو منسيّة، فقد تركت هذه الحرب آثاراً عميقة في تاريخ المسلمين، منها: ١ـ أنّ هذه المعركة التي اندلعت في جمادى الآخرة، وما صحبها من تحضير، وما أعقبها من آثار قد كانت السبب في كلّ ما جرى بعدها من آلام كحرب صفّين وحرب النهروان وظهور الخوارج، وانتصار الطلقاء واستشهاد أمير المؤمنين عليه السلام. ٢ـ إنّ معركة الجمل تسببت في إرساء قواعد الدولة الأموية التي كان معاوية يهيئ الأسباب لقيامها في بلاد الشام، ولولا الجمل لكان بوسع عليّ عليه السلام أن يتفرّغ لتلك الفتنة الأموية، فإنّ التاريخ يحدّثنا أنّ الإمام عليّ عليه السلام كان من أولوياته أن يفاجئ معاوية بهجوم كاسح لينهي ذلك الوجود التحريفي في بلاد الشام، ولكن أصحاب الجمل حالوا بين عليّ عليه السلام وبين تحقيق ذلك الأمل التاريخي الكبير. ولذا فإنّ معاوية كان يحرّض أصحاب الجمل وغيرهم على إشغال الإمام عليّ عليه السلام لكي ينهك قوّته شيئاً فشيئاً. ٣ـ لقد خسر الإسلام والمسلمون والإنسانية جمعاء

١ـ الكامل في التاريخ ٣: ١٤٦.

أخصب فرصة في حياتها من أجل أن ترى النور والهدى والعدل والكرامة من خلال التجربة الإنسانية العظيمة التي يباشر الإمام عليه السلام قيادتها، وضاعت أجلّ الفرص، وأعظم الظروف من أجل أن ترى الحقّ مجسّداً في أرض الواقع. ٤ـ لقد تسببت معركة الجمل في تمزيق وحدة المسلمين وجرّأت بعضهم على قتل بعض بشكل صريح ولبّست عليهم الحقّ، وأضاعت طريق الهدى على أكثرهم. ٥ـ كانت المعركة انتكاسة في تاريخ الإنسان، حيث عادت الرأسمالية الجاهلية، والاستعباد يحكم مسيرة المسلمين من خلال الحكم الأموي المنحرف عن حقائق التنزيل.[1]

وأكملت هذه المأساة فتنة أخرى انطلقت من أرض الشام تفاهم علىٰها معاوية بن أبي سفيان مع عمرو بن العاص بأحدوثة الطلب بدم عثمان. وعند هذه الفتنة الجديدة القديمة تساقطت الجماجم، وندرت الأيدي، وفقئت العيون على مذبح شهوات الحكم والسلطان في معركة صفّين. وقد وصف من هذه المعركة الشرسة نصر بن مزاحم المنقري فصلاً دامياً كان منها سمّي بليلة الهرير فيقول: وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتّى فنيت، ثمّ تطاعنوا بالرماح حتّى تكسّرت واندقّت، ثمّ مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلّا وقع الحديد بعضه على بعض، لهو أشدّ هولاً في صدور الرجال من الصواعق، و من جبال تهامة يدكّ بعضها بعضاً. وانكشفت الشمس بالنقع وثار القتام، وضلّت الألوية والرايات. وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كلّ قبيلة أو كتيبة من القرّاء بالإقدام على التي تليها. فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل، لم يصلّوا لله صلاة، فلم يزل يفعل ذلك الأشتر بالناس حتّى أصبح والمعركة خلف ظهره، وافترقوا عن

١ـ عبد الزهراء عثمان محمّد، **المعارضة السياسية في تجربة أمير المؤمنين عليه السلام**: ١٥٨.

سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة، وهي ليلة الهرير[١] هكذا كانت الدماء تسيل، والأيادي تتصافح بالرماح والسيوف، لا صلاة ولا ذكر، وكأنّهم في محراب أغبر أحمر تتضاحك أرواح الموتى فيه. وهنا تأتي فتنة جديدة هي فتنة التحكيم التي دعا إليها عمرو بن العاص بمكره في رفع المصاحف بين الجيشين المتحاربين. وكانت نتيجة التحكيم في صالح معاوية، لا لإعلان خلع عليّعليه السلام وتثبيت معاوية، ولكن لأنّ الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً في جيش عليّعليه السلام، فقد انقسم أتباعه إلى شيعة ظلّوا على الولاء له، وإلى خوارج رفضوا التحكيم وأعلنوا العصيان، وبدؤوا يثورون على عليّعليه السلام ويعتزلونه، لأنّه قبل التحكيم الذي رفضهعليه السلام وفرضوه هم بالتهديد. والعجب أنّه كان بين الخوارج كثيرون ممّن أرغموا عليّاًعليه السلام على قبول التحكيم، وكانوا يعترفون بذلك ويقولون:أخطأنا، فلماذا تتبعنا في خطئنا وأنت الخليفة! يجب أن تكون أبعد نظراً وأعمق رأياً! وانشقّوا عليه وخرجوا إلى النهروان[٢] وعموم الذين خرجوا على الإمام عليّعليه السلام كانوا من الذين شاركوا في سفك دم عثمان بن عفّان، كما أقرّوا بذلك لعليّعليه السلام حينما برزت فتنة التحكيم في صفّين، وقد كان عليّعليه السلام واعياً لهذه الفتنة، فيروي نصر بن مزاحم بأنّ عليّاًعليه السلام سعى لإفهام جيشه المفتون بلعبة عمرو ابن العاص في رفع المصاحف، فخاطب أصحابه بالقول:أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحقّ مقطعه، ولم يبق إلّا أن يقطع دابر الذين ظلموا. فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنّعين في الحديد شاكّي السلاح، سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدّمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة

١ـ وقعة صفّين: ٤٧٥.

٢ـ عبد الحكيم الكعبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر الخلفاء الراشدين: ٢٥٩.

المؤمنين: يا عليّ، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابن عثمان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم[١] وهكذا كان عليّ عليه السلام في محنة واضطراب، وتقسّم و تقابل وتشتت في الرأي والعقائد، وتمزّق بين الأصحاب وتململ في صفوف الجند، وكلّ هذا وقافلة الفتنة تسير إلى أرض جديدة، هي أرض النهروان، فتتساقط الرؤوس وتنزف الدماء، وتتكسّر الرماح على صدور أصحاب الأمس ورفاق الدرب في معركة شرسة تدمي القلب، وتوزّع الجيش الذي أعدّه عليّ عليه السلام لأمور أعظم وأخطر في صراعات منهكة تضعف الدولة وتفتتها، ليرث ولده الحسن عليه السلام كلّ هذا، ثم يأتي معاوية بجند منضبطين ليقف أمامه بقوّة وانسجام عسكري ونفسي واعتقاد جازم بأنّ جبهة الحقّ معهم! فيترك الحسن عليه السلام مضطرّاً خيار السلطة السياسية، ويبتعد عن بريقها وفتنتها، وينصرف إلى ظلال المدينة نائياً عن فراعنة الأمويين. ومن هنا يُؤرّخ للأمّة سقوط الشرعية وميلاد الجاهلية مرّة أخرى، بإقرار الأمّة للكسروية الأموية الجديدة، بعد أن خلعت ثوب الطاعة عن نفسها، لمّا تمرّدت وعتت على الخطّ العلوي، وانساقت صوب الخطّ الأموي الجديد الذي خدعها وأغراها، فيقول الباحث أحمد حسين يعقوب: لقد سقطت الشرعية وعادت الجاهلية، ولكن بثوب الإسلام الذي صار طريقاً إلى الملك. فالخليفة الملك هو خليفة الرسول من حيث الشكل، وهو ولي أمر المسلمين، وهو مرجعهم الرسمي في أمور دينهم ودنياهم، ولكن لا مؤهّل له إلّا القوّة والغلبة، إذ صارت القوّة سبباً مكسباً للخلافة، بل هي السبب الوحيد. وبما أنّ الخليفة الملك هو خليفة الرسول فقد تمتّع بكلّ الصلاحيات التي كان يتمتّع بها الرسول، وأُضفيت عليه القداسة التي كانت للرسول بوصفه خليفته! تلك هي

١ـ وقعة صفين: ٤٨٩.

الكارثة التي واجهت الأمّة وواجهت أهل أئمّة أهل بيت النبوّة.[١] ويذهب بعد ذلك أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى جنّات الخلود بشهادته الدمويّة المفجعة.

العراق القديم ونفسية أهل الكوفة

كان العراق في غالب نظر المؤرّخين قطراً معروفاً بغنى أرضه ووفرة مائه، وكان موطناً لحضارات راقية تعاقبت على ربوعه منذ فجر التاريخ حتّى زوال آخر حضارة عراقية ناضجة سنة ٥٣٩ ق. م على أيدي الأخمينيين الفرس، فقد تعاقبت على احتلال العراق ثلاث دول فارسية، لما زاد على ألف سنة، الدولة الأخمينية ٥٣٩_٣٣٢ ق. م، والبرثية ١٤٧ ق. م _ ٢٢٧ م، والساسانية ٢٢٧ _ ٦٣٧ م. ولقد أقام حكّام هذه الدول عاصمة ملكهم على أرض العراق في المدائن (طيفسون). والعراق بفضل ثرائه وموقعه الجغرافي وموارده البشرية وتاريخه الحضاري صار مركزاً للإمبراطورية الفارسيّة، خاصّة خلال الحكم الساساني، وعلى الرغم من محاولات الفرس أن يطبعوا هذه البلاد بطابعهم من خلال التقسيمات الإدارية التي وضعوها، وتقسيم الأراضي وتسميتها بأسماء ملوكهم، إلّا أنّ العراق ظلّ متميّزاً عن الوطن الأصلي للمحتلّين بلاد فارس، وظلّ شعبه متميّزاً بفضل جذوره الحضارية العميقة. . وكان سكّان العراق، قبل انطلاق حركة الفتوح العربية الإسلامية، من العرب القدامى الذين يطلق عليهم الكتّاب العرب اسم النبط أو النبطيين، وعادة ما يستعمل لفظ النبط في المصادر للإشارة إلى الفلّاحين الذين يتكلّمون الآرامية في العراق، وهم سكّان البطائح أو سكّان القرى بشكل عام في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق. ويرى الكثير من الكتّاب العرب أنّ هؤلاء كانوا من العرب

١ـ المواجهة مع رسول الله وآله: ٥٨٩.

القدامى[١] ويرى أكثر الباحثين بأنّ النبط عرب سكنوا العراق، ولهم من الأدلّة التي ساقوها ما يؤيّد ذلك، وذهب الكعبي إلى دليل من نصوص التاريخ فقال: لعلّنا نجد في العبارة التي قالها عبد المسيح بن عمرو- من أهل الحيرة - لخالد بن الوليد، حين سأله :أعرب أنتم أم نبط ؟قال:نحن عرب استنبطنا، ونبط استعربنا.[٢] ثمّ يقول معلّقاً على هذا القول: إشارة واضحة إلى التفاعل والاختلاط بين العرب القدامى والمهاجرين الجدد من جزيرة العرب، وهو خير جواب لمن يريد معرفة أصل هؤلاء القوم الذين يشكّلون جزءاً رئيساً ومهمّاً من المجتمع العراقي قبل الإسلام. أمّا عرب شبه الجزيرة فقد كان لهم وجود قديم في المنطقة، وكانت

١ـ اختلف العلماء في أصل النبط بين كونهم عرباً أو آراميين، والمؤرّخ جرجي زيدان يسوق من الأدلّة على عربيتهم فيقول: الذين عرفوهم من مؤرّخي اليونان، فإنّهم حيثما ذكروهم سمّوهم عرباً. وأنّ أسماء ملوكهم عربية، كالحارث، وعبادة، ومالك، وجميلة. وللإعلام دخل كبير في بيان أصول الأمم. فالرجل الذي يسمّى نيقولايدس نحكم بأنّه يوناني الأصل وإن تزيّا بزي الأتراك أو الروس، والمسمّى أرتين أو دمرجيان نحكم أنّه أرمني و إن كانت لغته الفرنسية أو الانجليزية أو العربية، إذ لكلّ أمّة تسمية خاصّة بها. . والقائلون بآراميتهم يحتجّون بأنّ لغتهم آرامية، وأنّ لفظ النبط يطلق عند العرب على أهل العراق، ولكنّ مؤرّخي اليونان الذين سمّوهم عرباً قد عاصروهم، وهم أعلم الناس بهم. نعم إنّ اللغة التي قرؤوها على آثارهم آرامية لكنّها ليست هي لغة التكلّم عندهم. **تاريخ العرب قبل الإسلام:** ١٠٤.

٢ـ هناك من يؤيّد مقولة الذاهبين إلى أنّ النبط هم عرب استعجموا، أو عجم استعربوا. ومنهم فخر الدين الطريحي، كما ذكر ذلك في **مجمع البحرين** ٤: ٢٧٥ (نبط)، وروى الشيخ الصدوق عن الصادق عليه السلام رواية ينفي انتساب النبط للعرب أو العجم، وكأنّهم سكنوا العراق من أقوام انحدروا من بقاع أخرى بعيدة ليسوا من العرب ولا من العجم، فقد روى هشام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال:يا هشام، النبط ليس من العرب ولا من العجم. **علل الشرائع:** ٥٦٦ الباب ٣٦٨. ويذهب الخطيب البغدادي إلى أنّ النبط كانوا في أرض السواد قبل ملك فارس. وأنّ النبط هم الذين استنبطوا الأرض وعمّروا السواد، ويقال لهم ملوك الطوائف. **تاريخ مدينة السلام** ١: ٣٦٢.

محاولاتهم للتسلل من موطنهم الأصلي إلى المناطق الخصبة المجاورة مستمرّة في كلّ العصور خاصّة إلى بلاد وادي الرافدين، وربّما أشارت المصادر إلى وجود عربي قديم جدّاً في العراق يمتدّ إلى نحو ثمانية قرون قبل ميلاد السيّد المسيح عليه السلام.[1] وافتراض استيطان العرب في أرض العراق إلى ثمانية قرون يستند إلى أدلّة وقرائن وقعت بأيديهم فأخذ بها هؤلاء الباحثون. وربّما يمتدّ وجودهم واستيطانهم هناك إلى قرون أكثر ممّا ذكروا. و من المؤرّخين القدامى الذين ذهبوا إلى هذا الرأي المؤرّخ محمد بن جرير الطبري فيقول: بأنّ العرب هم الذين اتّخذوا الحيرة والأنبار منزلاً عند بدء نزولهم. ويتحدّث عن اتّخاذهم الآلهة والأصنام من دون الله، وتكذيبهم الأنبياء في أرض العرب الذين بعثهم الله هناك فيقول:إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى برخيا بن أحنيا بن زربابل بن شلتيل من ولد يهوذا:أن ائت بختنصر وأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب، ويطأ بلادهم بالجنود فيقتل مقاتلتهم ويستبيح أموالهم، وأعلمه كفرهم بي واتّخاذهم الآلهة دوني وتكذيبهم أنبيائي ورسلي. فأقبل برخيا من نجران حتّى قدم على بختنصّر ببابل، وهو نبوخذ نصّر فعرّبته العرب، وأخبره بما أوحى الله إليه وقصّ عليه ما أمره به، وذلك في زمان معد بن عدنان. فوثب بختنصّر على من كان في بلاده من تجّار العرب، وكانوا يقدمون عليهم بالتجارات والبياعات ويمتارون من عندهم الحبّ والتمر والثياب وغيرها، فجمع من ظفر به منهم فبنى لهم حيراً على النجف وحصّنه ثمّ ضمّهم فيه ووكل بهم حرساً وحفظة ثمّ نادى في الناس بالغزو، فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب، فخرجت إليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين، فاستشار بختنصّر فيهم برخيا فقال:إنّ خروجهم إليك من بلادهم قبل نهوضك إليهم رجوع منهم عمّا كانوا عليه فاقبل منهم فأحسن إليهم، فأنزلهم بختنصّر السواد على

١ـ عبد الحكيم الكعبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر الخلفاء الراشدين**:٤٣.

شاطئ الفرات فابتنوا موضع عسكرهم بعد فسمّوه الأنبار.[١] ومن هذا النصّ نرى بأنّ العرب في أرض العراق لهم وجود قديم وأصيل، كما نلحظ بأنّ أمدهم هناك قد طال فتسرّبت إليهم مظاهر الوثنية والضلالة والطغيان، شأنهم شأن عباد الله الآخرين الذين يطول استقرارهم في الأرض فتأخذهم الغفلة ويركبهم الشيطان فيزيّن لهم الكفر والمعصية، فيتظالمون ويملى لهم فلا يتّعظون، ويبغي بعضهم على بعض ويطغون فيجنحون إلى الأوثان التي تعبّر عن كثرة نزاعاتهم واستنابتهم إلى قوّة غيبية تساعدهم وتعينهم على استنصار بعضهم على البعض الآخر، والأديان بمجموعها ـ سواء كانت سماوية أو غير سماوية ـ مظهر من مظاهر الاستيطان والاستقرار رافقت الحضارات القديمة. فالمصريون والبابليون عرفوا بكثرة معابدهم، وكانت آثارهم القديمة، بما في ذلك آدابهم، تترجم أحاسيسهم الدينية. وتتناسخ الأيّام على أرض العراق ليحمل الأبناء هذا المخزون الحضاري والديني الذي كان عليه أهل العراق القدامى، فتتلاقى مع سيرورة التاريخ، ومع هذا التكوين العراقي الفريد، موجة بشرية جديدة زحفت على أرض العراق مع حركة الفتح الإسلامي، تمثّلت بالقبائل اليمانية التي استوطنت الكوفة، وكانت هذه القبائل تحمل خزيناً من التجارب والرؤى التي حملتها من أرض اليمن ذات التراث والامتداد الحضاري الذي يفتح الأذهان ويشحذها، ومع هذه الكتل البشرية ذات الرأي والمقال كانت هناك هجرات بشرية أخرى هبطت أرض الكوفة والأنبار وما جاورها من هضاب أرض فارس فازدحمت الكوفة بالرجال والأهواء والحضارات المتباينة التي شكّلت مجتمعاً جديداً، له رجاله وامتداده إلى عمق التاريخ البشري، ومن هنا فليس من الميسور على أيّ سلطة أن تصهر هؤلاء وتتخذ

---

١ ـ تاريخ الأمم والملوك ١ : ٣٩٧ .

منهم رعيّة سهلة طائعة تستوعب متغيرات الوضع الجديد. ولو قيّض للكوفة[١] رجال أخر غير عليّ والحسن عليهما السلام لم يكن حظّهم في قيادتهم والسير بهم أحسن ممّا كان، وربّما كانت معاناتهم أكثر، وعذابهم معهم أطول وأكثر إيلاماً، فبيئة مضطربة بالقوميات والقبائل والنحل والحضارات التي مرّت عليها لاتستجيب بسهولة لقائد يبتلى بها. وشاء القدر أن يكون هذا القائد الذي واجه هذه الجماعات والكتل والحضارات الهابطة في الكوفة هو الوصيّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي واجه هذا الكم البشري والحضاري هناك، ولعلّنا نجد في مطاوي التاريخ من يعتقد أنّ عليّاً عليه السلام أراد الكوفة لتنفيذ مشروعه الإصلاحي العظيم، ولكن هناك من يرى عكس ذلك فيعتقد الباحث هاشم معروف الحسني بأنّ عليّاً لم يكن يخطط للكوفة بأن يتّخذها مقرّاً لقيادته أو مركزاً لأفكاره، فيقول:لم أجد في ما بين المصادر ما يشير إلى أنّ أمير المؤمنين كان يفكّر في ترك المدينة حين خروجه منها إلى البصرة، وأنّه كان يعزم على أن يتّخذ الكوفة وغيرها من الأمصار مقرّاً لحكومته بدلاً من المدينة، ولا أظنّ أنّ ذلك كان في حسابه أو حساب أحد من الناس، ولكن التطوّرات التي حدثت بعد المعركة فرضت عليه ذلك، فبعد أن تفرّق المتمرّدون وأرجع السيّدة عائشة إلى بيتها الذي أمرها الله ورسوله أن تقرّ فيه وجدّد الناس بيعتهم له في البصرة واستتبّ فيها الأمن، ولّاها ابن عمّه عبد الله بن عبّاس وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة، على أبعد التقديرات، متّجهاً نحو الكوفة ليتّخذها مقرّاً له. وهنا يختلف المؤرّخون في الدوافع التي فرضت عليه

١ـ قد يتردّد في الأخبار وفي خطب عليّ عليه السلام وإشاراته إلى الكوفة دون غيرها، وكأنّ المراد بالكوفة هو أرض العراق كلّها، لأنّ الكوفة كانت عاصمة لعليّ عليه السلام، ومنها تنطلق البعوث. وأجاب ابن ميثم البحراني عن هذا الموضوع بالقول:إنّما خصّص الكوفة دون البصرة وغيرها، لأنّ جمهور من كان يعتمد عليه في الحرب هم أهل الكوفة. **شرح نهج البلاغة ٢: ٢٠.**

ذلك، فبعضهم يرى أنّ الأشتر النخعي وغيره من زعماء الكوفة أرادوه على ذلك وألحّوا عليه، فنزل عند رغبتهم. ويرى آخرون بأنّ الثائرون الذين يسمّيهم الطبري وبعض المؤرّخين بالسبئية تعجّلوا الخروج من البصرة إلى الكوفة فاضطرّوه أن يلحق بهم مخافة أن يفسدوا فيها ويخلقوا له فتنة كالتي كانت في البصرة[1] وسواء كان اختيار الكوفة عاصمة له عليه السلام بتخطيط سابق كان له فيه رأي، أو أملته ظروف الحرب ليكون عن قرب لقمع التمرّد الذي كان في الشام، أو أنّه عليه السلام لم يجد فرصة عسكرية وسياسية يتّخذ فيها قراره النهائي لإدارة الدولة المثقلة بالمشاكل والفتن والتبعات، فهو قد لاقى الكوفيين بأبيضهم وأسودهم، وصالحهم وطالحهم، ووضيعهم وشريفهم، وجهاً لوجه، فالكوفة بوجهيها كانت أمام عليّ عليه السلام ومعه وكتبت تاريخها وتاريخه البطولي المشحون بضروب من المواجهة العسكرية والسياسية، والتهاب نيران الفتن في عهده عليه السلام، حتّى وكأنّ الفتن والحروب لم يكتب لها أن ترحل أو تفارق الكوفة وأرضها لتمتدّ في آفاق أخرى غطّت شرق الدولة وغربها. ومع ما كان من ظلام كوفي تراءى لنا في مرويات التاريخ، فإنّ كوى مضيئة أطلّ منها وشاهدها الباحثون والمؤرّخون في مشاهد كان للكوفة فيها حظّ كبير أشرق لها وجه الكوفة، ولكن الوجه المشرق للكوفة الذي أناره رجال مؤمنون صادقون عارفون منهم، لم يكن مناص لمن درس التاريخ أن يهمله أو يتجاهل بعض المواقف البطولية الشجاعة والمشرّفة لجمع منهم، وقد تجلّى هذا الإخلاص والصدق في مشهد لم يكن يبعد كثيراً عن نفوس أخيارهم فأعلنوا وفاءهم وحبّهم لوصيّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته، بقولهم لعليّ عليه السلام في ذي قار: الحمد لله الذي خصّنا بجوارك وأكرمنا بنصرك. فما كان من عليّ عليه السلام إلّا أن قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أهل الكوفة، إنّكم من أكرم المسلمين وأقصدهم تقويماً وأعدلهم

١ـ سيرة الأئمّة الاثني عشر١: ٤٦٤.

سنّة، وأفضلهم سهماً في الإسلام، وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً، أنتم أشدّ العرب ودّاً للنبيّ وأهل بيته، وإنّما جئتكم ثقة بعد الله بكم للذي بذلتم من أنفسكم عند نقض طلحة والزبير، وخلفهما طاعتي، وإقبالهما بعائشة للفتنة، وإخراجهما إيّاها من بيتها حتّى أقدماها البصرة، فاستغووا طغامها وغوغاها، مع أنّه قد بلغني أنّ أهل الفضل منهم وخيارهم في الدين قد اعتزلوا وكرهوا ما صنع طلحة والزبير. ثمّ سكت عليه السلام، فقال أهل الكوفة :نحن أنصارك وأعوانك على عدوّك، ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير ورجوناه. فدعا لهم أمير المؤمنين وأثنى عليهم.[1] وهناك أخبار تروى بأنّ علياً عليه السلام قال لهم: مرحباً بأهل الكوفة بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأهل بيته[2] ويروى أنّ الحسن بن علي عليه السلام استنفر أهل الكوفة إلى حرب الجمل فقال:أيّها الناس، إنّه قد كان أمير المؤمنين عليه السلام ما تكفيكم جملته، وقد أتيناكم مستنفرين لكم، لأنّكم جبهة الأمصار ورؤساء العرب[3] وربّما كان تبادل العواطف والمشاعر بين أهل الكوفة وعليّ عليه السلام قائماً إلى أمد ليس بالقصير، فهذه المواقف التي رواها المؤرّخون عن الكوفيين تبدو وكأنّها صارت مشهورة لهم في رأي الكثير من المؤرّخين، ويحدّث الحافظ ابن كثير عن ابن أبي خيثمة خبره فيقول:حدّثنا أحمد بن منصور، حدّثنا سيّار، حدّثنا عبد الرزّاق قال:قال معمر مرّة وأنا مستقبله، وتبسّم وليس معنا أحد، فقلت له:ما شأنك ؟قال:عجبت من أهل الكوفة ! كأنّ الكوفة إنّما بنيت على حبّ عليّ عليه السلام.[4] ولم تتغيّر الصورة المشرقة لأخيار الكوفة

١ـ **إرشاد المفيد**: ١٣٣. وفي رواية أخرى للمفيد أنّه قال عليه السلام في هذه الخطبة:وقد بلغني أنّ أهل البصرة فرقتان :فرقة الخير والفضل والدين. **الجمل والنصرة لسيّد العترة في حرب البصرة**: ٢٦٦.

٢ـ **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد ٢: ١٨٨.

٣ـ **صحيفة الحسن عليه السلام**، للقيومي: ١١٤.

٤ـ **البداية والنهاية** ٨: ١٢.

وصلحائها، على رغم الخطوب والمحن التي أصابت آل عليّ عليهم السلام وشيعته وأصحابه الذين غدر بهم فسّاق الكوفة وطغاتها، في ساحات الكوفة وأطرافها، بل ظلّت ذاكرة العلويين وأئمّتهم تحتفظ بذكرى طيّبة عنهم، وعكس عبد الله بن الوليد عواطف الوليّ العلوي في العهد الأموي والعبّاسي الإما م جعفر الصادق عليه السلام حين دخل عليه جمع من أهل الكوفة فقال لهم عليه السلام: ممّن أنتم ؟فقالوا: من أهل الكوفة، فقال عليه السلام: إنّه ليس بلد من البلدان ومصر من الأمصار أكثر محبّاً لنا من أهل الكوفة. ثمّ قال عليه السلام:إنّ الله هداكم لأمر جهله الناس فأحببتمونا وأبغضنا الناس، وصدّقتمونا وكذّبنا الناس، واتّبعتمونا وخالفنا الناس، فجعل الله تعالى محياكم محيانا ومماتكم مماتنا، فأشهد على أبي كان يقول:ما بين أحدكم وبين أن يغتبط ويرى ما تقرّبه عينه إلّا أن تبلغ نفسه هاهنا ـ وأومأ بيده إلى حلقه ـ وقد قال الله في كتابه: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾[1] فنحن ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله.[2] ويبدو أنّ بعض الصحابة كان يكره أرض العراق، ولعلّه بالغ في شؤم أرضها، فلذا كان يرى في أرض العراق ومن ضمنها الكوفة موطن الأشرار، فيروى لمّا أراد عمر بن الخطّاب الخروج إلى العراق قال له كعب الأخبار:لا تخرج إليها، فإنّ بها تسعة أعشار السحر، وبها فسقة الجنّ، وبها الداء العضال.[3] وهناك رأي آخر يرى في جماع رجالات الكوفة أعاصير سوداء انطلقت منها الفتنة والضلالة، ومن هؤلاء السيّد حسين البراقي الذي لم يرفي رجال الكوفة إلّا الوجه الكالح فيقول:لم يسجل التاريخ لرجالات الكوفة، بالرغم من شهرة هذه المدينة العظيمة و موقعها التاريخي الكبير في بدء تمصيرها وكونها مرتكزاً للخلافة الكبرى ردحاً من الزمن،

١ـ الرعد : ٣٨.

٢ـ **تفسير فرات الكوفي**: ٧٦ وط أخرى: ٢١٧ ح١٩١، **أمالي الطوسي**١: ١٤٤ ح ٢٣٤.

٣ـ **موطأ مالك** ٢: ٩٧٥ كتاب الاستئذان.

ونبوغ رجالات الأمّة فيها مآثر جديرة بالتقدير، وكأن من انتحى نحوها يوم مصّرت إنّما تبوّأها ليبثّ روح الشقاق، أو يزرع بأرجائها بذور النفاق، و يختبئ بين فجاجها جراثيم الفساد، لذلك لمّا أينعت وبسقت أغصانها لم يشهد فيها غير الانثيال عن الحق وأهله، و الميل إلى الجور، والإصاخة إلى داعية ضلال.[١] ثمّ يخلص إلى

١ـ أدرك معاوية أن وضع الكوفة بيد رجل قوي مجرّب له حنكة ودراية يمكن أن يجنبه اضطراب هذه المدينة، أو كلّ الإقليم الساخن العراق ومركزه الحيوي آنذاك الكوفة، والحقيقة أنّ عدم استقرار الكوفة وخروجها من سيطرة الدولة يمكن أن يسبّب له من المتاعب والاضطرابات السياسية الخطيرة التي تعصف بكيان الدولة الأموية، فالكوفة في حالة خلوّها من رجل قوي حكيم، ربّما تنتهي إلى وضع حرج ممّا لايمكن تقدير عواقبه، لذا عيّن معاوية المغيرة بن شعبة والياً هناك. وقدم المغيرة إلى الكوفة وهو كبير السنّ وقد صقلته الحياة، ولذا فقد حرص ألاّ يصطدم بمن فوقه، ولابمن تحته، ولم يكن متحمّساً لمعاوية ولا متحمّساً ضدّ الأحزاب المتصارعة في الكوفة، بل همّه الاحتفاظ بولاية الكوفة، وقد وضع سياسته بقوله: لا أحبّ أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعزّ في الدنيا معاوية ويذلّ يوم القيامة المغيرة. . وقد نجح المغيرة في التخلّص من الخوارج أعداء الدولة الألدّاء، وذلك بتعاون أهل الكوفة معه، لأنّه نجح في كسب رضاهم عنه، وذلك لأنّه لم يشتدّ معهم. ورغم معرفته بأنّهم سوف يتحرّكون عسكرياً ضدّ معاوية، لأنّه كان على يقين أنّه سوف لن يشهد تحرّكهم حيّاً، وقد أراد العافية لنفسه وأراد أن يلقي ذلك على كاهل من سيخلفه، وأنّ تساهله وليونته مع الكوفيين جعلتهم يقولون :ما وليهم وال مثله. وقد ظلّ المغيرة والياً على الكوفة حتّى مات سنة ٥١، فضمّ معاوية الكوفة إلى زياد بن أبيه والي البصرة. وفي خطوة سياسية و إدارية جديدة مدروسة أمر زياد بنقل خمسين ألف من البصرة والكوفة بعائلاتهم إلى خراسان وأسكنهم فيما وراء النهر، ولعلّ ذلك يعود إلى رغبة زياد في التخفيف من حدّة التوتّر السياسي في العراق. صلاح طهبوب، **العصر الأموي، موسوعة التاريخ الإسلامي**: ١٠ و١٤. ويروى من حنكة المغيرة ودهائه أنّ حجر بن عدي واجهه مواجهة حادّة بقوله له: مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنّك قد حبستها عنّا، وليس ذلك لك ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعاً بذمّ أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين، فقام معه أكثر من ثلثي الناس يقولون :صدق والله حجر وبرّ، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنّنا لاننتفع

القول: هذه نفسية القوم عرفوا منذ العهد العلوي، فيوم كان يستنصرهم عليّ عليه السلام في وقعة الجمل و يخذّلهم عنه أبو موسى الأشعري، وما كان نفيرهم إليه إلّا بعد هن وهن وقدوم الأشتر و استنفارهم بقوّة بأسه، و لا تنس يوم رفع المصاحف بصفّين يوم جاؤوا بالفاجعة الكبرى شوهاء شنعاء التقت بها حلقتا البطان، ثمّ ندموا على ما فرّطوا في جنب وليّ الله فأثاروا فتنة النهروان غير متأثّمين، وألقوا المسؤولية فيها على عاتق عليّ عليه السلام بحجّة داحضة، و بعد أن مسحهم السيف الإلهي و تطامنت النفوس على حرب معاوية، لم يبرح الإمام عليّ عليه السلام يستشيرهم الآونة بعد الآونة وهو لا يجد إلّا مترسـاً بالأعذار أو متستّراً بالفشل أو مضمراً غدراً أو متحيّزاً إلى فئة

بقولك هذا، ولا يجدي علينا شيئاً. وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه فنزل المغيرة فدخل عليه قومه فأذن لهم فقالوا:علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك في سلطانك هذه الجرأة! إنّك تجمع على نفسك بهذا خصلتين، أمّا أوّلها فتهوين سلطانك، وأمّا الأخرى فإنّ ذلك إن بلغ معاوية كان أسخط له عليه. فقال لهم المغيرة:إنّي قد قتلته، إنّه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي فيأخذه عند أوّل وهلة فيقتله شرّ قتلة. **تاريخ الطبري** ٤: ١٨٩. وروى أبوحنيفة الدينوري نحو هذا الخبر فقال:قد كان معاوية خلّف على الكوفة حين شخص منها المغيرة بن شعبة، فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب فحصبه حجر بن عدي، وكان من شيعة عليّ عليه السلام، في نفر من أصحابه، فنزل مسرعاً من المنبر، ودخل قصر الإمارة، وبعث إلى حجر بخمسة آلاف درهم ترضّاه بها. فقيل للمغيرة :لم فعلت هذا، وفيه عليك وهن وغضاضة! فقال:قد قتلته بها. فلمّا مات المغيرة وجمع معاوية لزياد الكوفة إلى البصرة، كان يقيم بالبصرة ستّة أشهر، وبالكوفة مثل ذلك، فخرج في بعض خرجاته إلى البصرة، وخلّف على الكوفة عمرو بن حريث العدوي، فصعد عمرو بن حريث ذات جمعة المنبر ليخطب، وقعد له حجر بن عدي وأصحابه فحصبوه فنزل من المنبر، فدخل القصر وأغلق بابه. وكتب إلى زياد يخبره بما صنع حجر وأصحابه. فركب زياد البريد حتّى وافى الكوفة. . فأمر بحبسه، وأمر بطلب أصحابه الذين كانوا معه، فأتي بهم فوجّههم جميعاً إلى معاوية. . **الأخبار الطوال**: ٢٢٣. فكان ما كان من قتل حجر بعده وعدد من رجال الكوفة على أيدي معاوية وولاته.

فجرّعوه الغصص حتّى مجّهم، و تمنّى أن معاوية عوّضه واحداً من الشام بعشرة منهم صرف الدينار بالدرهم. وقال فيهم: قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً ... الخ، وتلت تلك الفضائع ما احتقبوه أمام المجتبى سبط الرسول صلى الله عليه وآله يوم سار إلى معاوية فوافوا وحشو إهابهم عار، و ملء عيابهم عيوب و مخازي، و خامرهم حبّ الشهوات، فتركوا داعية الحقّ أمام معاوية فشلاً، ولم يقنعهم ذلك حتّى انتهبوا ثقله و هتكوا حرمته، وطعنوه بمغول في فخذه.[1] وكأنّ الوجه الإيجابي الذي كان عليه صلحاء أهل الكوفة لم يرد بخاطر هؤلاء الباحثين، فانبروا إلى ملاحظة الصور السوداء التي رسمها قساة أهل الكوفة وفسّاقها فامتلأت عيونهم من سواد هذه الصورة فعكست أقلامهم هذا الوضع القاتم للكوفة. وأمّا الحسن عليه السلام فلم يكن ينظر للكوفة بهذه الرؤية الأحادية، و إنّما كان ينظر إلى الصورة بوجهيها، سوادها وبياضها، يرى الحقائق التي يتفهمها كإمام سياسي وديني، لذا كان يدرك بأنّه لا يمكن له أن ينتزع خيار أهل الكوفة وصلحائها فيغامر برجالاتهم الصادقين فيزجّهم في معركة غير مستوفية لشروطها.

فلم يجد الحسن عليه السلام بدّاً غير الأسلوب السياسي والدبلوماسي لاحتواء معاوية وغلق ملفات الحروب والصدامات المسلّحة التي ابتلي بها العراقيون، من معركة الجمل إلى صفّين ومن ثم الحرب الداخلية بين أبناء الجيش الواحد في معركة النهروان، فكلّ هذه المعارك كانت منهكة ومتعبة لجيش دولة ناهضة هي دولة الكوفة الصاخبة التي كانت تلتهب بالفتن والمؤامرات والحكايات والمسامرات والآمال والطموحات في آن واحد، وكأن قدر هذه العاصمة أن تتلوّن بلون أحمر يحاكي رمالها الحمراء، فلم يكن هذا القائد والخليفة الجديد غائباً عن هذه الملاحم والحكايات المريرة التي كان يتسامر بها أهل الكوفة الذين تلقّت

١ـ تاريخ الكوفة: ٢٦٣.

جماجمهم ضربات السيوف، وعصفت بقلوبهم رياح الفتن والآراء والمقولات، وقد مسّته رياح من سموم الفتن والشهوات ولجت عليه فسطاطه وبيته الخاصّ. وفي هذا يروى عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال :وثب أهل العراق على الحسن عليه السلام حتّى طعن بخنجر في جنبه، وانتهب عسكره، وعولجت خلاخيل أمّهات أولاده، فوادع معاوية دمه ودماء أهل بيته[1] فكيف يمكن لقائد أن يمارس دوره ويكمل مسيره، وهو غير آمن على الخيمة التي يستكنّ بها عياله وأولاده! والأنكى من ذلك هو سوء الاعتقاد به والتشكيك بإيمانه. وجاء في رواية الشيخ المفيد أنّ عدّة من جنوده الذين يؤمّل أن يخوض بهم حرباً وصفوه بالكفر وشدّوا على فسطاطه وانتهبوه، حتّى أخذوا مصلّاه من تحته، ثمّ شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه، فبقي جالساً متقلّداً بالسيف بغير رداء، ثمّ دعا بفرسه وركبه، وأحدق به طوائف من خاصّته ومن شيعته، ومنعوا منه من أراده، فقال عليه السلام :ادعوا لي ربيعة وهمدان، فدعوا وأطافوا به وأوقفوا الناس عنه، وسار عليه السلام ومعه شوب من غيرهم، فلمّا مرّ في مظلم ساباط بدر إليه رجل من بني أسد يقال له: الجرّاح بن سنان، وأخذ بلجام بغلته وبيده مغول وقال:الله أكبر، أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل! ثمّ طعنه في فخذه فشقّه حتّى بلغ العظم، ثمّ اعتنقه الحسن عليه السلام وخرّا جميعاً إلى الأرض، فوثب إليه رجل من شيعة الحسن عليه السلام يقال له:عبد الله بن خطل الطائي، فانتزع المغول من يده وخضخض به جوفه، فأكبّ عليه آخر يقال له:ظبيان بن عمارة، فقطع أنفه فهلك من ذلك، وأخذ آخر كان معه فقتل، وحمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن، فأنزل به على سعد بن مسعود الثقفي، وكان عامل أمير المؤمنين عليه السلام بها، فأقرّه الحسن عليه السلام على ذلك، واشتغل

١ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١١: ٤٣.

الحسن عليه السلام بنفسه يعالج جرحه[١] فلذا كانت بداية بيعته وحكومته ملأى بالفتن والمشاحنات واختلاف الآراء وتقسّمها وتباينها عن منهجه ومنهج أبيه عليه السلام، فلم يجد سبيلاً لإطفاء هذه الفتن والحروب التي تهدّد كيان الدولة والمجتمع الإسلامي غير توكيد الخطّ السياسي التصالحي، والنأي بالأمّة عن جادة الحروب وويلات القتال وسفك الدماء، لأنّ جيش العراق كان منهكاً وممزّقاً وغارقاً بفتنه وانشقاقاته. ومن المؤكد أنّ جيشاً مثل هذا الجيش يكون غير قادر على المواجهة وحسم الأوضاع العسكرية في معركة سريعة خاطفة يفاجئ بها الخصم، وكما كان يدور في ذهن الحسن عليه السلام فالحقيقة الميدانية وما يحتاج ويتطلّبه الوضع السياسي آنذاك كان لا يتجاوز ما رآه وأبصره الحسن عليه السلام من أحوال واستعدادات جيش العراق الممزّق، لأنّ الوضع الميداني والمعنوي الذي استقرأه الحسن عليه السلام لإنهاء التمرّد الذي استفحل في الشام لايمكن تسويته في معركة تقليدية عادية يتمكّن فيها معاوية تنظيم قواه وتجديدها، وإنّما كان وضع معاوية يتطلّب الاستئصال السريع والصاعق لأنّه قد يتمكّن بما أوتي من دهاء وفطنة من تعبئة أعداد كبيرة من المغفّلين بدعايته في الثأر لعثمان. والملاحظ أنّ حركة الفتنة والاضطراب التي كانت تسير مع جيش العراق جعلته عليه السلام يفتقد عنصر المباغتة، وكان هذا الجيش الذي أعدّه الحسن عليه السلام أشبه بفصائل فارّة من معركة، أو كأنّها جماعات لا رابط لها إلّا الغارة والغنيمة في صحراء قفر خرجت لمواجهة جيش قويّ منظم مطيع منسجم في تنظيمه وإعداده، ويقوده داهية ذلّل أهله واستغفله، فمعاوية كان يعد العدّة ويخطط لكي ينهض بهذا الجيش لتحقيق مآربه من زمن بعيد، فقد كان معاوية حاكماً لعقدين في بيئة صنع منها رعية طائعة خاضعة لا تفهم ولا تناقش، وإنّما تنقاد وتندفع لما يؤمر ويراد منها. وأمّا البيئة التي انطلق منها

١ـ الإرشاد، للشيخ المفيد: ١٩٠.

جيش الحسنعليه السلام فهي بيئة عليّعليه السلام التي عايشها وأتعبته في مجمل سياسته. لقد حصد الإمام الحسنعليه السلام نتائج معارك وانشقاقات صعبة لايمكنه معها من السيطرة على جيشه الذي ما زال يتنازع في هذه البيئة المشحونة بالمشاكل والفتن والاضطراب السياسي والاجتماعي والعقائدي. وقد عاش الحسنعليه السلام في فترة سياسية يمكن أن توصف بأنّها فترة انشقاق الأمّة وانحدارها إلى كتل وأقسام، ربّما تكون التشعبات الإقليمية جزءاً من هذا الانقسام الجديد، فقد عرف المسلمون انقسام مجتمعهم إلى عرب وموالي، أو عرب وعجم، ومهاجر وغير مهاجر، وقرشي وغير قرشي.. وغير ذلك من التقسيمات الجديدة، فليس بدعاً على العرب الذين كانوا يشكّلون الأكثرية الغالبة لمجتمع المسلمين هذه التقسيمات، فهم قد عايشوا فتنة التقسيم الثنائي بين عرب الجنوب وعرب الشمال، فانقسام جديد إقليمي ليس بالجديد كان يلوح في الأفق بين المسلمين، وهو الانقسام بين مسلمي العراق ومسلمي الشام، أو عرب الشام وعرب العراق، أو قبائل العراق وقبائل الشام. وقد بدت هذه الفتنة الجديدة بعد الفتوحات الإسلامية التي اندفعت بها جيوش المسلمين وقبائلهم، بما في ذلك القبائل اليمانية، نحو العراق والشام. وكانت هذه المشكلة أخذت تتزايد بعد المعارك الطاحنة في أيّام صفّين، والتي خاضها أصحاب الإمام عليّعليه السلام وجنده من جهة العراق، وأصحاب معاوية وجنده من جهة الشام، وربّما لحظها المؤرّخون الذين قاربوا ذلك الزمن، فعدّوا هذا التقابل بين الإقليمين فتنة كبرى لايمكن السيطرة عليها أو إطفاء شبوبها واستعارها، ومن هؤلاء من اعتبر مصالحة الإمام الحسنعليه السلام معجزة لخطورة الأمر آنذاك، يقول القلقشندي:وكان في خلع الحسنعليه السلام نفسه وتسليم الأمر لمعاوية ظهور معجزتين للنبيّصلى الله عليه وآله:إحداهما أنّ النبيّصلى الله عليه وآله قال في حقّه:ابني هذا سيّد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فكان الأمر كذلك. والثانية

أنّه حسب يوم تسليمه، فكان تمام ثلاثين سنة، وقد تقدّم أنه صلى الله عليه وآله قال:الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكاً.[١] وربّما تعود أكثر مشكلات ومعضلات الجيش الذي أعدّه الحسن عليه السلام إلى نتائج ظروف وأجواء معركة صفّين وقضّية التحكيم التي شهدها بقيادة أبيه عليه السلام، وكان من نتائج معركة صفّين(الواقعة في سنة ٣٧ للهجرة) وما رافقها من عواصف وفتن ومجادلات و مناقشات أن ضعف الوضع السياسي والعسكري للإمام عليّ عليه السلام الخليفة السياسي والشرعي للمسلمين، فقد حاربه الخوارج بشدّة وضراوة، وهم كانوا بالأمس من أكثر المقاتلين شدّة وشكيمة في جبهته، وتراخى أهل البصرة عن تأييده، لما لحقهم من اضطراب وتصدّع ورعب رافق دخول اثنين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله طلحة والزبير مدينتهم مع عائشة وجمع آخر من المهاجرين والأنصار الذين شبّهت عليهم الأمور فانساقوا لهم وخاضوا معهم في معركة خاسرة أراقت دم الكثير منهم. وأمّا أهل الكوفة أو بالأحرى الجيش الذي تشكّل من قبائل الكوفة فلم يكن جيشاً عقائدياً أو جيشاً منسجماً مع أفكار قائده، أوكأنّه لم يكن مستعدّاً للمنازلة الميدانية العقائدية، وإنّما كان مجموعة من الأهواء والكتل والعقائد الضاربة في متاهات لايعرف أصحابها ما هي، وإنّما ينساقون مع قبائلهم وأصدقائهم وأحيائهم التي تشكّلت بعد فتح العراق. والحقّ أنّ الجيش الذي أعدّه عليّ عليه السلام كان منهكاً، قد عضّته الحروب بنابها وأنهكت قواه، ولوأنّ المعارك التي ابتلي بها جيش العراق كانت جارية على جيش الشام لكان لهم موقف آخر مع معاوية. وقد كان عليّ عليه السلام متفهّماً لمعاناة جيشه وما لقي من كرب الحروب وشدّتها، فخاطب جموع أهل العراق بقوله:أيّها الناس، إنّه لم يزل أمري معكم على ما أحبّ، حتّى نهكتكم الحرب، وقد والله

١ـ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ١: ١٠٨.

أخذت منكم وتركت، وهي لعدوّكم أنهك.[١] ولو قدّر لجيش الشام أن يعيش فتن العراق ومحنه واستعار معاركه لكان انهياره وتصدّعه أوضح وأبين، فجيش الشام دخل معركة واحدة هي معركة صفّين فظهرت عليه آثار التعب والسأم، وقد كانت فصول معركة صفّين تحكي هذه الآثار التي انعكست بشكل بيّن في الأيّام الأخيرة للمعركة، وفي حديث عمرو بن نصر بإسناده الذي رواه نصر بن مزاحم المنقري عن وضع الشاميين فيقول:فلمّا أن كان اليوم الأعظم قال أصحاب معاوية:والله، ما نحن لنبرح اليوم العرصة حتّى يفتح الله لنا أو نموت. فبادروا القتال غدوة في يوم من أيّام الشعرى طويل شديد الحرّ فتراموا حتّى فنيت النبل، ثمّ تطاعنوا حتّى تقصّفت رماحهم، ثمّ نزل القوم عن خيولهم فمشى بعضهم إلى بعض بالسيوف حتّى كسّرت جفونها وقامت الفرسان في الركب، ثمّ اضطربوا بالسيوف وبعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلّا تغمغم القوم وصليل الحديد في الهام، وتكادم الأفواه، وكسفت الشمس، وثار القتام، وضلّت الألوية والرايات، ومرّت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهنّ إلّا تكبيراً، ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب، الله الله في الحرمات، من النساء والبنات.[٢] وفي هذا المشهد ما يكفي من الدلالة على ما قاله عليّ عليه السلام عنهم. في حين أنّ جيش عليّ عليه السلام لقي من بأس حرب الجمل ما لايستطيع جيش آخر أن يتحمّله، فقد كان مع طلحة والزبير جماعات مقاتلة قويّة علاوة على تخندقها في أرضها، وهي أرض البصرة التي أمدّت هذه الفتنة برجالها ومددها، وانضاف إلى هذه المعاناة القاسية أيّام حرب صفّين ولياليها النازفة بالدماء. ومن هنا فجيش العراق بالنسبة لعليّ عليه السلام معضلة ومشكلة لا تقلّ خطورة عن جماعات الجيش المعادي، وقد أباح عليه السلام هذه الحقيقة في أحاديثه معهم في

١ـ نهج البلاغة: ٣٢٣ كلام رقم ٢٠٨.

٢ـ وقعة صفين: ٤٧٩.

صفّين فقال لهم: أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أنّ ضلعها معها [١] فقوّة متثاقلة كجيش عليّ عليه السلام الذي لايكاد يتحشّد حتّى ينسلّ أفراده وينهزمون قبل وقوع المعركة، وجماعة كجماعات أهل الكوفة التي لاتجتمع بمعنى الجماعة، لا تعني لقائد ثائر مصلح يمتلك رؤية واضحة للأمور إلّا المتاعب والإحباطات. وحينما استجاب عليه السلام لمقولاتهم انقلبوا على ما قالوا وأجّجوا فتناً عظيمة ضعضعت الدولة الإسلامية وهزّت أركانها، وينقل المؤرّخون صورة عن هذا الجيش غير المنضبط في اجتماع الحكمين بدومة الجندل فيقول أبو مخنف: حدّثني المجالد بن سعيد عن الشعبي عن زياد بن النضر الحارثي: أنّ عليّاً عليه السلام بعث أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي، وبعث معهم عبد الله ابن عبّاس وهو يصلّي بهم ويلي أمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام حتّى توافوا بدومة الجندل بأذرح، قال الراوي: كان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لايدري بما جاء به ولا بما رجع به، ولا يسأله أهل الشام عن شيء، وإذا جاء رسول عليّ عليه السلام جاؤوا إلى ابن عبّاس فسألوه ماكتب به إليك أمير المؤمنين، فإن كتم ظنّوا به الظنون فقالوا: ما نراه كتب إلّا بكذا وكذا، فقال ابن عبّاس: أما تعقلون، أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء ويرجع لا يعلم ما رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط، وأنتم عندي كلّ يوم تظنّون الظنون! [٢] بهذه الصورة كان العراقيون، وبهذا النفس القصير يتابعون

١ـ **نهج البلاغة**: ١٧٧ ضمن خطبة ١٢١. والضلع هنا، هو مثل يضرب لمن يستعين على خصمه بمن هو من قرابة ذلك الخصم أو من أهل مشربه. ومنه قيل: ضلعك مع فلان، أي ميلك وهواك معه. **لسان العرب** (ضلع). وقال ابن أبي الحديد في معنى العبارة الواردة في الخطبة: يقول: لاتستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة مثلها. **شرح نهج البلاغة** ٧: ٢٩٤.

٢ـ **تاريخ الطبري** ٤: ٤٩.

الأمور ويفهمونها، فكانت وقعة صفّين وما تمخّض عنها من أحداث وتحوّلات عاملاً و دافعاً بهم نحو الهزيمة والضعف والانكسار، فلقد كانت معركة صفّين فصلاً و إرهاصاً لانتقال الحكم إلى الأمويين، وقد ثبّت عمرو بن العاص صاحبه معاوية، بعد أن أيّد أبا موسى الأشعري في خلعه صاحبه عليّاً. وقد أربك بذلك أبا موسى الأشعري، بعد أن اتّفقا على خلع صاحبيهما معاوية وعليّ.[1] والحقيقة أنّ أبا موسى الأشعري كان من عوامل تهديم الحكومة العلوية، بل كان معولاً قويّاً نسف قواعد عليّ عليه السلام الجماهيرية، ووضع حجراً قويّاً للسلطة الأموية في الساحة العراقية بما زرع من اضطراب وتزلزل في صفوف العراقيين. وكان معاوية على علم ودراية بأوضاع أهل العراق، فالعراقيون في وضع و إمامهم في وضع آخر، على عكس الشاميين الذين كانوا في انسجام تام مع قيادتهم لا يخالفون إمامهم، فقرأ معاوية خريطة الوضع السياسي والنفسي لخصمه بدقّة، فالقائد الذي ينازعه عازم على إنهاء تمرّده، ولكن جنده متعبون منهكون لا يسيرون وفق رؤية قائدهم. ونقل الباحث محمّد جواد فضل الله صورة القائد وسط هذا الجند المتقاعس فيقول:رجع الإمام إلى الكوفة بعد أن انتهى من قتال الخوارج، وكان هدفه الأوّل والأخيرهو العود لقتال معاوية وضرب قاعدته الشام، وفي هذه الأثناء أخذت الغارات من قبل معاوية تفتح الثغرات في مناطق نفوذ حكم الإمام وتزيد في ضراوة المحنة. فقد وزّع معاوية بعض فرق جيشه في بعض مناطق حكم الإمام معتمداً حرب العصابات لكي يشغل الإمام بردّها عن التهيّؤ لبدء حملة جديدة على الشام، حيث يضطرّ الإمام أن يوزّع جيشه في الأطراف للاشتباك معها و إبعادها، وكانت خطّة مريرة اضطرب بها حبل الأمن في مناطق حكم الإمام[2] ويروى من تململ أهل العراق وتثاقلهم عن

١ـ ثريا عبد الفتّاح ملحس، **حزب الشيعة في العصر الأموي**: ١٧.

٢ـ **صلح الإمام الحسن**، أسبابه ـ نتائجه: ٥٦.

القيام بمهمّات دفاعية تحمي مدنهم وأنفسهم، لمّا وجّه معاوية بن أبي سفيان سفيان بن عوف الغامدي إلى الأنبار للغارة، بعثه في ستّة آلاف فارس فأغار على هيت والأنبار، وقتل المسلمين وسبي الحريم، وعرض الناس على البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام، استنفر أمير المؤمنين عليه السلام الناس، وقد كانوا تقاعدوا عنه، واجتمعوا على خذلانه، وأمر مناديه في الناس فاجتمعوا، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال:أمّا بعد، أيّها الناس، فوالله، لأهل مصركم في الأمصار أكثر في العرب من الأنصار، وماكانوا يوم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتّى يبلّغ رسالات الله إلّا قبيلتين صغير مولدهما، ما هما بأقدم العرب ميلاداً، ولابأكثره عدداً، فلمّا آووا رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم القبائل قبيلة بعد قبيلة، فتجرّدوا للدين، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من العهود، ونصبوا لأهل نجد وتهامة وأهل مكّة واليمامة وأهل الحزن وأهل السهل قناة الدين والصبر تحت حماس الجلاد، حتّى دانت لرسول الله صلى الله عليه وآله العرب، فرأى فيهم قرّة العين قبل أن يقبضه الله إليه، فأنتم في الناس أكثر من أولئك في أهل ذلك الزمان من العرب. فقام إليه رجل آدم طوال فقال: ما أنت كمحمّد، ولا نحن كأولئك الذين ذكرت، فلا تكلّفنا ما لا طاقة لنا به. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أحسن مسمعاً تحسن إجابة، ثكلتكم الثواكل، ما تزيدونني إلّا غمّاً، هل أخبرتكم أنّي مثل محمّد صلى الله عليه وآله و أنّكم مثل أنصاره! و إنّما ضربت لكم مثلاً، وأنا أرجو أن تأسّوا بهم. ثم ّقام رجل آخر فقال: ما أحوج أمير المؤمنين عليه السلام و من معه إلى أصحاب النهروان!

ثمّ تكلّم الناس من كلّ ناحية ولغطوا، فقام رجل فقال بأعلى صوته: استبان فقد الأشتر على أهل العراق، لو كان حيّاً لقلّ اللغط، ولعلم كلّ امرئ ما يقول. فقال لهم

أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): هبلتكم الهوابل، لأنا أوجب عليكم حقّاً من الأشتر، وهل للأشتر عليكم من الحقّ إلّا حقّ المسلم على المسلم؟ وغضب فنزل[١]

هكذا كانت جماعات أهل العراق، فكيف يمكن لقائد أن يحقّق أهدافه ويمضي بجيش مثل هذا؟ وقد رأى بعض الباحثين أنّ أهل الكوفة كانوا مع عليّ عليه السلام بآرائهم فقط[٢] أي أنّهم يتقوّلون ويتظاهرون، والحقّ أنّ هذا كان منهم في بدو أمر عليّ عليه السلام معهم، بل وصل الأمر بهم إلى عدم التوافق حتّى في ظاهر الرأي معه عليه السلام، ناهيك عن الموقف الحقيقي عند احتدام النزاع، فحينما تواترت الأخبار على عليّ عليه السلام باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عليه السلام عاملاه على اليمن، وهما عبيد الله بن عبّاس وسعيد بن نمران، لمّا غلب عليهما بسر بن أرطاة، قام عليه السلام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي فقال: ما هي إلّا الكوفة، أقبضها وأبسطها، إن لم تكوني إلّا أنت، تهبّ أعاصيرك فقبّحك الله! ثمّ قال: أُنبئت بسراً قد اطّلع اليمن، و إنّي ـ والله ـ لأظنّ أنّ هؤلاء القوم سيُدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحقّ، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم. فلو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته. اللهم إنّي مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً منّي، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء، أما والله لوددت أنّ لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غَنم:

هنالك لو دعوت أتاك منهم ... فوارس مثل أَرمية الحميم

---

١ ـ أمالي الطوسي: ١٧٣ ح ٢٩٣.

٢ ـ ينظر: صلاح طهبوب، موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر الأموي: ٦.

ثمّ نزل عليه السلام من المنبر[١] وفي هذه الخطبة خلاصة للوضع السياسي والعسكري الذي كان عليه شعب وجيش إقليم العراق الذي أراد الحسن عليه السلام أن ينازل به جيشاً منضبطاً متماسكاً قويّاً، مطيعاً لسائقه، وقد وضع جيش الخصم ثقته ويده ودمه بيد داهية يعرف كيف يستثمر الأوضاع والظروف، وكان الحسن عليه السلام يمتلك صورة وافية وكاملة عن جيش العراق الذي امتحن به أبوه عليه السلام فهو يسمع ويرى ويتابع وضع الجيش الذي كان يقوده أبوه عليه السلام، فلطالما كان الإمام عليّ عليه السلام يئنّ ويتوجّع من هذا الجيش الضعيف المتشرذم. وربّما لو قيّض لهذا الجيش شخص آخر - غير ما قدّر لقائد وبطل مثل عليّ عليه السلام - لارتبك في خططه العسكرية وضعف، وهو ليس بضعيف. وقد تطاولوا على قائدهم الكامل فظنّوا به الظنون التي اضطرّته لأن يبوح بما يعتمل في صدره، فقال عليه السلام لهم: قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتّى لقد قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب![٢] كيف يمكن للقائد أن يمارس دوره أو يحقق أهدافه بهذا

١- نهج البلاغة: ٦٦ خطبة ٢٥.

٢- نهج البلاغة: ٧٠ خطبة ٢٧. يقول ابن ميثم البحراني معلّقاً على هذا القول: فإنّ الخلق إذا رأوا من قوم سوء تدبير أو مقتضى رأي فاسد كان الغالب أن ينسبوه إلى رئيسهم ومقدّمهم، ولا يعلمون أنّه عليه السلام الألمعي الذي يرى الرأي كأن قد رأى وقد سمع، وأنّ التقصير من قومه. ثمّ أردف ذلك بالردّ على قريش في نسبتها له إلى قلّة العلم بالحرب بقوله: لله أبوهم.. وهي كلمة من ممادح العرب. ثمّ سألهم عن وجود من هو أشدّ للحرب معالجة أو أقدم منه فيها مقاما سؤالاً على سبيل الإنكار عليهم، ونبّه على صدقه بنهوضه في الحرب ومعاناة أحوالها عامّة عمره، وهو من قبل بلوغه العشرين إلى آخر عمره. ثمّ بيّن أنّ السبب في فساد حال أصحابه ليس ما تخيلته قريش فيه من ضعف الرأي في الحرب كما يزعمون، بل عدم طاعتهم له فيما يراه ويشير عليهم به، وذلك قوله: ولكن لا رأي لمن لا يطاع. فإنّ الرأي الذي لا يقبل بمنزلة

المستوى من الجند، في جيش افتقد عنصر الانضباط العسكري، وكأنّهم أفراد متفرّقون ليس لهم عقيدة أو مبدأ يجمعهم، وكأنّهم ذاهبون إلى غارة قبلية أو يتصيّدون الضباب في صحراء قاحلة، فلا يهمّهم مبادئ القائد الذي يقودهم ولا يعون ما يقول، فخاطبهم عليّ عليه السلام قائلاً: أيّها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصمّ الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء !تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد! ما عزّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل، وسألتموني التطويل دفاع ذي الدين المطول، لايمنع الضيم الذليل، ولا يدرك الحقّ إلّا بالجدّ ! أيّ دار بعد داركم تمنعون، ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون ؟المغرور ـ والله ـ من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز ـ والله ـ بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل. أصبحت ـ والله ـ لا أصدّق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدوّ بكم. ما بالكم ؟ما دواؤكم ؟ما طبّكم ؟القوم رجال أمثالكم. أقولاً بغير علم ! وغفلة من غير ورع! وطمعاً في غير حقّ![1] هكذا كان حال الجيش مع عليّ عليه السلام، وهو نفس الجيش برجاله وعناده وشغبه وثقله، واندفع الجيش بقضّه وقضيضه من أرض الكوفة فاجتمع مع الحسن عليه السلام، وباجتماعه عليه زادت همومه وغمومه، وتفاقمت عيوب هذا الجيش وأمراضه. وربّما لم يتغيّر هذا الجيش المتجمّع لتوّه، و الذي يريد أن يذهب به الحسن عليه السلام عن جيش كان عليّ عليه السلام قد ابتلي به. وكانت رؤية الحسن عليه السلام هنا أنّ جيش العراق غير مؤهّل، في تلك المرحلة الزمنيّة، لملاقاة جيش الشام المنظّم و الموحّد المشاعر والأحاسيس، بعد أن فتنهم دهاة قريش الذين مرقوا على حكومة عليّ عليه السلام، وشدّهم معاوية بباطل دعواه بدهائه ومكره،

الفاسد وإن كان صواباً. والمثل له عليه السلام. **شرح نهج البلاغة ٢: ٣٩.**

١ـ نهج البلاغة: ٧٢ خطبة ٢٩.

ومعه عمرو بن العاص، وجمع من دهاة العرب، بمبادئ غرزها في نفوسهم، فهم طلّاب ثأر غاضبون يرون قتلة إمامهم أحياء يتحرّكون في أزقّة الكوفة. وكان إلى جانب هؤلاء عدد كبير من المشاغبين والثائرين على البيت العلوي، يتربّصون بالحسن عليه السلام ومن معه. فكيف يواجه الحسن عليه السلام هذا الجيش ؟وبأيّ قوّة؟ ومن الذي يقف هناك ظهيراً له؟ أبعصابات فتنتها حطامات تافهة، أم بأفراد كانوا يسفّهون عقلاءهم، ولايوقّرون إمامهم ويقطعون عليه خطابه، أم بالخوارج والمعاندين الذين كانوا يرون قتال أهل الشام والعراق على حدّ سواء! ومن ثمّ سينضمّون إلى جيش تتقاذفه الأهواء والفتن، فيزيدوه ضلالة واضطراباً. وزيادة على هذا فسيواقف هذا الجيش جيشاً من الفدائيين والمضحّين بأرواحهم وأموالهم، وهم منضوون مع جماعة وتحت قيادة يقولون:نحن ناهضون في الدفاع عن إمام مقتول مظلوم، ليس بوسع الحسن عليه السلام أن يقنع هؤلاء المضللين والمخدوعين بدعاية معاوية.

معاهدة الصلح بين الحسن عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان

لم تكن الظروف والأجواء التي ألمّت بجيش العراق، وواجهت الإمام الحسن عليه السلام ، والتي أشرنا إليها فيما تقدّم، تساعد على إطالة الأزمة وانتظار أمر آخر ربّما يؤدّي إلى تغيير المواقف وتحقيق انفراج سياسي وعسكري، في المنظور القريب، بل يبدو أنّ الأمر ازداد تدهوراً حينما دسّ معاوية إلى عمرو بن حريث، والأشعث بن قيس، وحجر بن الحجر، وشبث بن ربعي، دسيساً أفرد كلّ واحد منهم بعين من عيونه:أنّك إن قتلت الحسن بن علي فلك مائتا ألف درهم، وجند من أجناد الشام، وبنت من بناتي. فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلأم ولبس درعاً وكفرها، وكان يحترز ولا يتقدّم للصلاة بهم إلّا كذلك، فرماه أحدهم في الصلاة بسهم فلم

يثبت فيه لما عليه من اللأمة، فلمّا صار في مظلم ساباط ضربه أحدهم بخنجر مسموم، فعمل فيه الخنجر فأمرعليه السلام أن يعدل به إلى بطن جريحى وعليها عمّ المختار بن أبي عبيد مسعود بن قيلة، فقال المختار لعمّه:تعال حتّى نأخذ الحسن ونسلّمه إلى معاوية فيجعل لنا العراق، فبدر بذلك الشيعة من قول المختار لعمّه، فهمّوا بقتل المختار فتلطّف عمّه لمساءلة الشيعة بالعفوعن المختار ففعلوا، فقال الحسنعليه السلام:ويلكم! والله، إنّ معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي، و إنّي أظنّ أنّي إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين لدين جدّيصلى الله عليه وآله، وأنّي أقدر أن أعبد الله وحدي، ولكنّي كأنّي أنظرإلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعله الله لهم، فلا يسقون ولا يطعمون، فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديكم !«وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» فجعلوا يعتذرون بما لا عذر لهم فيه، فكتب الحسنعليه السلام من فوره ذلك إلى معاوية[١] ليعاهد أساس الدولة الأموية في نصوص ووثائق لم يكن رجال الدولة ودعاتها الذين تفانوا في خدمة العصبة الأموية يفكرون في مراعاتها والالتزام ببنودها. واختلفت المصادر في نصوص المعاهدة التي أبرمت بين الحسن بن عليّعليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان، زيادة ونقصاناً، ولعلّ من الضروري للباحث الاطلاع على نصوص هذه المعاهدة، وما تعهّد كلّ طرف للآخر في بنود هذه الوثيقة. ومن المؤرّخين الذين أشار إلى هذه المعاهدة أحمد بن يحيى البلاذري فقال:وجّه معاوية إلى الحسنعليه السلام عبد الله بن عامربن كريزبن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس. فقال ابن عامر:اتق الله في دماء أمّة محمّد، أن تسفكها لدنيا تصيبها وسلطاناً تناله بعد أن يكون متاعك به قليلاً، إنّ معاوية قد لجّ ! فنشدتك الله أن تلجّ فيهلك الناس بينكما، وهو يولّيك الأمر من بعده، ويعطيك كذا. وكلّمه عبد الرحمن بن سمرة

١ـ علل الشرائع، للصدوق: ٢٢٠.

بمثل كلام عبد الله أو نحوه، فقبل ذلك منهما، وبعث معهما عمرو بن سلمة الهمداني ثمّ الأرحبي، ومحمّد بن الأشعث الكندي ليكتبا على معاوية الشرط ويعطياه الرضا. فكتب معاوية كتاباً نسخته:بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب للحسن بن عليّ من معاوية بن أبي سفيان. إنّي صالحتك على أنّ لك الأمر من بعدي، ولك عهد الله وميثاقه، وذمّته وذمّة رسوله محمّدصلى الله عليه وآله، وأشدّ ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد: أن لا أبغيك غائلة ولا مكروهاً، وعلى أن أعطيك في كلّ سنة ألف ألف درهم من بيت المال، وعلى أنّ لك خراج فسا ودار أبجرد تبعث إليهما عمّالك وتصنع بهما ما بدا لك.

شهد عبد الله بن عامر، وعمرو بن سلمة الهمداني، وعبد الرحمن بن سمرة، ومحمّد بن الأشعث الكندي. وكتب في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين.

فلمّا قرأ الحسنعليه السلام الكتاب قال: يطمعني في أمر لو أردته لم أسلّمه إليه. ثمّ بعث الحسنعليه السلام عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ـ وأمّه هند بنت أبي سفيان ـ فقال له: ائت خالك فقل له:إن آمنت بالناس بايعتك.

فدفع معاوية إليه صحيفة بيضاء وقد ختم في أسفلها وقال له:اكتب فيها ما شئت. فكتب الحسنعليه السلام:بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح عليه الحسن بن عليّ بن معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلّم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الخلفاء الصالحين. وعلى أنّه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى أن لا يبغي للحسن بن عليّ غائلة سرّاً ولا علانية، وعلى أن لا يخيف أحداً من أصحابه.

شهد عبد الله بن الحارث وعمرو بن سلمة[1]. وردّهما إلى معاوية ليشهد بما في

١ـ وفي رواية ابن أعثم:عمر بن أبي سلمة.

الكتاب ويشهدا عليه.[١] وروى أحمد بن أعثم الكوفي نحو هذه الرواية وقال:ثمّ ردّ الحسن بن عليّ هذا الكتاب إلى معاوية مع رسل من قبله، ليشهدوا عليه بما في هذا الكتاب.[٢]

وفي رواية أبي حنيفة الدينوري: كانت الشرائط :ألّا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة، وأن يؤمّن الأسود والأحمر، ويحتمل ما يكون من هفواتهم، ويجعل له خراج الأهواز مسلّماً في كلّ عام، ويحمل إلى أخيه الحسين بن عليّ في كلّ عام ألفي ألف، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس. فكتب عبد الله بن عامر بذلك إلى معاوية، فكتب معاوية جميع ذلك بخطّه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه له العهود المركّبة والأيمان المغلّظة. وأشهد على ذلك جميع رؤساء الشام، ووجّه به إلى عبد الله بن عامر، فأوصله إلى الحسن عليه السلام عنه فرضي به، وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح، ويأمره بتسليم الأمر إلى معاوية.[٣]

ونقل الشيخ موسى محمّد علي صورة شروط الصلح بهذا النحو: بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما صالح عليه الحسن بن عليّ معاوية بن أبي سفيان :صالحه على أن يسلّم إليه ولاية المسلمين:

١ـ على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله، وسيرة الخلفاء الصالحين

٢ـ ليس لمعاوية أن يعهد لأحد عهداً، بل تكون الخلافة للحسن من بعده، أو يكون الأمر شورى بين المسلمين.

١ـ أنساب الأشراف ٣: ٤٠.

٢ـ الفتوح ٤: ٢٩١.

٣ـ الأخبار الطوال: ٢١٨.

٣ـ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم.

٤ـ أن يترك سبّ عليّ عليه السلام وأن لا يذكره إلّا بخير.

٥ـ أصحاب عليّ عليه السلام آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا، فلا يتعرّض لأحد منهم بسوء.

٦ـ أن لا يبتغي للحسن بن عليّ ولا لأخيه الحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة سرّاً ولا جهراً، و لايخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

٧ـ أن يوصل لكلّ ذي حقّ حقّه.

٨ـ أن يوفّر للحسن حقّاً قدره خمسون مليون درهم (٥٠ ألف ألف) في كلّ سنة.

٩ـ أن يقضي له جميع ديونه.

١٠ـ أن لا يطالب أهل الحجاز والعراق بشيء ممّا كان أيّام أبيه.

١١ـ أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة، وهو خمسة ملايين درهم(خمسة آلاف ألف).

١٢ـ أن يكون له خراج دار أبجرد بفارس، أو كورين من كور البصرة.

وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه. وشهد عليها عبد الله بن الحارث وعمرو ابن سلمة وغيرهما، وكفى بالله شهيداً.

شروط معاوية :

١ـ لك الخلافة من بعدي فأنت أولى الناس بها، ولك بذلك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله وأشدّ ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد.

٢ـ لك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ، تحمله إلى حيث شئت.

٣ـ لك خراج أيّ كور العراق شئت، معونة على نفقتك، يجبيها أمينك، ويحملها إليك كلّ سنة.

٤ـ أن لا يستولى عليك بالإساءة، ولا أبغيك غائلة ولا مكروهاً.

٥ـ لا تُقضى دونك الأمور.

٦ـ لا تُعصى في أمر أردت فيه طاعة الله.

٧ـ أن لا يتبع أحد بما مضى بالسبّ أو القذف.

٨ـ لا ينال أحد من أتباع عليّ عليه السلام بمكروه.

٩ـ لا يذكر عليّ عليه السلام إلّا بخير.

١٠ـ الولاية للحسين عليه السلام إن حدث بنا حدث.

١١ـ لك خراج دار الحرب من أرض فارس، وخراج أبجرد أيضاً.

١٢ـ ولك في كلّ سنة خمسون مليون درهم (خمسون ألف ألف).

وقد نصّ بعض المؤرّخين على صورة أخرى للكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما صالح عليه الحسن بن عليّ معاوية بن أبي سفيان، صالحه على:

أن يسلّم إليه ولاية المسلمين، على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين. وليس إلى معاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين. وعلى أنّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى، في شامهم وعراقهم وحجازهم. وعلى أنّ أصحاب علي آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا. وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه.

وأن لا يبتغي للحسن بن عليّ عليه السلام ولا لأخيه الحسين عليه السلام، ولا لأحد من بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سرّاً ولا جهراً، ولا يخيف أحد منهم في أفق من الآفاق. أشهد عليه به فلان بن فلان، وكفى بالله شهيداً.[1]

ورتّب الباحث محمّد جواد فضل الله شروط الصلح بهذه النقاط:

١ـ حليم آل البيت الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: ١٨٣.

١ـ تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وبسيرة الخلفاء الصالحين.

٢ـ أن يكون الأمر للحسن من بعده، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين عليه السلام وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد.

٣ـ أن يترك سبّ أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة، وأن لا يذكر عليّاً إلّا بخير.

٤ـ استثناء ما في بيت مال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألف، فلا يشمله تسليم الأمر، وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين ألفي ألف درهم، وأن يفضّل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وأن يفرّق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل، وأولاد من قتل معه بصفّين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار أبجر.

٥ـ على أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، ولا يأخذ أهل العراق بإحنة، وعلى أمان أصحاب عليّ عليه السلام حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة عليّ بمكروه، وأنّ أصحاب عليّ عليه السلام وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقّب عليهم شيئاً، ولا يتعرّض على أحد منهم بسوء، ويوصل كلّ ذي حقّ حقّه، وعلى ما أصاب أصحاب عليّ عليه السلام حيث كانوا.

وعلى أن لا يبغي للحسن بن عليّ عليه السلام ولا لأخيه الحسين عليه السلام ولا لأحد من بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة، سرّاً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.[1]

١ـ **صلح الإمام الحسن عليه السلام**، أسبابه ـ نتائجه: ١٣٠.

الإخلال بشروط الصلح

لم يكن معاوية جاداً في الوفاء ببنود الصلح التي أبرمها مع الحسن عليه السلام، أو العمل ببعض البنود التي أعلن عن قبولها، رغم أنّه كان يدّعي بأنّه يقوم بتنفيذ ما كان يطلبه الحسن عليه السلام منه، وقد شعر الشيعة بأنّ يد الغدر بدأت تمتدّ إليهم في محاولات الاغتيال والنفي والتشريد والملاحقة لأتباع علي عليه السلام وشيعته، فكانت هناك مطالبات من قبل بعض الأصحاب باستباق الأحداث واتّخاذ موقف وقائي دفاعي بفسخ الهدنة مع معاوية، ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام على استعداد لاتّخاذ أيّ موقف يفهم منه عدم الوفاء أو يحسب على أنّه استئناف للحرب ونزف للدماء التي حقنها، وروي عنه عليه السلام أنّه قال:كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت، ويسالمون من سالمت، فتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء أمّة محمد عليه الصلاة والسلام.[1]

ولم تكن الإرادة الحسنية في حبس الدماء والضنّ بها مفهومة وواضحة لكلّ الشيعة، وحتّى للبعض من خواصّ الإمام عليه السلام. ومن رزق حظّاً من الوعي والإدراك لم يكن متفهّماً للأمر، ويروى أنّ المسيّب بن نجبة الفزاري ـ وسليمان بن صرد الخزاعي ـ قالا للحسن عليه السلام:ما ينقضي تعجّبنا منك، بايعت معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من الكوفة سوى أهل البصرة والحجاز! فقال الحسن عليه السلام:قد كان ذلك، فما ترى الآن ؟فقال: والله، أرى أن ترجع لأنّه نقض العهد، فقال الحسن عليه السلام:يا مسيّب، إنّ الغدر لا خير فيه، ولو أردت لما فعلت [2] ولكن عندما أخلّ معاوية بشروط الصلح المتّفق عليها، أخذ كثير من المسلمين يطالبون الإمام الحسن عليه السلام بفسخ الهدنة ومواجهة معاوية من جديد. ولكن كان الإمام عليه السلام يجيبهم بقوله: أنّ

---

١ ـ تاريخ الخلفاء: للسيوطي: ١٩٢.

٢ ـ بحار الأنوار ٤٤ : ٥٧.

لكلّ شيء أجلاً، ولكلّ شيء حساب. ولعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين. وربّما كان هناك من يعتقد: لم يكن الإمام عليه السلام يرفض بشكل مطلق فكرة تعديل و إعادة النظر ببنود الهدنة والمعاهدة، ولكن كان يؤجّلها بالمنطق الذي يجعل لكلّ شيء أجل، ولكلّ شيء حساب. لأنّه كان يريد أن تتكشّف شخصية معاوية بشكل واضح، وأن تكون أهدافه الجاهلية مكشوفة لكلّ إنسان...[1] كما وأنّ الظرف السياسي والاجتماعي لم يكن مساعداً للإمام الحسن عليه السلام للقيام بأيّ حركة انتفاضة أو تصحيح أو ثورة أو عصيان على حكومة دمشق المخلّة بشروط الهدنة، والتي قويت شوكتها وضربت بجذور قويّة في بلاد المسلمين بأساليبها الماكرة، كان الحسن عليه السلام يتفهّمها ويدركها ببصيرة ثاقبة، ممّا حمله على رفض جميع المحاولات للانقضاض على السلطة الأموية أو القيام بأيّ خطوة أخرى كان يعتقد بعض الشيعة ضرورتها ذلك الحين لتحقيق مكاسب سياسية أو عسكرية، يقول هاشم معروف الحسني: ولولا أنّ الحسن عليه السلام قد التزم جانب الحكمة والتريّث ورفض جميع المحاولات التي قام بها الشيعة لإقناعه بإعلان العصيان والثورة على معاوية، لوقعت سلسلة من المجازر في جميع البلاد الإسلامية، بين الشيعة ومن التفّ حولهم من الناقمين، لجور الأمويين من جهة، وبين أنصار معاوية من جهة أخرى، وكانت المؤتمرات تعقد في الكوفة وغيرها من مدن العراق للدعاية لأهل البيت، والوفود بين آونة وأخرى تفد على الحسن والحسين عليهما السلام لإعلامهما بتكتّل مختلف الطبقات من الشعب، والنقمة العارمة على معاوية وولاته. ونتيجة لتلك المؤتمرات التي كانت تعقد لهذه الغاية توسّل أهل الكوفة بزعيمين من زعماء الشيعة، وهما قيس بن سعد الأنصاري وسليمان بن صرد الخزاعي لإبداء رأيهم عند الإمام الحسن عليه السلام بالرجوع عن مهادنة معاوية، بعد أن تبيّن للعالم الإسلامي

١ـ ينظر: عادل الأديب، **الأئمّة الاثنا عشر**: ١٠١.

أنّ معاوية لم يف له بشيء ممّا عاهد الله عليه. ومع أنّ هذين من خلّص أعيان الشيعة وذوي المكانة بين المسلمين لم يستجب الحسنعليه السلام لرأيهما، وأمرهما بالصبر والتريّث حقناً للدماء وحرصاً على مصلحة الإسلام العليا. كما وأنّه من الثابت أنّ بعض الانتهازيين الذين كانوا يعلنون العصيان في الكوفة وغيرها من مدن العراق، كانوا يستغلّون صبغة التشيّع لحركتهم الثورية، لاستجلاب عطف الجماهير الشعبية، والحصول على تأييدها لمقاومة الحكّام الأمويين، لأنّهم كانوا أكثر الفرق في العراق، وكانوا ينضمّون إلى كلّ ثائر في وجه الظلم والطغيان، ولو لم يكن في واقعه يتشيّع لعليّعليه السلام وبنيه. وليس أدلّ على ذلك من وقوفهم إلى جانب عبد الرحمن بن الأشعث، بعد أن سمّى نفسه بناصر المؤمنين، وتأييدهم له في ثورته على الأمويين [1]

الحسنعليه السلام يودّع الأمّة

لم تكن الظروف السياسية والمناخات التي عاشها الإمام الحسنعليه السلام، بعد انسحابه وتراجعه عن أسلوب الدفاع الوقائي والكفّاح العسكري المشروع، وبالتالي تنازله عن حقّه وحقّ الأمّة رحمة بالأمّة وحفظاً للشريعة وصيانة لها، تبعث على الطمأنينة والارتياح، وبعبارة أخرى لم يكن الحسنعليه السلام رخي البال قرير العين فيما حصل له من مهادنة ومصالحة، اضطرّ إليها مع العامل المتمرّد معاوية، الذي كان يسعى لهدم القيم والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وتحويلها إلى قيم ومثل جاهلية جديدة تنسجم مع مصالحه ومصالح البيت الأموي، الذي انزوى في دائرة العصبة والدم، فالحكم والسلطة لمعاوية تعني دابّة يمتطيها لإشباع الرغبات والشهوات التي تصطخب بها نفسه التائهة، وربّما كان معاوية في هذا الاتجاه

١ـ تاريخ الفقه الجعفري، عرض ودراسة: ١٢٣.

صادقاً مع نفسه، ومع عموم المسلمين الذين كانوا ينتظرون من خليفة المسلمين إعلان مبادئ الحكم الجديد الذي أريقت على حافّاته دماء كثيرة صبّت في أنهار المعارك وساحات الوغى، وكان البيان الأوّل للحاكم الجديد هو الانسلاخ من الدين الذي أجلسه في عرش دمشق، ورفض وسحق المواثيق والعهود، والإسراع في تمزيقها أمام الصحابة والتابعين والجمهور الغفير من المسلمين في جمجمة العرب وعاصمة المسلمين الكوفة، وتجلّى ذلك واضحاً حين قال معاوية في خطبته لجماهير الكوفة: إنّي ـ والله ـ ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون. ألا وإنّي كنت منّيت الحسن أشياء وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له. ثمّ أضاف بعد أيّام من خطبته هذه سوءة أخرى حين ذكر الخليفة الشرعي الذي نصبه الدين والأمّة أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام ونال منه و من وصيّه الحسن عليه السلام ما نال[1] وفي هذه الأجواء والظروف المريرة التي مرّت على الأمّة ازداد العبء والثقل على الحجّة والوصي المثقل بالهموم والمتاعب، ولكن مع كلّ هذا كان الحسن عليه السلام يواجهها بحلمه ورجاحة عقله، ولم يشأ أن يشعل شرارة الرفض والمواجهة مع أعلام الجاهلية الأموية التي ابتسم لها الدهر وأضحكها حيناً منه، لكنّ هذا القائد الصابر كان يحترق بنيران الغضب والثورة الداخلية التي كانت تشبّ في أعماق نفسه الكريمة، ولكن أنّى له أن ينفث زفرات الألم اللاحب الذي يزحف على صدره الممتلئ بالهموم والغموم، ويزيده على هذه الهموم والغموم معاوية وأتباعه كلّ يوم بما يصل إلى أسماع الحسن عليه السلام من مظالم وتصفيات واجتثاث للخطّ العلوي من ساحة المسلمين، فلم يكن للحسن عليه السلام إلّا أن يكظم من غيظه ويسلّي نفسه بالصبر، ويرفع يديه نحو السماء يلوذ بها في دعاء

---

١ ـ **الإرشاد**، للمفيد: ١٩١.

واسترحام لعلّه يجد بلسماً لقروحه وجروحه النازفة في أعماق نفسه الكريمة. والواقع كانت تتكرر على الأمّة كلّ يوم مشاهد وصور مروّعة تتقاطر على أذن الحسن عليه السلام، تناقل بعضها أهل السيرة والأثر، وربّما كان المشهد المنقول على ألسن الرواة مثيراً ومؤلماً، ولكن قد يكون المشهد أكثر إيلاماً حين ينقله مؤرّخ كابن أعثم الكوفي في وصف مؤرّخ عرف عنه أنّه ينقل الحقائق بدون مبالغة وتهويل فيقول :وجعل زياد يتتبّع شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام فيقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، حتّى قتل منهم خلقاً كثيراً وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم، وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل منهم حجر ابن عدي الكندي وأصحابه. ثمّ يقول: وبلغ ذلك الحسن بن عليّ عليه السلام فقال: اللهم، خذ لنا ولشيعتنا من زياد بن أبيه، وأرنا فيه نكالاً عاجلاً، إنّك على كلّ شيء قدير[١].

فلم يكن أحد قادراً على إلزام الأمويين أو أتباعهم على الوفاء بالعهد والميثاق الذي أبرموه مع الحسن عليه السلام، أو الوقوف عند حدود الشريعة التي استخفّوا بها. ولم يرد الإمام الحسن عليه السلام أن تراق دماء المسلمين التي ضنّ بها وحقنها بالأمس فحسب، ولكنّه أراد أيضاً أن يكون الله تعالى وحده شاهداً وقاضياً على غدرهم وظلمهم ونقضهم لما ألزموا أنفسهم به، وحينها أرسل عليه السلام عليهم سهام الدعاء التي أصابتهم ونحرتهم، فلم يكن لهم نصيب من تاريخ المسلمين إلّا الخيبة والخسران. ولكن أشجانه عليه السلام لم تكد تتوارى أو تتراجع عنه، فظلّت تصاحبه وتسير معه كظلّه. فلقد كان الحسن عليه السلام متوجّعاً يئنّ، وتتواصل معه الآلام وهو يسير مع سيرورة الأيّام. . ولكن لم تشأ عاديات السوء أن تترك الحسن عليه السلام وحده يكابد همومه، و يعاني مرارة العصر صابراً على لأواه وشدّته، حتّى انضاف إلى ما كان يجهده ويشقّ عليه من جعدة بنت الأشعث بن قيس، التي كانت زوجته التي تشاطره طعامه وشرابه وقيامه

١ـ الفتوح ٤: ٣١٦.

وقعوده، فسمّته بعد أن دسّ إليها يزيد بن معاوية: أن سمّي الحسن وأتزوّجك، فسمّته، فلمّا مات عليه السلام شهيداً مسموماً أرسلت إلى يزيد تسأله الوفاء بالوعد ـ وكأنّها نست أنّها هي ممّن لا وفاء لها ـ فقال: إنّا ـ والله ـ ما رضيناك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا! قال الشعبي: إنّما دسّ إليها معاوية فقال: سمّي الحسن وأزوّجك يزيد، وأُعطيك مائة ألف درهم، فلمّا مات الحسن ـ مسموماً شهيداً ـ بعثت إلى معاوية تطلب إنجاز الوعد، فبعث إليها بالمال وقال: إنّي أحبّ يزيد وأرجو حياته، ولولا ذلك لزوّجتك إيّاه! وقال الشعبي: ومصداق هذا القول أنّ الحسن عليه السلام كان يقول عند موته ـ وقد بلغه ما صنع معاوية ـ: لقد عملت شربته، وبلغ أمنيّته، والله لايفي بما وعد، ولايصدُق فيما يقول.[1] ويروي أبو جعفر محمّد بن جرير بأنّ معاوية سمّه سبعين مرّة، فلم يعمل فيه السمّ، فأرسل إلى امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس، وبذل لها عشرين ألف دينار، و إقطاع عشر ضياع من شعب السواد وسواد الكوفة، وضمن لها أن يزوّجها يزيد ابنه، فسقت الحسن في برّادة من الذهب في السويق المقنّد، فلمّا استحكم فيه السمّ قاء كبده.[2] وجاء في رواية السيّد تاج الدين العاملي: لمّا خلع الحسن عليه السلام من الخلافة، واستقرّ الأمر لمعاوية، كان ينصب الحيل ليفتك بالحسن عليه السلام مخافة أن يخرج عليه، والحسن عليه السلام يتحذّر منه، فهاجر الحسن عليه السلام من الكوفة إلى المدينة، وهي الهجرة الثالثة، فكتب معاوية إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن عليه السلام: أنّ لك عندي، إن قتلت الحسن، مائة ألف درهم، وأزوّجك بابني يزيد. وأنفذ لها سمّاً قاتلاً فسقته، فدار في أضلاعه فمرض أربعين يوماً، فلمّا أشرف على الموت أوصى إلى أخيه الحسين عليه السلام بأن يحمله بعد موته إلى عند قبر جدّه صلى الله عليه وآله ليجدّد به عهداً، ثمّ يمضي به ويدفنه

---

١ ـ **تذكرة الخواص**، لسبط ابن الجوزي: ١٩١.

٢ ـ **دلائل الإمامة**: ٦١.

بالبقيع، وأخبره بأنّهم لا يمكّنوه من دفنه عند جدّه، وأوصاه بأن لايريق بسببه محجم دم. ثمّ مات عليه السلام بعد ذلك يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الأوّل، وقيل: يوم العاشرمن صفر، وقيل يوم السابع منه سنة خمسين، وقيل سنة تسع وأربعين من الهجرة في ملك معاوية.[1] وفي رواية رواها الشيخ الطبرسي بأنّه مضى عليه السلام لليلتين بقيتا من صفرسنة خمسين من الهجرة.[2] وجاء في رواية أخرى للطبري الإماميّ بأنّ الإمام الحسن عليه السلام قبض في سلخ صفرمن سنة خمسين من الهجرة[3]

و جاء في روايات نقلها ابن حجر العسقلانيّ:أنّ وفاته كانت في سنة ٥٦ و ٥٨ و٥٩[4]

وجاء في نصّ رواية الشيخ المفيد:أرسل معاوية إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس: إنّي مزوّجك ابني يزيد على أن تسمّي الحسن. وبعث إليها مائة ألف درهم، ففعلت وسمّت الحسن عليه السلام فسوّغها المال ولم يزوّجها من يزيد، فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها، وكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيّروهم وقالوا: يا بني مسمّة الأزواج. ونقل عن زياد المخارقي قوله:لمّا حضرت الحسن عليه السلام الوفاة استدعى الحسين عليه السلام وقال:يا أخي، إنّي مفارقك ولاحق بربّي، وقد سقيت السمّ ورميت بكبدي في الطشت، وإنّي لعارف بمن سقاني السمّ ومن أين دُهيت

١ـ **التتمّة في تواريخ الأئمّة**: ٧٠. وروى الشيخ الطوسي في تاريخ وفاته عليه السلام رواية غيرمشهورة حين قال بأنّها سنة ٤٩ وحددها في صفر. **تهذيب الأحكام** ٦:٣٩. وهذه الرواية ذكرها الذهبي وابن عماد الحنبلي أيضاً إلّا أنّهما قالا: الأكثرسنة خمسين وحدّداها في شهرربيع الأوّل. **العبر**١ :٣٩، **شذرات الذهب**١: ٥٥. وذهب الكفعمي إلى الرواية القائلة بأنّ شهادته في السابع من صفر. **جنّة الأمان الواقية**: ٥١٠.

٢ـ **تاج المواليد في مواليد الأئمّة ووفياتهم**: ٨٢.

٣ـ **دلائل الإمامة**: ٦١.

٤ـ **تهذيب التهذيب** ٢ :٣٠١.

وأنا أخاصمه إلى الله عزّوجلّ، فبحقّي عليك إن تكلّمت في ذلك بشيء وانتظر ما يحدث الله عزّوجلّ فيّ، فإذا قضيت فغمّضني وغسّلني وكفّني واحملني على سريري إلى قبر جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله لأجدّد به عهداً، ثمّ ردّني إلى قبر جدّتي فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ فادفنّي هناك، وستعلم يا ابن أمّ أنَّ القوم يظنّون أنّكم تريدون دفني عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيجلبون في ذلك، ويمنعونكم منه، وبالله أُقسم عليك أن تهريق في أمري محجمة دم. ثمّ وصّى عليه السلام إليه بأهله وولده وتركاته، وما كان وصّى به إليه أمير المؤمنين عليه السلام حين استخلفه وأهّله بمقامه، ودلّ شيعته على استخلافه، ونصبه لهم علماً من بعده. فلمّا مضى عليه السلام لسبيله غسّله الحسين عليه السلام وكفّنه وحمله على سريره. ولم يشكّ مروان ومن معه من بني أميّة أنّهم سيدفنونه عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فتجمّعوا له ولبسوا السلاح، فلمّا توجّه به الحسين عليه السلام إلى قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ليجدّد به عهداً، أقبلوا إليهم في جمعهم، ولحقتهم عائشة على بغل وهي تقول: ما لي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحبّ! وجعل مروان يقول: يا ربّ هيجا هي خير من دعه، أيُدفن عثمان في أقصى المدينة ويُدفن الحسن مع النبيّ! لايكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف. وكادت الفتنة تقع بين بني هاشم وبين بني أميّة، فبادر ابن عبّاس إلى مروان فقال له:ارجع يا مروان من حيث جئت، فإنّا ما نريد دفن صاحبنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله، لكنّا نريد أن نجدّد به عهداً بزيارته، ثمّ نردّه إلى جدّته فاطمة فندفنه عندها بوصيّته بذلك، ولو كان أوصى بدفنه مع النبيّ صلى الله عليه وآله لعلمت أنّك أقصر باعاً من ردّنا عن ذلك، لكنّه عليه السلام كان أعلم بالله وبرسوله وبحرمة قبره من أن يطرق عليه هدماً، كما طرق ذلك غيره، ودخل بيته بغير إذنه. . وقال الحسين عليه السلام: والله، لولا عهد الحسن عليه السلام إليّ بحقن الدماء وأن لا أُهريق في أمره محجمة دم، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا. ومضوا بالحسن عليه السلام فدفنوه بالبقيع

عند جدّته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها [١] وروى ابن عبد البرّ بأنّ أمير المدينة سعيد بن العاص قد صلّى عليه [٢] ويقول في روايته بأنّ عائشة أباحت له أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيتها، وكان سألها ذلك في مرضه، فلمّا مات منع من ذلك مروان [٣] ويتحدّث الواقدي نقلاً عن ثعلبة بن أبي مالك أنّ الحسن عليه السلام دفن بالبقيع فرأيت البقيع لو طرحت فيه إبرة ما وقعت إلّا على رأس إنسان [٤] وكان هذا آخر فتنة شهدها الإمام الحسن عليه السلام في المدينة، في أوّل يوم من أيّام الآخرة، وآخر يوم من أيّام الأولى الفانية، لتكون لحظة المفارقة والوداع للأمّة والمدينة في سنة تسع وأربعين، وقيل: سنة خمسين، وقيل إحدى وخمسين. [٥] بعد أن شهد ما شهد من صروف الدهر وأيّامه قضاها بين زمان جدّه وأمّه وأبيه لتكتمل الصورة مع إخوته وشيعته في مشهد قاتم حزين. ويتحدّث ابن الخشّاب البغدادي عن هذه السيرورة الزمنية فيقول: أقام أبو محمّد عليه السلام مع جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله سبع سنين، وأقام مع أخيه بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام عشر سنين. [٦] ولم يكن ما قدّر له عليه السلام من شهادة تشرّف بها، وتسافلت بها الإرادة الأموية، إلّا صفحة مشرقة من صفحات كتاب التاريخ العلوي الذي سطّره رجال وفتية شجعان كانوا على أُهبة واستعداد تامّين لقبول الشهادة والتشرّف بها للقاء الله والأحبّة في جنّات الخلود ودار البقاء.

كتبه عادل بن عبد الرحمن البدري غفر الله له ولوالديه
في مشهد الرضا عليه آلاف التحيّة والسلام

١ـ الإرشاد: ١٩٢.

٢ـ ربّما كانت هذه الصلاة ظاهرية، لأنّ الإمام المعصوم لايصلّي عليه إلّا معصوم مثله.

٣ـ الاستيعاب ١: ٣٧٤.

٤ـ الإصابة ١ :٣٣١.

٥ـ الأئمّة الاثنا عشر، لابن طولون: ٦٣.

٦ـ تاريخ مواليد الأئمّة عليهم السلام ووفياتهم: ١٣٠.

مصادر ومراجع الكتاب

الأئمّة الاثنا عشر، دراسة تحليلية، عادل الأديب، دار الأضواء ـ قم ١٩٨٤ م، أوفسيت عن الطبعة الأولى.

الأئمّة الاثنا عشر، مؤرّخ دمشق شمس الدين محمد بن طولون المتوفّى ٩٥٣ للهجرة، تحقيق صلاح الدين المنجّد، منشورات الرضي ـ قم، أوفسيت عن ط دار صادر ـ بيروت.

الإتحاف بحبّ الأشراف، الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوي المتوفّى ١١٧١ هـ، المطبعة الأدبية بمصر.

إتمام الوفا بسيرة الخلفا، الشيخ محمد الخضري، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة ـ بيروت، ط الثانية ١٩٩٨ م.

الاحتجاج على أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ من أعلام القرن السادس الهجري، بتعليق السيّد محمد باقر الموسويّ الخرسان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الثانية ١٤٠٣هـ.

أخبار فخ، وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله (انتشار الحركة الزيدية في اليمن والمغرب والديلم) أحمد بن سهل الرازي، المتوفّى في الربع الأوّل من القرن الرابع الهجري، دراسة وتحقيق الدكتور ماهر جرّار، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٥م.

أخبار مكّة، محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي المتوفّى ٢٠٤ للهجرة، روائع التراث.

الأخبار الطوال، أبوحنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى ٢٨٢ هـ، بتحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ مصر، أوفسيت منشورات الرضي ـ قم ١٤١٢هـ.

أخبار القرامطة، الأحساء ـ الشام ـ العراق ـ اليمن، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور سهيل زكّار، نشر وتوزيع عبد الهادي حرصوني ـ دمشق ط الأولى ١٩٨٠م.

الاختصاص، أبوعبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي الملقّب بالشيخ المفيد المتوفّى ٤١٣هـ، بتحقيق علي أكبر غفّاري، منشورات مكتبة الزهراء ـ قم ١٤٠٢هـ.

اختيار معرفة الرجال (رجال الكشّي)، أبوجعفر محمد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٤٦٠هـ، بتحقيق حسن المصطفوي، نشر كلّية الإلهيات ـ مشهد (دانشكده الهيات ومعارف اسلامي) ط الأولى ١٣٤٨ هـ ش.

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبوعبدالله محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفّى ٤١٣هـ، ترجمة وشرح السيّد هاشم الرسولي المحلاتي، انتشارات علمية إسلامية ـ طهران، وط أُخرى من منشورات بصيرتي ـ قم.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب (مطبوع بهامش الإصابة)، أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ الأندلسي القرطبي المتوفّى ٤٦٣ للهجرة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الأولى.

الإسلام والدولة المدنية، عبد المعطي محمد بيومي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ٢٠٠٦ م.

الإسلام والعالم المعاصر، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ط الأولى ١٩٧٣ م.

الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفّى ٨٥٢ للهجرة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الأولى.

الأصنام، هشام بن محمد الكلبي المتوفّى ٢٠٤ للهجرة، تحقيق أحمد زكي باشا، نسخة مصوّرة.

الأُصول والفروع من الكافي، محمد بن يعقوب الكلينيّ المتوفّى ٣٢٩ هـ، دارالكتب الإسلامية ـ طهران ١٣٨٨هـ وط دار الأضواء ـ بيروت.

الأعلام، خيرالدين الزركلي المتوفّى ١٣٩٦ هـ، منشورات دارالعلم للملايين ـ بيروت، ط السابعة ١٩٨٦ م.

إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي، من إعلام القرن السادس الهجري، صحّحه علي أكبر الغفاري، نشر دار المعرفة ـ بيروت ١٣٩٩ هـ.

إعلام الدين في صفات المؤمنين، الحسن بن أبي الحسن الديلمي من أعلام القرن الثامن الهجري، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم، ط الأولى ١٤٠٨ للهجرة.

أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفّين، أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبيّ المتوفّى ٦٣٣ للهجرة، دراسة وتحقيق د. محمد محزون، تقديم سامي الصفّار، مراجعة محمود محمد الطناحي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٨ م.

ألقاب الرسول وعترته، تأليف بعض المحدّثين والمؤرّخين، طبع ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام، منشورات دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

الأغاني، أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهاني المتوفى ٣٥٦ للهجرة، منشورات دار صعب ـ بيروت عن ط بولاق الأصلية.

الإمام محمد بن علي الجواد تاسع ائمّة أهل البيت عليهم السلام، عبد الزهراء عثمان محمد، مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد ط الأولى ١٤٠٨ للهجرة.

الإمام الصادق، الشيخ محمد الحسين المظفّر، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ط الرابعة ١٤٠٩ للهجرة.

الإمامة وأهل البيت، النظرية والاستدلال، السيّد محمد باقر الحكيم، المركز الإسلامي المعاصر ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٣ م.

الإمامة وأهل البيت، الدكتور محمد بيومي مهران، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط الثانية ١٤١٥ هـ.

الإمامة والتبصرة من الحيرة، أبو الحسن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٢٩ هـ، تحقيق محمد رضا الحسيني، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ بيروت، ط الثانية ١٩٩٢م.

الأمالي، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ هـ، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة ـ قم، ونشرته دار الثقافة ـ قم، ط الأولى ١٤١٤ للهجرة. وط أخرى طبعت في النجف.

الأمالي والمجالس، الشيخ محمد بن عليّ بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ هـ، المشهور بالصدوق، منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٤٠٠هـ وط كتابخانه إسلامية ـ طهران مقدّمة وترجمة كمره اي ١٤٠٤ للهجرة.

أنساب الأشراف، النسّابة والمؤرّخ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، من أعلام القرن الثالث الهجري، حقّقه وعلّق عليه الشيخ محمد باقر المحمودي، منشورات دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، ط الأولى ١٣٩٧ للهجرة.

الأنوار الجلالية في شرح الفصول النصيرية، جمال الدين مقداد بن عبدالله السيوري الحلّي المتوفّى ٨٢٦ للهجرة، تحقيق الشيخ نوروز علي حاجي آبادي والشيخ عبّاس المعلّميّ (جلالي نيا)، قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، ط الأولى ١٤٢٠ للهجرة.

أهل اليمن في صدر الإسلام دورهم واستقرارهم في الأمصار، نزار عبد اللطيف الحديثي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.

أيّام العرب قبل الإسلام، أبو عبيدة معمّر بن المثنّى المتوفّى ٢٠٩ للهجرة، جمع وتحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي، نشر عالم الكتب و مكتبة النهضة العربيّة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٨٧ م.

البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفّى ٧٧٤ هـ، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الأولى ١٤٠٨ هـ.

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، محمد باقر المجلسي المتوفّى ١١١١هـ، مؤسسة

الوفاء ـ بيروت و ط دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

بحوث في الملل والنحل، دراسة موضوعيّة مقارنة للمذاهب الإسلامية، الشيخ جعفر السبحاني، لجنة إدارة الحوزة العلمية بقم المقدّسة، ط الثانية ١٤١٣ للهجرة.

البرهان في تفسير القرآن، السيّد هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني المتوفّى ١١٠٧ أو ١١٠٩ للهجرة، وقف على تصحيحه محمود بن جعفر الموسوي الزرندي، نشر مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر ـ قم ط الثالثة.

بطل فخ، الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أمير مكّة وفاتحها، الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، شركة الكتبي للطباعة والنشر ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٩٣.

بغداد مدينة السلام، ابن الفقيه الهمداني، أحمد بن إسحاق بن إبراهيم، من أعلام القرن الثالث الهجري تحقيق الدكتور صالح أحمد العلي، وزارة الإعلام ـ بغداد، ط الأولى ١٩٧٧م.

بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الثانية.

بهجة الخاطر ونزهة الناظر في الفروق اللغوية والاصطلاحية، الشيخ يحيى بن حسين بن عشيرة البحراني، من أعلام القرن العاشر الهجري، تحقيق السيّد أمير رضا عسكري زاده، مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، ط الثانية ١٤٣٠ للهجرة.

البيعة ونظام الحكم في الإسلام، علي أمين جابر آل صفا، الدار الإسلامية ـ بيروت، ط الأولى ١٤٢٣ هـ.

تاج المواليد في مواليد الأئمّة ووفياتهم، العلّامة الطبرسي المتوفّى ٥٤٨ للهجرة، طبع ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام، دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

تاريخ الأئمّة، الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن أبي الثلج البغدادي المتوفّى ٣٢٢ أو ٣٢٣ أو ٣٢٥ للهجرة، طبع ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام، منشورات دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

تاريخ أرض الإسلام، الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام، كزافييه دو بلانهول، ترجمة د. معاوية سعيدوني، تقديم د ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي ـ تونس، ط الأولى ٢٠٠٨ م.

التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، دراسات نقدية في تفسير التاريخ، الدكتور فاروق عمر، مكتبة النهضة ـ بغداد، ط الثانية ١٩٨٥ م.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ المتوفى ٧٤٨ هـ، بتحقيق الدكتور بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى ١٤٢٤ هـ.

تاريخ الإسلام السياسي و الاجتماعي و الثقافي، الدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط السابعة ١٩٦٤م، أوفسيت دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

تاريخ أهل البيت، نقلاً عن الأئمّة الباقر والصادق والرضا والعسكري عن آبائهم عليهم السلام، رواه المحدّث نصر بن عليّ الجهضمي المتوفّى ٢٥٠ للهجرة، واستدرك عليه عدد من الرواة والمؤرّخين القدماء، تحقيق السيّد محمد رضا الحسيني الجلالي، من سلسلة مصادر بحار الأنوار، نشر دليل ما ـ قم، ط الأولى ١٤٢٦ للهجرة.

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، منشورات دار صادر ـ بيروت.

تاريخ خليفة بن خيّاط العصفريّ المتوفّى ٢٤٠ هـ، بتحقيق سهيل زكار، منشورات دار الفكر ـ بيروت، ط الأُولى ١٩٩٣م.

تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط السادسة ١٩٧٤ م.

تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، عمر فرّوخ، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط الرابعة ١٩٧٩م.

تاريخ العقيدة الشيعية و فرقها، الميرزا فضل الله بن ميرزا نصر الله، المعروف بشيخ الإسلام الزنجاني المتوفّى ١٣٧٣ هـ، بتحقيق غلام علي بور اليعقوبي، مجمع البحوث

الإسلامية ـ مشهد، ط الأولى ١٤٢٨هـ.

تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جعفر بن جرير الطبري المتوفّى ٣١٠هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، روائع التراث العربي ـ بيروت. وط مطبعة الاستقامة، القاهرة، أوفسيت مكتبة أرومية ـ قم.

التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسولصلى الله عليه وآله، الدكتور علي معطي، مؤسسة المعارف ـ بيروت، ط الأولى ١٤١٩ هـ.

تاريخ ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المتوفّى ٨٠٨هـ، دارالكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى ١٤١٣هـ.

تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى ٩١١هـ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات الشريف الرضي ـ قم ١٤١١ للهجرة.

تاريخ الفرق الإسلامية، العلّامة الشيخ محمد خليل الزين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٥ م.

تاريخ الكوفة، السيّد حسين بن السيّد أحمد البراقي النجفي المتوفّى ١٣٣٢ للهجرة، بتحرير وإضافة السيّد محمد صادق بحر العلوم، دار الأضواء ـ بيروت، ط الرابعة ١٩٨٧ م.

تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد و تاريخ المذاهب الفقهية، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

تاريخ الفقه الجعفري، هاشم معروف الحسني، دار الكتاب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٧ م.

تاريخ مدينة السلام وأخبار محدّثيها وذكر قطّانها العلماء من غير أهلها وارديها، والمشهور (تاريخ بغداد)، الحافظ أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفّى ٤٦٣ للهجرة، تحقيق الدكتور بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠١ م.

تاريخ مواليد الأئمّة ووفياتهم، أبو محمد عبد الله بن النصر بن الخشّاب البغدادي

المتوفّى ٥٦٧ للهجرة. طبع ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام، منشورات دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

التتمّة في تواريخ الأئمّة عليهم السلام، السيّد تاج الدين بن علي بن أحمد الحسيني العاملي من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، تحقيق مؤسسة البعثة، قسم الدراسات الإسلامية ـ قم، ط الأولى ١٤١٢ للهجرة. وله عنوان آخر «اليتيمة في تواريخ الأئمّة»[١].

تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأبرار، عماد الدين الطبري، من أعلام القرن السابع الهجري، تعريب عبد الرحيم مبارك، مجمع البحوث الاسلامية ـ مشهد، ط الثانية ١٤٢٧ هـ.

تذكرة الخواص، شمس الدين يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي، سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، المتوفّى ٦٥٤ للهجرة، مؤسسة أهل البيت ـ بيروت ـ ١٩٨١م.

ترتيب جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفّى ٣٢١ هـ، تصحيح و ترتيب عادل البدري، مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، ط الأولى ١٤٢٦ للهجرة.

التشيّع، نشأته ـ معالمه، هاشم الموسوي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية ـ قم، ط الأولى ١٩٩٣م.

التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠هـ، بتحقيق أحمد حبيب العاملي، ط مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم ١٤٠٩ للهجرة و ط مكتبة الأمين ـ النجف.

تفسير القاضي أبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي المتوفّى ٧٩١ للهجرة، نشر عبد الحميد أحمد حنفي ـ مصر ١٣٥٥ هـ.

التنبيه و الإشراف، عليّ بن الحسين المسعودي المتوفّى ٣٤٥ هـ، بتصحيح عبد الله الصاوي، دار الصاوي ـ القاهرة.

تنقيح المقال في علم الرجال، عبد الله بن محمد حسن العلّامة المامقاني، انتشارات جهان طهران.

١ـ يراجع: مقدّمة السيّد محمد رضا الجلالي: ٣٥ لكتاب **تاريخ أهل البيت**، من سلسلة مصادر بحار الأنوار والذي رواه نصر بن عليّ الجهضمي.

تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي، من أعلام القرن الثالث الهجري، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ، وط أخرى طبعت في النجف بتصحيح الطيّب الجزائري.

تفسير فرات، فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي، من علماء القرن الثالث الهجري، المطبعة الحيدرية - النجف، أوفسيت مكتبة الداوري - قم. وطبعة أخرى مصححة طبعت في قمّ.

تفسير العيّاشي، محمد بن مسعود بن عيّاش السلميّ السمرقنديّ، من أعلام القرن الثالث، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران، ط الأولى.

تفسير مجاهد، مجمع البحوث الإسلامية إسلام آباد - الباكستان.

تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠هـ تصحيح السيّد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية - طهران.

التوحيد، محمد بن علي بن بابويه الصدوق المتوفّى ٣٨١، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.

جامع الأخبار، أو معارج اليقين في أصول الدين، الشيخ محمد بن محمد السبزواري (المشهور بالشعيري)، من أعلام القرن السابع الهجري، تحقيق علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، ط الأولى ١٤١٤ للهجرة.

جامع الرواة، محمد بن علي الأردبيليّ الغرويّ الحائريّ، من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، منشورات مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ - قم ١٤٠٣ للهجرة.

الجامع الصحيح (سنن الترمذي) أبو عيسى محمد بن عيسى المتوفّى ٢٧٩هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت.

جمل من أنساب الأشراف، الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفّى ٢٧٩ للهجرة، حقّقه وقدّم له الدكتور سهيل زكّار والدكتور رياض زركلي بإشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر - بيروت، ط الأولى ١٩٩٦ م.

الجمل والنصرة لسيّد العترة في حرب البصرة، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الشيخ المفيد المتوفّى ٤١٣، تحقيق السيّد علي ميرشريفي، مكتب الإعلام

الإسلامي، ط الأولى ١٤١٣ للهجرة.

جنّة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية، المشهور بمصباح الكفعميّ، تقي الدين إبراهيم بن علي ابن الحسن العامليّ الكفعمي من أعلام القرن التاسع الهجري، منشورات الأعلمي - بيروت، ط الثالثة ١٤٠٣ للهجرة.

جهاد الإمام السجّاد زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، محمد رضا الحسيني الجلالي، مؤسسة دار الحديث الثقافية ١٤١٨ للهجرة.

جهاد الشيعة في العصر العبّاسي الأوّل، سميرة مختار الليثي، أوفسيت عن ط المصرية ١٤٠٤ للهجرة.

الحسن بن علي عليه السلام، دراسة وتحليل، كامل سليمان، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، ط الخامسة ٢٠٠٤ م.

حزب الشيعة في أدب العصر الأموي، ثريا عبد الفتّاح ملحس، الشركة العالمية للكتاب ش م ل، مكتبة المدرسة - دار الكتاب العالمي _ الدار الأفريقية - بيروت، ط الأولى ١٩٩٠م.

حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصفهاني المتوفّى ٤٣٠ هـ دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون - بيروت، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ١٩٩٧ م.

حليم آل البيت الإمام الحسن عليه السلام، الشيخ موسى محمد علي، عالم الكتب - بيروت، ط الثانية ١٩٨٤ م.

الحياة السياسية للإمام الحسن عليه السلام **في عهد الرسول** صلى الله عليه وآله و الخلفاء الثلاثة بعده، جعفر مرتضى العاملي، ١٤٠٥ للهجرة.

الخصال، محمد بن عليّ بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ هـ نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.

الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية، الدكتور فاروق عمر، منشورات مكتبة المثنى بغداد، ط الثانية ١٩٧٧ م.

دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكّرة، خالد العسلي، إعداد وتقديم،

عماد عبد السلام رؤوف، منشورات دار الشؤون الثقافية العامّة، وزارة الثقافة - بغداد ط الأولى ٢٠٠٢ م.

دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلاميّة، عبد الجبّار ناجي، شركة المطبوعات للنشر- بيروت، ط الأولى ٢٠٠١ م.

الدروس الشرعيّة في فقه الإمامية، الشهيد الأوّل شمس الدين محمد بن مكّي العاملي المتوفّى ٧٨٦ للهجرة، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية - مشهد، ط الثانية ١٤٢٦ للهجرة.

دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، من أعلام القرن الرابع الهجري، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف ١٩٦٣ م.

دور أئمّة أهل البيت في الحياة السياسية، عادل الأديب، دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤٠٨هـ.

دور الحجاز في الحياة السياسية العامّة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة، الدكتور أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي.

دول الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفّى ٧٤٨ للهجرة، تحقيق حسن إسماعيل مروة وبمقدّمة محمود الأرناؤوط، دار صادر - بيروت، ط الأولى ١٩٩٩ م.

الدولة الأموية، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الخضري، دار المعرفة - بيروت، ط الثامنة ٢٠٠٥ م.

الدولة العبّاسية، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الخضري، دار المعرفة - بيروت، ط السابعة ٢٠٠٥ م.

رجال صحيح مسلم، أحمد بن عليّ بن منجويه الأصفهاني المتوفّى ٤٢٨ للهجرة، تحقيق عبد الله الليثي، ط دار المعرفة - بيروت.

رجال الطوسي، محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ للهجرة، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية - النجف، ط الأولى.

رجال العلّامة (خلاصة الأقوال في معرفة الرجال) جمال الدين الحسن بن يوسف بن مطهّر الحلّي المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، منشورات الرضي ـ قم، أفسيت عن طبعة النجف.

رجال النجاشي، أبو العبّاس أحمد بن علي النجاشي المتوفّى ٤٥٠ للهجرة، تحقيق السيّد موسى الشبيري الزنجاني، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم ١٤٠٧ للهجرة

رسائل الشريف المرتضى، إعداد السيّد مهدي الرجائي، تقديم و إشراف السيّد أحمد الحسيني، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات ـ بيروت.

الرسائل العشر، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ للهجرة، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم.

الرسول المصطفى و مقولة الرأي، باسم الحلّي، موسوعة الرسول المصطفى ـ مشهد.

رسوم دار الخلافة، أبو الحسين هلال بن المحسّن الصابئ المتوفّى ٤٤٨ للهجرة، تحقيق ميخائيل عوّاد، دار الرائد العربي ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٦ م.

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لابن هشام، للإمام المحدّث عبد الرحمن السهيلي المتوفّى ٥٨١ للهجرة، علّق عليها وقدّم لها الشيخ عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٠ م.

سعد السعود، أبو القاسم عليّ بن موسى بن محمد بن طاووس المتوفّى ٦٦٤ للهجرة، منشورات الرضي ـ قم ١٣٦٣ هجري شمسي.

سفينة البحار و مدينة الحكم و الآثار، الشيخ عباس القمّي المتوفّى ١٣٥٩هـ، تحقيق مجمع البحوث الإسلاميّة التابع للروضة الرضوية ـ مشهد، ط الأُولى.

سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المتوفّى ٢٧٣ للهجرة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

السيف و السياسة في الإسلام، صالح الورداني، دار القارئ ـ بيروت، ط الثانية ١٤٢٢هـ.

سيرة الأئمّة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، دار التعارف، دار القلم ـ بيروت، ط الأولى

١٩٧٧ وط الثالثة ١٩٨١م.

سيرة المصطفى، نظرة جديدة، هاشم معروف الحسني، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٩٨٦م.

السيرة الحلبية (سيرة الأمين المأمون إنسان العيون) علي بن برهان الدين الحلبي المتوفّى ١٠٤٤للهجرة، دار المعرفة ـ بيروت.

السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن ايّوب الحميري المتوفّى ٢١٣ أو٢١٨ للهجرة، حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٥٥للهجرة.

السيرة النبوية، محمد بن إسحاق المطّلبي المدني المتوفّى ١٥١للهجرة، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٤ م.

سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي المتوفّى٧٤٨ للهجرة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٨٥ م.

سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام شخصيته وعصره، الدكتور علي محمد الصلّابي، دار المعرفة ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٤ م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبليّ المتوفّى ١٠٨٩هـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمد بن أبي الحديد المتوفّى ٦٥٦ هـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة المرعشي النجفي ـ قم ١٤٠٤هـ

شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المتوفّى٦٧٩ للهجرة، نشر: دفتر نشر الكتاب، ط الثانية١٤٠٤ للهجرة.

الشيعة في التاريخ، الشيخ محمد حسين الزين، نشر السيّد مرتضى الرضوي، مطبعة العرفان ـ صيدا، ط الثانية.

الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني، دار القلم ـ بيروت، ط الأولى

١٩٧٨م.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي المتوفّى ٨٢١ للهجرة، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى ١٤٠٧ للهجرة .

صحيح مسلم بن الحجّاج النيسابوري المتوفّى ٢٦١هـ ، منشورات دار الفكر و دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، السيّد جعفر مرتضى العاملي، دار الحديث ـ بيروت، ط الثانية ٢٠٠٧م.

صحيفة الحسن عليه السلام ، جواد قيّومي إصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم، ط الأولى ١٣٧٥هـ ـ ش.

صلح الإمام الحسن عليه السلام ، أسبابه ـ نتائجه، محمد جواد فضل الله، دار المثقّف المسلم ـ قم.

الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الهاشمي البصريّ المتوفّى ٢٣٠ هـ ، دار صادر و دار بيروت ـ بيروت ١٩٦٠ م.

الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، علي بن موسى بن طاووس المتوفّى ٦٦٤ للهجرة، بتحقيق السيد مهدي الرجائي، مؤسسة البلاغ ـ بيروت، ط الأولى ١٤١٩هـ.

العبد الصالح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، الشيخ محمد فاضل المسعودي، نشر زائر ـ الروضة المقدّسة ـ قم، مطبعة توحيد ـ قم ١٤٢٤ للهجرة.

العبر في خبر من غبر، الحافظ محمد بن أحمد الذهبي المتوفّى ٧٤٨ للهجرة، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

العدد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة، رضي الدين علي بن يوسف بن مطهّر الحلّي من أعلام القرن الثامن الهجري، تحقيق السيّد مهدي الرجائي، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي العامّة ـ قم، مطبعة سيّد الشهداء، ط الأولى ١٤٠٨ للهجرة.

العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية و الإدارية، ثابت إسماعيل الراوي، منشورات مكتبة النهضة ـ بغداد، ط الأولى ١٩٦٥م.

العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، نينا فكتور فنابيغوليفسكيا، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، أشرف على طبعه قسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ١٩٨٥م.

العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، الدكتور إحسان النص، منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت.

عقيدة الشيعة، كتاب عن تاريخ الإسلام في إيران والعراق، دوايت م. رونلدسن .تعريب ع. م، مؤسسة المفيد للطباعة والنشر ـ بيروت، ط الثانية ١٩٩٠م.

عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، المسمّى بالعيني على البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد المعيني المتوفّى ٨٥٥ هـ، دار الفكر ١٣٩٩هـ.

علل الشرائع، محمد بن علي بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١هـ ـ المكتبة الحيدرية ـ النجف ١٣٨٥هـ.

العلاقات العبّاسية البيزنطية، موفق سالم نوري، وزارة الثقافة ـ بغداد ١٩٩٢م.

عليّ ومناوئوه، الدكتور نوري جعفر، قدّم له الأستاذ عبد الهادي مسعود، راجعه السيّد مرتضى الرضوي، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط الرابعة ١٩٧٦م.

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن سيّد الناس اليعمري المتوفّى ٧٣٤هـ، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد العيد الخطراوي ـ محيي الدين متو، مكتبة دار التراث، المدينة المنوّرة ـ دار ابن كثير ـ دمشق، ط الأولى ١٩٩٢م.

عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ هـ، نشر رضا مشهدي ـ قم.

عيون المعجزات، الشيخ حسين بن عبد الوهّاب، من علماء القرن الخامس الهجري، منشورات مكتبة الداوري ـ قم.

الغارات، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي الأصفهاني المتوفّى ٢٨٣، مقدّمة وحواشي وتعليقات مير جلال الدين المحدّث الأرموي، سلسلة انتشارات انجمن آثار ملّي ـ طهران.

غرر الأخبار ودرر الآثار في مناقب أبي الأئمّة الأطهار عليّ أمير المؤمنين وسيّد الوصيين و إمام المتّقين أخي النبي المصطفى المختار صلوات الله عليهما، الحسن بن أبي الحسن عليّ بن محمد الديلمي، من أعلام القرن الثامن الهجري، تحقيق إسماعيل الضيغم، مكتبة العلّامة المجلسي، من سلسلة مصادر بحار الأنوار، منشورات دليل ما، ط الأولى ١٤٢٧هـ.

الغيبة، محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠هـ، مكتبة نينوى الحديثة ـ طهران.

الفتنة ووقعة الجمل، رواية سيف بن عمر الضبّي المتوفّى ٢٠٠هـ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش، دار النفائس ـ بيروت، ط الثانية ١٩٧٧م.

الفتوح، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي المتوفّى نحو سنة ٣١٤هـ، تحقيق علي شيري، دار الأضواء ـ بيروت.

فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام **في النجف**، النقيب غياث الدين السيّد عبد الكريم بن طاووس المتوفّى ٦٩٣هـ، منشورات الرضي ـ قم.

فرق الشيعة، أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، من أعلام القرن الثالث للهجرة، صحّحه وعلّق عليه السيّد محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٩٣٦م.

فلاح السائل، علي بن موسى بن طاووس المتوفّى ٦٦٤ هـ. ط المكتب الإسلامي ـ قم.

الفهرست، محمد بن إسحاق بن محمد بن النديم الورّاق المتوفّى ٤٣٨ هـ، تحقيق رضا تجدد ـ طهران. وط دار المعرفة ـ بيروت.

الفهرست، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم، نشر المكتبة المرتضوية ـ النجف.

القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، دار الفكر.

قرب الإسناد، أبو العبّاس عبد الله بن جعفر الحميري القمّي، من أعلام القرن الثالث الهجري، مكتبة نينوى الحديثة ـ طهران.

قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر ـ القاهرة، ط الأولى ١٩٩٣م.

الكامل في التاريخ، أبوعلي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن الأثير الجزري، المتوفّى ٦٣٠ هـ، تصحيح محمد يوسف الدقّاق، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٩٨م.

الكامل في اللغة والأدب، أبوالعبّاس محمد بن يزيد المعروف بالمبرّد النحوي المتوفّى ٢٨٥هـ، مؤسسة المعارف ـ بيروت.

كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبوالحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي المتوفّى ٦٩٣هـ نشر مكتبة بني هاشمي ـ تبريز ١٣٨١هـ

كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، أبوالقاسم علي بن محمد بن علي الخزّار، من أعلام القرن الرابع الهجري، انتشارات بيدار ـ قم.

كمال الدين وإتمام النعمة، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه الصدوق المتوفّى ٣٨١هـ، منشورات ذوي القربى ـ قم، ط الأولى ١٤٢٨، وطبعة جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة ـ قم .

الكنى و الألقاب، الشيخ عبّاس القمّي المتوفّى ١٣٥٩ هـ، المطبعة الحيدرية ـ النجف، ط الأولى ١٣٧٦هـ

لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المتوفّى ٧١٣هـ، دار الفكر ـ بيروت.

مجمع الزوائد و منبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفّى ٨٠٧ هـ، نشر دار الكتاب ـ بيروت، ط الثانية ١٩٦٧م.

ما منّا إلّا مقتول أو مسموم، جعفر البياتي، نشر كوثر كوير ١٤٢٤ هـ

المحاسن و المساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي من أعلام القرن الرابع الهجري، دار بيروت ـ بيروت ١٤٠٤هـ.

مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبد الله القلقشندي المتوفّى ٨٤١هـ، بتحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج، ط عالم الكتب ـ بيروت.

مجمع البحرين و مطلع النيّرين، فخر الدين الطريحي المتوفّى ١٠٨٥هـ، تحقيق السيّد أحمد

الحسيني، المكتبة الرضوية ـ طهران.

المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي المتوفّى ٢٧٤هـ، تحقيق المحدّث الأرموي، نشر دار الكتب الإسلامية ـ قم.

المدوّنة الكبرى، مالك بن أنس المتوفّى ١٧٩هـ، دار صادر ـ بيروت أوفسيت عن الطبعة الأصليّة.

مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط الأولى ١٩٧٣م.

المستجاد من كتاب الإرشاد، العلّامة الحلّي المتوفّى٧٢٦، ط ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام، منشورات دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢م.

مسند أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي المتوفّى ٣٠٧هـ، تحقيق حسين سليم أسد، نشر دار المأمون للتراث دمشق ـ بيروت، ط الأولى ١٩٦٦م.

المصنّف في الأحاديث والآثار، الحافظ عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة الكوفي العبسي المتوفّى ٣٢٥هـ، نشر دار الفكر ـ بيروت ١٤١٤هـ.

معاني الأخبار، محمد بن عليّ بن بابويه القمّي المتوفّى٣٨١هـ، تصحيح علي أكبر الغفّاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية ـ قم ١٣٦١ هجري ش.

مثير الأحزان في أحوال الاثني عشر أمناء الرحمن، الشيخ شريف الجواهري المتوفّى ١٣١٤هـ، منشورات الرضي ـ قم، ط الثانية ١٣٦٢هـ. ش.

مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري المتوفّى ١٣٢٠هـ، منشورات المكتبة الإسلامية ومؤسسة إسماعيليان.

المجتنى من الدعاء المجتبى، السيّد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس المتوفّى٦٦٤هـ، تحقيق: صفاء الدين البصري، مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، ط الأولى ١٩٩٣م.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمدبن علي المقرئ الفيّومي المتوفّى ٧٧٠هـ، منشورات دار الهجرة ـ قم وط المكتبة العلمية ـ بيروت.

المعارضة السياسية في تجربة أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الزهراء عثمان محمد، دار الهادي ـ

بيروت، ط الأولى ٢٠٠٣م.

معالم الفلسفة الإسلامية، نظرات في التصوّف والكرامات، محمد جواد مغنية، دار ومكتبة الهلال ـ دار الجواد ـ بيروت، ط الخامسة ١٩٨٦م.

معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي المتوفّى ١٤١٣هـ، مطبعة الآداب ـ النجف ١٣٩٨هـ.

المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفّى ٣٦٠هـ، حققه وخرّج أحاديثه **حمدي عبد المجيد السلفي**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٤م.

المغازي، محمد بن عمر الواقدي المتوفّى ٢٠٧هـ، تحقيق مارسدن جونسن، نشر دانش إسلامي ١٤٠٥هـ.

مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفّى ٥٠٢ هـ بتحقيق محمد سيّد كيلاني، نشر: دفتر نشر الكتاب ١٤٠٤هـ.

مقاتل الطالبيّين، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني المتوفّى ٣٥٦هـ بتحقيق أحمد صقر، ط دار المعرفة ـ بيروت.

المقنعة، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفى ٤١٣ هـ، نشر جماعة المدرسين للحوزة العلميّة بقم.

من حياة أهل البيت عليهم السلام، محمد علي التسخيري، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط الثانية ١٤١٩هـ.

المناقب والمثالب، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، المتوفّى ٣٦٣هـ، تحقيق ماجد بن أحمد العطيّة، منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢م.

المنتقى في أعقاب الحسن المجتبى، النسّابة الشريف إيهاب يعقوب الكتبي الحسني، دار المجتبى للنشر والتوزيع ـ المدينة المنوّرة، ط الثانية ١٩٩٩م.

مهج الدعوات ومنهج العبادات، أبو القاسم رضي الدين علي بن موسى بن محمد بن طاووس

المتوفّى ٦٦٢هـ، انتشارات كتابخانه سنائي.

موسوعة التاريخ الإسلامي، مجموعة من الكتّاب، دار أسامة للنشر و التوزيع عمّان ـ الأردن، ط الأُولى ٢٠٠٦م.

المعارف، عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى ٢٧٦هـ ، تحقيق ثروت عكاشه، ط وزارة الثقافة و الإرشاد القومي ـ القاهرة، اوفسيت منشورات الرضي ـ قم.

مسند أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١هـ، دار صادر ـ بيروت.

المرأة في أدب العصر العبّاسي، الدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي، وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد، دار الرشيد للنشر١٩٨١م.

مروج الذهب و معادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي المتوفّى ٣٤٦هـ، منشورات دار الهجرة ـ قم، ط الثانية ١٤٠٤هـ، وط دار الأندلس ـ بيروت، ط الأولى ١٩٦٥م.

من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن بابويه الصدوق المتوفى ٣٨١ هـ، دار الكتب الإسلامية ـ طهران ١٣٩٠هـ.

المقالات و الفرق، سعد بن عبد الله الأشعري القمّي المتوفى ٢٩٩ أو٣٠١هـ، تحقيق د. محمد جواد مشكور، مجموعة ميراث إيران و إسلام وزارة الثقافة ـ طهران جمهورية إيران الإسلامية، ط الثانية ١٣٦٠هـ. ش.

مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني المتوفى ٥٨٨هـ، ط المطبعة العلمية ـ قم.

مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ، المتوفّى ٥٤٨هـ، منشورات مكتبة المرعشي النجفي ـ قم ١٤٠٣هـ، أوفسيت مطبعة العرفان ـ صيدا.

مسارّ الشيعة، الشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد المتوفّى ٤١٣، ط ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام، منشورات دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى٢٠٠٢م.

المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفّى ٤٠٥هـ، ط دار المعرفة ـ بيروت.

مشكاة المصابيح، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي المتوفّى ٧٤١هـ،

اعتنى به محمد نزار تميم ـ هيثم نزار تميم، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت.

مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، محمد بن الحسن الشيخ الطوسي المتوفّى ٤٦٠هـ، مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩١م.

مفتاح الفلاح، الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي المعروف بالشيخ البهائي المتوفّى ١٠٣٠هـ، منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ط الأولى ١٩٨٥م.

الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفّى ٥٤٨ للهجرة، تصحيح وتخريج محمد بن فتح الله بدران، ط مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة، أوفسيت منشورات الرضي ـ قم.

الملل والنحل، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي المتوفّى ٤٢٩، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه ألبير نصري نادر، دار المشرق ـ بيروت.

مناهل الضرب في أنساب العرب، النسّابة السيّد جعفر الأعرجي النجفي الحسيني المتوفّى ١٣٣٢للهجرة، تحقيق السيّد مهدي الرجائي، نشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي ـ قم، ط الأولى ١٤١٩ للهجرة.

منتهى المطلب في تحقيق المذهب، العلّامة الحسن بن يوسف بن مطهر الحلّي المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد، ط الأولى.

المواجهة مع رسول الله وآله (القصّة الكاملة)، المحامي أحمد حسين يعقوب، مركز الغدير للدراسات الإسلامية ـ بيروت، ط الثانية ٢٠٠٢ م.

موسوعة التاريخ الإسلامي، مجموعة من الكتّاب، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن ـ عمّان، ط الأولى ٢٠٠٦ م.

ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفّى ٧٤٨ للهجرة، تحقيق علي محمد البجّاوي، دار المعرفة ـ بيروت.

نشأة التشيّع والشيعة، محمد باقر الصدر، تحقيق عبد الجبّار شرارة، دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط الأولى ١٩٩٣م.

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الأب لويس شيخو، منشورات دار المشرق ـ بيروت، ط

الثانية ١٩٨٩م.

نهاية الإرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفّى٧٣٣ للهجرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب.

النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير التوفّى ٦٠٦ هـ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، أوفسيت إسماعيليان ـ قم.

نهج البلاغة، جمعه الشريف الرضي المتوفّى ٤٠٦ هـ من خطب و أقوال أمير المؤمنين علي عليه السلام، بتصحيح و شرح صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة ـ قم.

نظرية عدالة الصحابة و المرجعية السياسية في الإسلام، المحامي أحمد حسين يعقوب، شركة شمس المشرق للخدمات الثقافية ـ بيروت، ط الأولى ١٤١٣ هـ.

واقع التقيّة عند المذاهب و الفرق الإسلامية من غير الشيعة الإمامية، ثامر هاشم حبيب العميدي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط الأولى ١٤١٦هـ.

ورّاقو بغداد في العصر العبّاسي، الدكتور خير الله سعيد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ الرياض، ط الأولى ٢٠٠٠ م.

الوفا بأحوال المصطفى، أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمد بن علي بن الجوزي المتوفّى ٥٩٧هـ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى ١٩٨٨ م.

وقعة صفّين، نصر بن مزاحم المنقري المتوفى ٢١٢ هـ تحقيق عبد السلام محمد هارون المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة، ط الثانية ١٣٨٢هـ، أوفسيت مكتبة المرعشي النجفي، قم ١٤٠٣هـ.

الوزراء و الكتّاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، المتوفّى ٣٣١هـ، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة، ط الأولى ١٣٥٧هـ.

ينابيع المودّة، الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي المتوفّى ١٢٩٤هـ، نشر دار الكتب العراقية، محمد اعتماد كتبي ـ بغداد ١٩٦٦م، ط الثامنة.

الفهرس